زوايا من العالم

لقاء مع الجنرال

غراهام غرين

ترجمة :
فارس غصوب



١٩٩٠

سلسلة روايات من العالم ٣

الرواية لقاء مع الجنرال

تأليف غراهام غرين

نقلها إلى العربية فارس غصوب

الناشر دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ص. ب: ١١/٣٨٨١ ـ هاتف ١/٣٠٥٥٢٠.

التنضيد شركة المطبوعات اللبنانية ش. م. ل.

الطبعة الأولى ١٩٩٠

تصميم الغلاف نجاح طاهر

«أذهب، لكنّي أعود.
أريد أن أكون رائد الظلمات والحلم».

(ألفريد لورد تنيسون)

الى أصدقاء صديقي

عمر توريخوس

في نكياراغوا والسلفادور وبانـاما

مقدمة

١

حزمت أمتعتي في آب عام ١٩٨١ للرحلة الخامسة إلى پاناما، وإذ بجرس الهاتف يرنّ لأتلقّى نبأ موت الجنرال عمر توريخوس هيرّيرا (Omar Torrijos Herera)، مضيفي وصديقي. فقد تحطمت في الجبال الپانامية الطائرة التي كانت تقلّه إلى منزله في كوكليزيتو (Coclesito). مات كل من كان على متنها. بعد بضعة أيام، قال لي الرقيب شوشو، المدعو خوسي دي يزوس مارتينيز (José de Jesis Martinez)، وهو مدّرس سابق للفلسفة الماركسية في جامعة باناما، وأستاذ في الرياضيات أيضاً، وشاعر، قال: «كانت ثمة قنبلة في الطائرة. أعرف ذلك. لا أستطيع أن أقول لك لماذا على الهاتف...».

استحضرتني في تلك اللحظة فكرة كتابة مذكرات شخصية مقتضبة مستنداً إلى يوميات احتفظت بها خلال السنوات الخمس الأخيرة. إنها طريقة لتكريم الرجل الذي أحببت جداً في تلك المرحلة. وما أن كتبت العبارات الأولى، بعد عنوان لقاء مع الجنرال، لاحظت أنني لم أتعرّف إلى الجنرال فقط خلال تلك السنوات الخمس ـ فهناك أيضاً شوشو، أحد

الرجال النادرين في الحرس الوطني الذي وضع الجنرال فيه ثقة مطلقة؟ وهناك أيضاً ذلك البلد الصغير الغريب الجميل المنقسم إلى قسمين القناة والقطاع الأميركي، بلاد ارتدت بفضل الجنرال أهمية عمليّة كبيرة في نضالات التحرّر التي جرت في نيكاراغوا والسلفادور.

II

وفيما أنا أنجز صياغة هذا الكتاب، سألتني ذات يوم إحدى صديقاتي: «من أين جاءك هذا الاهتمام الدائم باسبانيا وأميركا اللاتينية؟ كتبت عن المكسيك في كتاب القوّة والمجد، وعن الباراغواي في رحلات مع عمّتي، وعن كوبا في عميلنا في هافانا، والأرجنتين في القنصل الفخري، سافرت أخيراً إلى شيلي لمقابلة الرئيس الليندي ـ ونشرت مؤخراً المونسنيور كيشوت...».

بدا لي هذا السؤال صعباً لأنه يتوجّب عليّ أن أفتّش عن الجواب في أعماق اللاوعي. يعود اهتمامي إلى ما قبل زيارتي للمكسيك في عام ١٩٣٨، بهدف التقصّي عن الاضطهادات الدينية. فقصّتي الثانية «شائعة مع هبوط الليل» التي صدرت في عام ١٩٣٤ وقد جرت فصولها في أسبانيا أثناء الحروب الكارليّة ـ لم أكن، يوم كتبتها، قد أمضيت سوى يوم واحد في اسبانيا، وأنا في السادسة عشرة من العمر. زرت آنذاك لاكوروني (La Corogne) مستفيداً من توقف المركب الذي يقلّنا إلى لشبونة في فيغو (Vigo) كنت برفقة عمتي إيفا التي ذهبت للقاء زوجها العائد من البرازيل التي يملك فيها استثمارة للبنّ. اقترحت على عمتي في فيغو، زيارة قبر الجنرال السير جون مور (Sir John Moore)، وهو شخصية مقرّبة إلى العائلة، قضى أثناء الانسحاب الشهير أمام الفرنسيين باتجاه لاكوروني حيث دُفن «خلال الليل وقد حفرنا الأرض يومها بحرابنا» ـ وفقاً لما جاء في القصيدة الوحيدة التي نُشرت في مذكرات المبشر الإيرلندي شارل وولف

(Wolfe) المحترم. مضت ستون سنة قبل أن أرى القبر، وقد حفرت عليه هذه الأبيات من الشعر، في اللحظة التي بدأت فكرة المونسنيور كيشوت تنمو في رأسي.

إن «شائعة مع هبوط الليل» رواية سيئة جداً، آمل ألَّا يعاد طبعها، لكن تعلّقي بالبلدان الأسبانية يعود إلى ما قبل ذلك بكثير. «بعد تخرّجي من أكسفورد» أجبت صديقتي، كتبت قصّة الحادث التي لم تجد، لحسن الحظّ، من ينشرها. كنت قد بدأت، في تلك المرحلة، بقراءة كتاب كارليل، الكتاب الوحيد الذي لم أكمل قراءته أبداً. وهو يروي سيرة شاعر طموح سيء الحظ، يدعى جون سترلينغ (John Sterleeng) اختلط في مرحلة شبابه بالمهاجرين الكارليين في لندن. ولديَّ هنا الطبعة الأولى التي ابتعتها بعشرة شلينات في شايشستر (Chichester) منذ ١٢ سنة، لكنني لم أقرأها بعد. «أخذت يومها الكتاب الذي نُشر عام ١٨٥١ وفتحت الفهرس. قرأت فيه: «الجزء الأول، الفصل الثامن: توريخوس». انبثق ذلك الاسم من الصفحة وصعقني كأنه رسالة من عالم آخر.

إنكببت على قراءة قصة هؤلاء البؤساء الأسبان الذين تعاطف معهم جون سترلينغ وبطل روايتي الشاب. «قامات رهيبة مأساوية متجلببة بعزّة وإباء بمعاطف مقلّمة، تسير مزمومة الشفاه على أرصفة أوستن سكوير (Euston Square)، وحول الكنيسة الجديدة سانت پانكرا (St Pancras)». وفي صفوفها: «الزعيم المعروف لهؤلاء المنفيّين الأسبان الفقراء، الجنرال توريخوس، رجل ذو صفات ساطعة وطبيعة غنيّة، لا يزال في ريعان الشباب، يرفض في تلك الظروف الصعبة أن يستسلم لليأس».

قُتل الجنرال توريخوس، الذي التقيت به واحببت، في عزّ شبابه. عشت إلى جانبه في أقسى الظروف التي عاناها ألا وهي آخر مراحل المفاوضات الماراتونية مع الولايات المتحدة حول معاهدة القناة ونتائجها المخيّبة للآمال. رفض الاستسلام لليأس؛ فواجه بجدّية وحزم احتمال نشوب نزاع مسلّح

بين بلده الصغير والدولة العظمى التي تحتلّ المنطقة.

ألحّت عليّ صديقتي سائلة لما هذا الاهتمام طوال كل تلك السنوات باسبانيا وأميركا اللاتينية؟ قد يكون الجواب فيما يلي: نادراً ما عنت السياسة في هذه البلدان مجرّد تناوب الأحزاب المتخاصمة؛ فمراهناتها هي إما الحياة وإما الموت.

III

لم أكن أعرف بعد، في عام ١٩٧٦، تاريخ پاناما، فبعد انفصالها عن اسبانيا في بداية القرن التاسع عشر، اختارت پاناما طوعاً ربط مصيرها بما كانت تُسمّى يومها كولومبيا، وهي أوسع ممّاهي عليه اليوم. وجمهورية پاناما الجديدة في القرن العشرين شيء مختلف تماماً: إنها اختراع تيودور روزفلت الشخصي الذي قرّر أن يقوم بما يلزم لكي يصبح حلم دي ليسيبس (De Lesseps) (قناة بحريّة تصل بين المحيطين الأطلسي والهادىء) الذي مُني بكارثة مادّية بعد عشر سنوات من العمل، حقيقة راهنة تحت حماية الولايات المتحدة وتابعة لملكيتها الخاصة الضمنيّة.

عندما فشل دي ليسيبس، كانت پاناما لا تزال مقاطعة كولومبية، تفصلها عن الدولة، كما هي اليوم، مساحة من الجبال والأدغال التي لا طرقات فيها أبداً. وأصبح هدف الولايات المتحدة تأمين خلق دولة مستقلة مصطنعة في پاناما، لأن المفاوضات مع كولومبيا حول التنازل راوحت في مكانها، وتبيّن في النهاية أنها مستحيلة.

هكذا نشرت مجلة نيويورك وورلد (New York World)، في ١٣ حزيران عام ١٩٠٣ وبموافقة البيت الأبيض، بياناً مثيراً يعلن قيام انتفاضة لم تكن قد حصلت بعد.

«وفقاً للمعلومات التي حصلنا عليها، إن دولة پاناما التي تضمّ كل

منطقة القناة مستعدة لقطع علاقاتها مع كولومبيا وتوقيع معاهدة حول القناة مع الولايات المتحدة.

ستعلن دولة پاناما الانفصال إذا امتنع البرلمان الكولومبي عن إبرام المعاهدة. وستتشكل حكومة من النوع الجمهوري في البلاد. هذه الخطة سهلة التنفيذ خاصة وأن الجيوش الكولومبية المتواجدة في پاناما لا تتجاوز المئة رجل».

خطّة سهلة التنفيذ بالفعل، كانت نتيجتها وقوع پاناما تحت السيطرة الشخصية لعائلة أرياس والطغمة المرتبطة بها ـ سيطرة استمرت حوالى نصف قرن لصالح الولايات المتحدة المطلق.

أمّا الانتفاضة، إذا صحّت التسمية، فقد قام بها أخيراً بونو ـ ڤارّيا (Bunau-Varilla)، مهندس فرنسي بقي في البلاد بعد فشل دي ليسيبس. ساعده الدكتور أمادور (Amador)، وهو واحد من الشركة الأميركية التي بنت الخطّ الحديدي الذي يصل بين المحيطين الأطلسي والهادىء ـ وهو موقع رئيسي كما سيتبيّن ـ عندما اكتشفت كولومبيا ما كان يُحاك وأرسلت مئتي رجل للمساندة إلى كولون (Colon) على شاطىء الأطلسي، وجد أسياد شركة خط الحديد أنفسهم، بعد نقاش مع الدكتور أمادور، عاجزين عن نقل قوة بهذا الحجم. تمكنوا فقط من تأمين قطار صغير خاص لكي يستقبلوا الجنرال الكولومبي توكار (Tokar) ومساعديه وزوجاتهم، الذين سافروا دون أية مواكبة حتى بلغوا المحيط الهادىء. جرى استقبالهم هناك بحفاوة بالغة، وتناولوا طعاماً شهياً، ثم توزّعوا إلى أماكنهم.

نزلت الجيوش في ٢ تشرين الثاني عام ١٩٠٣، وفي السادس منه، اعترفت الولايات المتحدة بجمهورية پاناما المستقلة. وقّع سكرتير الدولة الأميركية هاي (Hay)، والفرنسي بونو ـ ڤاريا، في واشنطن، أول معاهدة تخلق منطقة أميركية على ضفتي القناة المقبلة، لقاء إيجار زهيد أُحتسب على

أساس حقّ المرور. ولم يروا ضرورة لطلب توقيع بانامي.

تعطي هذه المعاهدة التي سوف تسيء، عدة مرات، إلى العلاقات بين پاناما والولايات المتحدة بين عامي ١٩٠٣ و١٩٧٧، تعطي الولايات المتحدة إلى الأبد كل السلطة والحقوق في منطقة القناة التي كانت ستحصل عليها «لو أنها هي سيدة الأرض».

ورغم أنه يمكن الاعتبار أن پاناما، بفضل كلمة «لو» هذه الغامضة، تحتفظ بسيادة إسميّة، فالپاناميون المقيمون والعاملون داخل المنطقة الأميركية يخضعون للقانون الأميركي. وتجري محاكمتهم في المحاكم الأميركية حتى توقيع المعاهدة الجديدة عام ١٩٧٧. يكفي الانتقال من رصيف إلى آخر في أمكنة عديدة ليصبح المرء داخل المنطقة الأميركية. فمن مصلحة أيّ مواطن پانامي أن يكون حذراً لأنه إذا ما تعرّض لمخالفة في الجهة الأخرى من الشارع فسيقدم إلى محكمة أميركية ويُحاكم وفقاً للتشريع الأميركي.

انتهى العمل في القناة عشيّة الحرب العالمية الأولى. ورأى كل رئيس پانامي أن من واجبه أن يناقش رسمياً بنود هذه المعاهدة التي وقّعها بدون حقّ واحد من الفرنسيين باسم اللجنة الحاكمة ـ التي عيّنت نفسها، تحت حكم عائلة أرياس. كان توماس أرياس واحداً من اللجنة الطريفة. لم تكن الاعتراضات إلاَّ مجرّد عادة، هكذا تعتبرها الولايات المتحدة. في نهاية الأمر، كان المتظاهرون في الشوارع، وليس الحكومة الپانامية، هم الذين يحصلون على بعض التنازلات.

في عام ١٩٥٩، وإثر انتفاضة شعبيّة جدّية، وافق الرئيس أيزنهاور على أن يُرفع العلم الباناهي إلى جانب العلم الأميركي في موقع مجاور للمنطقة ولپاناما الحرَّة. وكان من نتائج تلك التظاهرات المعادية إقامة حاجز حديدي على طول جزء محدّد من المنطقة. وفي عام ١٩٦١، وافق الرئيس كينيدي أن يرفرف العلم الپانامي في كل نقطة في المنطقة إلى جانب العلم الأميركي ـ فوق المستشفيات، والمباني الإدارية، وهويس القناة. توجّب على الپاناميين

حوالي نصف القرن من المفاوضات لكي يحصلوا على هذا التنازل لكبريائهم الوطني. لكن السلطات الأميركية قللّت من أهميتها إذ أصدرت مرسوماً بألاّ يرفع أيّ علم على مدارس المنطقة.

ذات يوم في عام ١٩٦٤ رفع تلامذة مدرسة أميركية علم الاتحاد. دخل مئتا بانامي إلى المنطقة ليرفعوا علمهم الخاص وفقاً للاتفاقيات. وفي الشجار الصاخب الذي تلا ذلك، جرى تمزيق العلم البانامي. أظهر البناميون، عندئذ، لحكومتهم المسالمة العنف الذي هم قادرون على القيام به. تمَّ انتزاع الحاجز الحديدي الذي يرسم الحدود؛ هوجمت محطة باناما الواقعة داخل المنطقة، ونُهبت المخازن. واتسعت الانتفاضات لتشمل كافة الأراضي على الضفَّة الأطلسيَّة ومنها كولون. استُدعي المارينز، وخلال ثلاثة أيام من المجابهات التي تلت لقي ١٨ بانامياً حتفهم، وبصورة خاصة، في إلشوريللو (El Chorillo)، الحيّ الفقير في العاصمة، الذي تعمَّد شارعه الرئيسي باسم جادة الشهداء لم يتدخَّل الحرس الوطني في هذه العمليَّة. بقي ثابتاً محايداً في مراكزه.

كان شكلاً من النصر بالنسبة للشعب البانامي. وبعد سنة، أعلن الرئيس جونسون بأن المعاهدة القديمة ستُلغى. وبدأت مفاوضات جديدة بصدد معاهدة جديدة أكثر إنصافاً. لكن بعد ١١ سنة، في عام ١٩٧٦ عندما دعيت للمرة الأولى إلى باناما، كانت المفاوضات لا تزال قائمة. وفي عام ١٩٦٨، قام عقيدان شابان من الحرس الوطني، توريخوس ومارتينيز، بنفي الرئيس أرياس، وشحنه على متن إحدى الطائرات إلى ميامي، واستوليا على الحكم. وفي السنة التالية، نُفي الكولونيل مارتينيز بدوره إلى ميامي بسبب سياسته اليمينيَّة. فتسلَّم الكولونيل توريخوس الحرس الوطني؛ ومنذ ذلك الوقت، لم يبق شيء كما كان في السابق.

القسم الأول

١٩٧٦

١

فـوجئت وتملكّني الاضـطراب عنـدمـا تلقيت في شتـاء عـام ١٩٧٦، في أنتيب (Antibes)، برقية من پاناما موقعة من شخص يدعى السيـد V ـ لا أعـرف هـذا الأسم ـ يُعلمني فيهـا أنني مـدعـوّ كضيف شخصيّ، من قبـل الجنرال عمر توريخوس هيريرا، لزيارة بلده. ستحجز بطاقة السـفر بالطائـرة على اسمي في الشركة التي اختارها بنفسي.

كنت أجهل يومذاك ماذا يدور في رأس الجنرال، عندما أرسل الدعـوة، لكنني لم أتردد لحظة في قبـولها. كـان الجنرال تـوريخوس الـذي دفع بجـون سترلينغ إلى مشروع مهلك، غائباً كلياً عن ذاكرتي. لكنني أعرف أن پانـاما قد شغلت فكري دائماً أكثر من اسبانيا. سبق وشاهدت في طفولتي مسرحية تـاريخيـة لستيفـان فيليبس (Stephen Phillips)، إذ شـاهــدت عـلى مسرح دروري لـين الكبير، دريـك (Drake) يهاجم قـافلة من البغـال تسـير عـلى طريق الذهب من پاناما إلى نومـبردي ديّوس (Nombre de Dios). حفظت عن ظهر قلب قسماً كبيراً من قصيدة نيوبولت (Newbolt) الرائعة مع كل ما يشوبها من عيوب: مأساة دريك.

«ـ ينام دريك في سريره الأرجوحة،
على مسافة ألف ميل،

ـ أيها «الكابتن»، هل تغفو في هذه الأعماق؟
والكرة معلّقة في عنقك في خليج نومبر دي ديّوس. . .»

ما همَّ عدم دقَّة قصيدة نيوبولت، وأن يكون، بالواقع، قد أنزل جسد دريك إلى البحر في خليج بورتو بلّو (Portobelo) على مسافة بضعة كيلومترات من نومبر دي ديّوس؟

كان كل سحر القرصنة يدور ويرفرف حول پاناما، بالنسبة لولد مثلي، في سرد الهجوم، وتدمير المدينة من قبل السير هنري مورغان (Morgan). قرأت فيما بعد، القصة الدرامية لإقامة جالية اسكوتلندية حول أدغال داريان الكثيفة التي لا يزال القسم الأكبر منها دون تغيير ولم يجتازه أيّ أثر.

صادفت فيما بعد في مدينة ديڤيد (David)، رجلاً أسود هو المرافق الشخصي للجنرال توريخوس، يحمل إشارة على قميصه كتب عليها اسم دريك.

«هذا ممكن، يا صديقي» أجاب بابتسامة عريضة، وألقيت عليه بعضاً من قصيدة نيوبولت.

«أخيراً، أنني فعلاً في پاناما هذه المرة» فكرت في نفسي.

شاهدت في تلك اللحظة القليل الباقي من طريق الذهب، ولم أتأخر عن زيارة نومبر دي ديوّس التي لم تعد سوى مدينة هندّية لا يمكن بلوغها عن أيّ طريق ولو على ظهر بغل. شعرت بنفسي وكأنني في بلادي، في بلاد أحلامي البعيدة تلك، وهو شعور لم يسبق أن عرفته في أيّ بلد من بلدان أميركا اللاتينية. بدا لي طبيعياً، بعد سنة، أن أزور واشنطن وبحوزتي جواز سفر ديبلوماسي پانامي، كعضو مكلّف في الوفد الپانامي لتوقيع المعاهدة الجديدة مع الولايات المتحدة الأميركية؛ ظهرت روح الدعابة كإحدى أهمّ ميزات الجنرال توريخوس.

٢

بعد أن أجبت على البرقية، استشرت صديقي برنارد ديديريش (Diederich)، الذي تعرَّفت إليه في هاييتي وفي جمهورية الدومينيكان. أصبح الآن مراسل التايم في أميركا الوسطى. حذَّرني في جوابه من السينيور V، الذي كان على ما يبدو، أحد مستشاري الجنرال، واقترح عليّ أن أسلك طريق المكسيك حيث يسكن مع زوجته الهايتية وأولاده، لكي يلحق بي إلى پاناما.

اخترت السفر من أمستردام مباشرة إلى پاناما، تجنّباً لتبديل الطائرة في الولايات المتحدة حيث حصلت لي مشاكل كثيرة حول تأشيرة الدخول. لم أتصوَّر إلى أيّ درجة ستصبح عاديّة بالنسبة لي تلك الرحلة الطويلة التي ستدوم أكثر من ١٥ ساعة، امستردام - پاناما، مع ثلاث محطات في الطريق.

لأوّل مرة، بعد سنوات تعبت فيها من السفر إلى أفريقيا وماليزيا وفيتنام شعرت مجدداً بروح ما للمغامرة. ممّا دفعني، منذ وصلت إلى أمستردام، أن أدوّن في مفكرّتي بعض الأفكار غير الجديرة بالاهتمام.

مطار شيبول (Schipol) هو دون شك أحد أكثر المطارات راحة في العالم.

تعتقد أن أريكة قد خصّصت في البهو لكل سائح، بالإضافة إلى ثلاثة مخازن للمجوهرات (يقوم أحدها بالدعاية لبضائعه باللغة اليابانية) تضفي عليه الكثير من الرفاهية والانشراح. سافرت في الدرجة الأولى؛ بفضل الجنرال توريخوس، وتحت تصرُّفي قاعة الاستقبال «ڤان غوغ» بأرائكها الوثيرة المريحة، وأصناف طعامها الشهيّة. مرَّت ساعات الانتظار، في هذه الظروف، دون عناء؛ وعندما حان وقت العودة إلى الطائرة شعرت بنفسي سعيداً جداً، بقدر ما أفضلّ البولز (Bols) على أي نوع آخر من العرعر.

«بولز قديم أم جديد؟ سألتني إحدى المضيفات، عندما أقلعت الطائرة.

ـ أيّهما أفضل.

ـ لست أدري، لكن والدي ـ وهو في عمرك ـ يفضلّ الجديد.

بعد أن جرّبت الاثنين، استمريت في شرب القديم طوال الرحلة.

ازداد اضطرابي، وازدادت معه تسلية لم أشعر بمثلها في رحلاتي إلى الهند الصينية خلال الحرب، وماليزيا في وضع «حالة الطوارىء»، وكينيا أثناء تمرّد الماو ماو، أو خلال زيارتي لمصحّ الجذام في الكونغو. كانت جدّية تلك الرحلات. أمّا هذه فليست بالنسبة لي سوى مغامرة هزلية أثارتها دعوة نزلت من السماء، آتيةً من شخص مجهول.

تحصل تجربة الخوف دائماً، لكن التسلية لا تحدث إلّا نادراً مع الشيخوخة. فشعرت بنوع من عرفان الجميل تجاه الجنرال عمر توريخوس. ولقبه الحقيقي في پاناما، كما عرفت فيما بعد، هو «قائد الثورة»، وهو سيّد البلاد الفعليّ. فلقب الرئيس، ليست له أية أفضلية سوى مكان محجوز لإيقاف سيارته في فندق پاناما.

وسرعان ما تلاشى سروري لدى وصولي. استقبلني شخصان مهذّبان في المطار. السيّد V الرهيب، كان في نيويورك حسب قولهم، لمدة يوم أو يومين، وقد وضع سيارته تحت تصرّفي. رافقاني إلى فندق پاناما (الذي أصبح اسمه فيما بعد هلتون) وأودعاني في غرفة طولها ٢٠ متراً ـ قستها بالخطوات. لم يأت ديدريش لاستقبالي. شعرت بالوحدة. لم أعد أتقن اللغة الأسبانية للتفاهم مع الناس. فقد أصبحت بعيدة جداً تلك الدروس التي تابعتها قبل ٤٠ سنة، عند برليتز (Berlitz)، قبل أن أسافر إلى المكسيك. شعرت فجأة برهبة اللقاء مع مضيفي، ذلك الجنرال الغامض. وأحسست بنفسي مضحكاً في تلك الغرفة الفسيحة.

أخّرت ساعتي. وبما أن باناما لا تـزال في فترة الفـطور، وقد تناولت أنا فطوري في الطائرة، حـاولت أن أنام بعض الـوقت. أيقظني سـائق السنيور V ـ لا يعرف كلمة واحدة إنجليزية ـ فطلبت منه أن يعود في الساعة الثانية والنصف، حسب التوقيت المحلي، مشيراً إلى عقارب الساعة. أخـبروني في المطار أن دييدريش يصل من المكسيك في الساعة الواحدة. عـاد السائق في الثـانية والنصف تمـاماً، لكن دييـدريش لم يكن قد وصـل بعد. طلبت من الرجل أن يعود في العاشرة من صباح اليوم التالي. أسودّت الدنيا في عينيّ. وتبخرّت كل روح المغامرة. أما التسلية. . . بدأت أكره غرفتي الفسيحة.

نـزلت في الثالثـة والنصف. جلسـت تحت مروحـة للتهـويـة. طلبت مـا اعتقـدت أنـه پـونش (Punch). تبـينّ لي أنـه خـالٍ من الكحـول، هـذا المشروب غير معروف على شاطىء المحيط الهـادىء في پانـاما، فـاضطررت لطلب مشروب آخر له على الأقـل نكهة أقـوى. الساعـة الرابعـة. لم يصل دييـدريش بعد. حاولت النوم دون جدوى. لماذا غادرت شقتي في أنتيب(*)، وتركت أصدقائي، وجئت إلى باناما حيث تمضي الساعات ببطء ـ حتى ولـو كانت لا تعود العقارب إلى الوراء؟

في الخامسة، حصل تحسُّن ما. وصل دييدريش.

سبق وتجـوّلنا في السيـارة معاً منـذ عشر سنوات عـلى الطريق الحـدودية («الطريق الدولية» على الخريطة) التي تفصل بين هاييتي بابا دوك وجمهوريـة الـدومينيـك. كـان عـليَّ التعـرّف إلى هـذه الـطريق لكي أنهي قصتي «الهزليون». قمنـا أيضاً بـزيارة بعض المتمـردين الهايتيـين في ملجأ مهجـور للمجانين، وضعته حكومة الدومينيك تحت تصرّفهم.

لم يتغـيّر أبداً مـع مرّ السنين. تجاذبنـا أطراف الحـديث حول كـأس من الـويسكي. ورغم أنه لم يستـطع معرفـة أسباب دعـوة الجنرال لي، إلا أنـه

(*) مدينة في جنوب فرنسا.

استطاع عرض بعض الايضاحات. فأخبرني أن السنيور V كان واحداً من فريق أرياس. وهو لا يوحي له بالثقة. عندما قضى جنرالا الحرس الوطني الشابان على أكثر من نصف قرن من حكم عائلة أرياس، وذلك بنفي الرئيس إلى ميامي، بقي السنيور V في موقعه، وحتى بعد ذهاب الكولونيل مارتينيز إلى «وادي المخلوعين» بالذات، كان لا يزال موجوداً. بقي أحياء آخرون طبعاً.

يبدو أن توريخوس ليس رجل المجازر الكبرى. لم يكن مرتبطاً بإيديولوجية معيّنة. هناك، مثلاً، صحافي يجب أن تحذر منه لأنه لا يزال من جماعة أرياس. أعطاني ديدريش أوصافاً محددّة عنه ـ مربوع القامة، قصير، بدين، يضحك دون سبب ـ لدرجة أنني لم أجد أيّ صعوبة في التعرّف إليه في اليوم التالي، عندما ظهر علينا كما كان متوقعاً.

دخلنا في تبادلنا الحديث عن الوضع العسكري. «أين أصبحت المفاوضات لاستعادة منطقة القناة؟».

لا تزال تراوح مكانها كالعادة. فَقَد الجنرال صبره. وكذلك الأميركيون الموجودون في المنطقة. «أدعّى المحرِّض الأميركي الرئيسي، وهو شرطيّ يدعى دروموند (Drummond)، أنهم فجرّوا سيّارته، فسار منذ ثلاثة أيام، على رأس مظاهرة معادية لأية مفاوضات».

رنَّ جرس الهاتف. إنه أحد الرجلين اللذين استقبلاني في المطار. أخبرني أن الجنرال سيقوم نهار غد بزيارة لأحد الأماكن داخل البلاد. سألني إذا ما كانت لي رغبة بمرافقته؟ فسألته بدوري إذا كان باستطاعتي اصطحاب صديقي ديدريش. بدا أن محدثي يعرف اسمه. فظهر متردداً، كما لو أنه كان حذراً من مراسل التايم. مع ذلك قال إنه سوف يستشير الجنرال. اتصل بعد بضعة دقائق. قال: أجاب الجنرال: «السيّد غرين هو ضيفنا. يستطيع أن يصطحب معه من يشاء». ستمر سيارة في العاشرة من صباح يوم غد لتقلّنا جميعاً.

٣

حصل سوء تفاهم بسيط في اليوم التالي. وصل السائق في الساعة العاشرة إلى الفندق، وطلب السيّد غرين. ذهبت أنا وديدريش معه. لست أدري لماذا بدأت بعد عشر دقائق أشك بالطريق التي يسلكها. كنت على حقّ. لم تكن هي السيارة المرسَلة إلينا. ولم أكن أنا السيّد غرين المطلوب. كنّا نتجّه، على ما يبدو، نحو منجم جديد داخل البلاد. عدنا إلى الفندق - إلى السيارة الحقيقية، إلى السائق الحقيقي - ليس سائقاً فحسب، لأنه أصبح مرشداً لي فيما بعد، وفيلسوفاً وصديقاً. ولا يزال حتى هذه الساعة، البروفسور خوسي دي‌يزوس‌مارتينيز، المعروف في پاناما باسم شوشو، وهو رقيب في حرس الجنرال الشخصي. إنه شاعر أيضاً ولغويّ، يتكلم الإنجليزية والفرنسيّة والإيطالية والألمانية، بالإضافة إلى الأسبانية. لكنه بالنسبة لنا ليس سوى رقيب مغمور يقودنا في ضواحي البلاد باتجاه منزل يفضلّ الجنرال، لأسباب أمنية، أن يمكث فيه أكثر مما في منزله الخاص. فهناك يلتقي بصديقه الحميم روري غونزاليس (Gonzalez)، مدير منجم النحاس، الذي ارتبط منذ سنوات بصداقة متينة مع توريخوس يوم كان لا يزال ملازماً فتيّاً في الخدمة العسكرية داخل البلاد.

منزل بسيط متواضع في الضاحية، لا يلفت النظر إلاّ من خلال وجود مجموعة من الرجال بثياب مموّهة أمام المدخل، ولأنه مزوّد من الجهة الخلفية، ليس بحديقة إنما بساحة من الإسمنت، أصغر حجماً من ملعب لكرة المضرب، لكنها تتسع لأن تحطّ فيها طائرة مروحية. دخلنا، بعد السماح لنا بالمرور، وسرنا قرب كلب من البورسلين بالحجم الطبيعي، ثم جلسنا ننتظر مضيفنا؛ ننظر إلى الببغاء تقفز بصمت، في قفصها، من طرف إلى آخر، وكأنها تقيس الوقت كمثل ساعة سويسرية دقيقة الصنع.

اقترب منّا رجلان يرتديان ثياباً داخلية ومبذلاً؛ أحدهما حافي القدمين، وينتعل الآخر خفّاً؛ لم أعرف أياً منهما أناديه «سيدي الجنرال». الاثنان في

العقد الرابع من العمر، لكن أحدهما ممتلىء الجسم ذو وجه فتيّ ومشعّ، بدا وكأنه سيبقى هكذا، بينما الآخر ـ الحافي القدمين ـ كان نحيلاً، رجلاً جميلاً، تتدلّى خصلة من الشعر على جبينه، وعيناه لا تخبّئان شيئاً. عبّرت هاتان العينان، في أول لقاء لنا، عن موقف حذر، لا بل عن شك، كما لو أنه أمام نوع جديد من الكائنات البشريّة. قررّت، ولم أخطىء، أنه الجنرال بالذات.

توصّلت إلى معرفة تينك العينين خلال السنوات الأربع التي تلت؛ تعبّران عن دعابة شبه حادّة، وشعور محّب، وتأمل داخليّ عميق تتعذّر معرفته، وفوق كل شيء، عن الحسّ بالقدر، بالحتمية: عندما بلغني وأنا في فرنسا نبأ موته، عشية رحلة جديدة إلى پاناما ـ حادث؟ متفجرّة؟ ـ لم أشعر بالصدمة بقدر ما شعرت بالحزن المنتظر منذ زمن طويل أمام ما بدا لي خلال السنوات نهاية محتومة. أذكر أنني سألته يوماً ما هو حلمه المؤثر الأبرز ـ «هو الموت» أجابني بدون تردّد.

تحدّثنا للحظة عن أشياء وأشياء، وقام شوشو بمهمة الترجمة. أحاديث لياقة حذرة، وسرعان ما برزت بعض الوقائع: فهو مثلي، ابن مدّرس: بعد أن هرب من منزله في السابعة عشرة من عمره، التحق بمدرسة عسكرية في السلفادور. ربّما سعى ليظهر بنظر هذا الغريب الذي دعاه دون تفكير طويل إلى بلاده، كرجل بسيط، وهو أمر بعيد عن الواقع. فراح يهاجم المثقفين وهو يرمقني بنظرات جانبيّة: «المثقفون مثل الزجاج الرقيق، مثل الكريستال الذي يكسره الصوت. وپاناما هي من تراب وصخر».

انتزعت منه أول ابتسامة عندما أجبته أنه لم ينجُ هو نفسه من الظرف الثقافي إلاّ بهروبه من المدرسة قبل فوات الأوان.

تطرّقنا فيما بعد إلى مسألة الكاريبي. بدا أنه يعرف أنني سبق وزرت كوبا وهاييتي والمارتينيك وسان كيتز وغرينادا والبربريس وجمهورية الدومينيك.

وجامايكا. «من أين جاءك هذا الاهتمام»؟ قال لي مستوضحاً.

شرحت لـه أن لهـذا الشـأن عـلاقـة، بهـذا الشكـل أو ذاك، بعـائلتي. ورويت لـه، . عندئـذ، قصة جـدّي وعمتي: كيف أرسل جـدّي، وهو في الخـامسة عشرة من عمـره، ليلتحق بأخيـه لكي يديـر معـه مزرعـة قصب السكر التي تملكها العائلة في سان كيـتز. وكيف مات شقيق جـدّي بالحمّى الصفـراء في ربيعه التـاسع عشر بعـد أشهر قليلة، مخلّفـاً وراءه ثلاثـة عشر ولداً.

كان ذلك بمثابة فتح طريق الثقة أمام الجنـرال. ذاب الجليد. فمـع مثل هذا الجدّ لا يمكن للمرء أن يكون مثقفاً.

تـابعت قصتي: لم يستطع جـدّي بعد عـودته إلى حقله الإنجليـزي، أن ينسى تلك الذكريات. ترك، في شيخـوخته، زوجتـه وأولاده وعاد ليمـوت هناك. وصفت له القبرين اللذين زرتهما في سان كيتز، ممـدَّد واحدهمـا قرب الآخر إلى جانب كنيسة قديمة شبيهة بأية كنيسة قديمة في الرعيَّة الإنجليزية.

عادت قصتي دون شك، بعد الظهر، إلى ذاكرة الجنـرال عندمـا قدَّم لي المـلاحظة التـالية حـول بلاده: «عنـدما تـرى أن العشب لم يُقتلع في مدفن القرية، تـأكدَّ أنها قـرية سيئـة. فمن لا يهتم بالأمـوات كيف يمكن أن يهتمّ بالأحياء»؟ اعتقد أنه لم يناقش أبداً، عن كثب، مسـألة تتعلق بـالدين، إلاّ بعد سنتين، ربّما أثناء سرد حلم من أحلامه:

«رأيت والدي في الجهة الأخرى من الشارع. سـألته: «يـا أبي، الموت، كيف يكون الموت، قـل لي؟» اجتاز الشـارع رغم ازدحام السـير. صرخت لأحذّره، واستيقظت».

تغيَّر الجوّ عندما أخبرت الجنرال أن سائقي لا يتكلّم الإنجليزية، فأرسل شوشـو لمـرافقتي. «سينقلك إلى حيث تشاء. إنسَ السنيور V». كان شـوشو يأتي دائماً إلى المطار ليستقبلني خلال السنـوات الأربع التي تلت. زرنا كل

الأمكنة التي رغبت في التعرّف إليها، سواء في پاناما أم في بيليز، أو في نيكاراغوا، أو كوستاريكا، سواء بالطائرة أم بالمروحيَّة أم بالسيَّارة.

إلاّ أن توريخوس هو الذي اختار البرنامج لهذا الصباح. أراد أن يمضي بعض الوقت في جزيرة كونتادورا (Contadora)، حيث اضطرَّ شاه إيران، فيما بعد، للإقامة هناك تحت حراسة شوشو، قبل أن ينتقل إلى مصر حيث وافته المنيَّة. أضطر أن ينتظر بعض الوقت في المطار ريثما يتمّ إعداد طائرة الجنرال. أصرَّ ولدان على اللعب مع توريخوس. لاحظت أنه يتمتع بسحر غريب تجاه الأولاد. كان هذان الولدان يقومان برحلة عادية مع أمّهما. لكن توريخوس دعا الثلاثة للسفر معه، ربّما لأن الأم كانت شابّة ذات جمال رائع.

في الفندق الذي كان علينا أن نتناول الطعام فيه، تركنا الجنرال إلى موعد، تصوَّرته ربّما على خطأ، أنه موعد عاطفي. ذهبنا بعد الطعام للقيام بجولة، بالسيارة، عبر الجزيرة التي لا يزال القسم الأكبر منها مغطّىً بالغابات البكر. لحق بنا توريخوس فيما بعد. بدا منشرحاً، وأعتقد دون خطأ، انني لاحظت على وجهه «سمات الرغبة المشبعة». توقّف عن الدفاع عن نفسه أمام المثقفين. فأبدى إعجابه بمؤلفات غارسيا ماركيز، وبقصائد أحد الرومنسيين الأسبان ـ من الدرجة الثانية حسب رأي شوشو.

اقتربت سائحة كولومبيَّة منه، كانت جميلة جداً؛ بدأ الحديث، أخبرته أنها مغنيّة. أثرّت فيه كمثل كأسه المفضّل من الويسكي ـ جوني وولكر بلاك لايبل ـ كما عرفت فيما بعد. لم أفاجأ عندما أخبرني بعد بضعة أيام أنه ركب طائرته الشخصية إلى كولومبيا كي يلتقي بها في مطار بوغوتا.

عندما ذهبت، جاء ولد آخر، ووضع بطاقة زيارة والده في جيب الجنرال، وطلب منه بطاقة مقابلها. نفّذ الجنرال رغبة الولد، كما سمح لصحافي كبير معروف، ذاك الذي بقي حياً في أيام أرياس، وقد وصفه لي

ديبدريش، بأن يجلس على طاولتنا. قرأت الحقد على وجه شوشو. لكن الجنرال، وقد تجاهل وجوده عن قصد، تابع النقاش بصراحة حول المفاوضات مع الولايات المتحدة. «لو أن الفرنسيين هم الذين بنوا القناة، كما كان متوقعاً، لكان ديغول قد أعادها إلينا. فإن لم يستأنف كارتر المفاوضات بسرعة، سيتوّجب علينا اتخاذ إجراءات ما. وستكون سنة ١٩٧٧، سنة نفاذ صبرنا ونهاية ذرائعهم». كان يتكلم وكأنّ پاناما والولايات المتحدة قوتان متعادلتان؛ وهو يؤمن بذلك بشكل ما.

كانت للجنرال أسباب وجيهة لكي يفقد صبره. تذكرُ انتفاضات عام ١٩٦٤، يوم بقي الحرس الوطني في ثكناته، تاركاً كل شيء بين أيدي الطلاب. وتألم خجلاً الملازم الشاب توريخوس أمام سلبيّة الحراس. «إنّه لأمر جيّد، قال توريخوس، أن يكون فانس سكرتير الدولة لدى كارتر. كان في پاناما أثناء الانتفاضات، واضطررنا لإخراجه خلسةً من الفندق لننقله إلى «المنطقة». فهو لا يعرف ماذا يمكن أن تكون الانتفاضة في پاناما. تملّكه الذعر يومها فعلاً.» وأضاف توريخوس: «إذا ما دخل الطلاب، مرة أخرى، إلى «المنطقة» فخياري الوحيد هو إما سحقهم وإما السير في مقدّمتهم. ولن أسحقهم أبداً.» ثم كررَّ ملاحظة يحبّ طرحها دائماً: «لا أريد أن أدخل التاريخ. أريد أن أدخل منطقة القناة.» لقد دخلها أخيراً، وإن لم يكن بالشروط التي أرادها، وربّما قد يكون دفع حياته ثمناً لهذا الانتصار.

لدينا ميل كبير أن نضع في سلّة واحدة كلَّ جنرالات أميركا الوسطى والجنوبية. وتوريخوس ذئب معزول. لم يتلقّ في صراعه مع الولايات المتحدة الأميركية أيَّ مساندة من أرجنتين ڤيديلا، وشيلي بينوشيه، أو بوليفيا بنزير - هؤلاء الجنرالات المستبدّين الذين يحتفظون بالسلطة بمساعدة الولايات المتحدة، وهم موجودون فقط لأنهم يمثّلون العداء للشيوعية. لكنه صديق ومعجب بتيتو، وتربطه علاقات جيدة بكاسترو الذي يمدّه بكميات

من السيجار الممتاز، مكتوب عليه اسمه، ويزوّده بنصائح الحذر ـ نصائح يتقبلها الجنرال رسمياً. أصبحت بلاده واحة أمان لمهجّري الأرجنتين ونيكاراغوا والسلفادور. إنه يحلم، كما تبيّن لي فيما بعد، بأميركا وسطى اشتراكية ـ ديمقراطية، مستقلة كلياً، ولا تشكّل تهديداً للولايات المتحدة. غير أنه بقدر ما كان يقترب من النجاح بقدر ما كان يقترب من الموت.

بعد ظهر ذلك اليوم المشمس في كونتادورا، وبعد عودته من موعد الفندق، بدا سعيداً جداً، وراح يطرح أفكاراً بعيدة عن القلق. لم أقرأ في عينيه، إلّا بعد ذلك، الشعور بدنوّ الأجل ـ موت لن يسجّل فقط نهاية حلمه باشتراكية معتدلة، بل أسوأ من ذلك؛ نهاية كل أمل بسلام عادل في أميركا الوسطى.

على هذه الجزيرة بالذات، كونتادورا، استمرّت المفاوضات مع الولايات المتحدة تسير كالسلحفاة لسنوات وسنوات. مرة أخرى، كان هناك وفد يستعدّ لمتابعة المفاوضات؛ كانت، كالعادة، بقيادة العجوز إلسوورث بنكر (Ellsworth Bunker) السفير السابق في فيتنام الجنوبية. يقضي أعضاء الوفد أسبوعاً فوق هذه الجزيرة الجميلة، ثم يعودون إلى بلادهم، لسنة جديدة أخرى. لا ينتظر منهم الشيء الكثير. وقد كتبت غلوريا إيمرسون عن بنكر في مؤلّفها الرائع عن فيتنام: «خلال سبع سنوات، ساند ودعم، بدون تعب، وعزّز السياسة الأميركية في الفيتنام». وألطف الأوصاف التي استخدمتها فيه أنه: فظّ، بارد، عنيد ومتشبث برأيه، يسمّيه الفيتناميون «البرّاد».

٤

غداة اليوم التالي، ركبت مع ديدريش القطار الذي يصل پاناما بكولون على الشاطىء الأطلسي. وقد أدّت الهجمة نحو الذهب الكاليفورني، في

عام ١٨٤٠، إلى مدّ سكة الحديد التي كلّف بناؤها حياة الألوف من الناس.

المحطات على طرفَي سكة الحديد موجودة داخل منطقة القناة وللقطار سمة عاطفية. يبدو وكأنه من الماضي الأميركي البريء. يعتمر موظفوه قبعات ذات أطراف عريضة تعود إلى أيام حرب الانقسام، ويقدّم لنا اختيار الأطلسي المتراخي بمناظره الخاطفة للبحيرات وللأدغال، شعور العودة إلى الوراء في الزمن. عشنا لحظة قصيرة مرحلة الرخاء في عهد ڤيكتوريا. ولدى خروجنا من محطة كريستوبال، غادرنا منطقة القناة لنعود إلى أرض الجمهورية في كولون. كنّا ما زلنا في القرن التاسع عشر، نسير تحت شرفات المنازل الجذّابة التي صنعها بعض الفرنسيين من الخشب في أيام دي ليسيبس، ولا تزال رغم كل ما أصابها، محافظة على جمالها ورونقها.

اتفقنا مع شوشو على موعد لتناول طعام الغداء في فندق واشنطن، لأننا أردنا أن نعود بالسيارة عبر المنطقة حيث لا يزال يوجد قسم صغير من طريق الذهب القديمة. كان ديدريش بحاجة إلى أفلام للتصوير. سألنا المصوّر عن طريق الفندق. «يكفي أن نتابع بشكل مستقيم حتى نهاية الشارع».

الشارع طويل، فارغ وصامت. لم يخالف هذه الرتابة سوى شكل ظرفيّ في زاوية الطريق. لم نتجاوز المئة متر حتى وقعنا على مجموعة من رجال الشرطة البانامية يقفون إلى جانب سياراتهم. قال لنا أحدهم بلهجة خشنة: «إلى أين أنتم ذاهبون؟»

كنت سأردُّ عليه باللهجة ذاتها، لكن لحسن الحظ، بادرهم ديدريش قبلي قائلاً: «إلى فندق واشنطن».

ـ إصعدوا إلى السيارة.

جلس شرطيّ إلى جانبنا. بدا لي أنهم يلقون القبض علينا. ولكن لأيّ سبب؟ وسارت السيارة في الشارع الطويل.

- إلى أين نحن ذاهبون؟ سألتهم.

- إلى فندق واشنطن. طبعاً!

شرح لنا الشرطيّ، عندئذ، ما حصل. «يجب ألّا تتجوّلوا هكذا مع آلة للتصوير، قال لديدريش. فهذا شارع سيّء جداً، ومليء باللصوص. يحملون السكاكين، ويلاحقون السيّاح الذين يحملون آلات التصوير. كان من المستحيل عليكم أن تصلوا إلى الفندق سالمين.

- لماذا لم يقولوا لنا شيئاً في المخزن الذي اشترينا منه الأفلام؟

- كانوا ينوون، بدون شك، شراء آلتكم للتصوير بسعر زهيد من أحد السارقين. لقد قتلوا واحداً واثنين خلال هذا الأسبوع».

كنّا كمثل سكرتير الدولة ڤانس، نتدرّب على حسابنا على نمط حياة باناما. مع أنه سبق وحذّرني أحد أشرف المرشدين على الإطلاق، «كتاب الدليل»، «تشكّل الاعتداءات، حتى في وضح النهار، خطراً حقيقياً في كولون وكريستوبال».

يتمتع فندق واشنطن، الواقع على مقربة من المحيط الأطلسي، بجمال عصره الكلاسيكي - تمّ بناؤه عام ١٩١٣ - تلك السنة التي فيها أُنجزت القناة الأميركية. لم أتمالك نفسي من الشعور بالخجل عندما أنزلتنا سيارة الشرطة أمام المدخل، لكن الخوف تبخّر بسرعة بفضل كأس قدّمها لنا مزارع طيّب، ونحن الآن على المنحدر الكاريبي الباناميّ بصحبة شوشو.

عرفنا أشياء كثيرة عن حياة شوشو أثناء تناول الغداء. ففي عام ١٩٦٨، أي فترة الانقلاب، بدأ يفكّر أنه سيتعرّض كمدرّس للفلسفة لبعض المخاطر، فغادر البلاد إلى فرنسا حيث حضّر إجازة في الرياضيات في جامعة السوربون. وعندما علم أن الزميل الفاشي لتوريخوس قد نُفي بدوره إلى

ميامي، رجع إلى پاناما حيث أصبح أستاذاً في الرياضيات، لأنه رُفض كأستاذ في الفلسفة. أطلعني، ذات يوم، على بحث قام به تحت عنوان نظرّية اللانهاية.

استوضحته عن معنى اللانهاية لأنه لفظ بالإسبانيّة حرف «ف» وكأنه «ث».

ـ فقدت عندما كنت صغيراً أحد أسناني الأمامية فصرت ألفظ حرف الـ «ف» كأنه «ث».

ولكن، كيف توصّلت لتصبح رقيباً في حرس الجنرال؟

أشرقت أسارير وجهه المربّع عند إثارة هذه الذكرى. وقال لنا باعتزاز أنه ٥٪ مايا و٣٠٪ اسباني و١٠٪ أسود و١٠٪ مزيج من أجناس أخرى. اهتمَّ بالتصوير فيما مضى، وقد ذهب لقضاء ليلة في معسكر الخنازير المتوحشة، تلك القوة التي شكّلها توريخوس خصيصاً بهدف القيام بالعمليات العسكرية في الأدغال والجبال: أراد أن يأخذ بعض الصور الفوتوغرافية. استيقظ في الصباح الباكر، في الساعة الخامسة، على وقع أقدام المجنّدين الجدد، وعددهم يربو على المئة، كانوا ينشدون أغنية تحدٍّ معادية للولايات المتحدة. لم يكن للأغنية مؤلف معينٌ. ارتجلت الكلمات تباعاً من كل فرقة جديدة لكي يضبطوا وقع الخطوات. موضوعها هو التالي: أذكر يوم التاسع من كانون الثاني حيث ذبحوا شعبي، بعض الطلاب الذين لم يكن سلاحهم سوى الحجارة والعصيّ. واليوم أصبحت رجلاً وأحمل بندقية. أصدر أوامرك، أيها الجنرال، وندخل منطقة القناة، ونرمي بهم في المياه، هناك، حيث يستطيع سمك القرش أن يأكل الكثير من الأميركيين، الكثير من اليانكي.

«Los botaron
De Vietnam
Los Tenemos
Ahora en Cuba
Dalès Cuba
Dalès duro
Panama
Dalès duro
Venezuela
Dalès duro
Dalès duro
Puerto Rico
Dalès duro».

أسمعنا الأغنية التي سجّلها على الشريط. أثار هذا النشيد فيه فرحاً لا مثيل له دفع به إلى مقابلة الضابط القائد وطلب منه السماح بالالتحاق بفرقة الخنازير المتوحشة. قال له الضابط، إن عمره لا يسمح له بتحمّل صعوبات التدريب. وصبيحة ذلك اليوم، جاء الجنرال الذي كان يملك منزلاً في الضواحي، في فارالون (Farallon) على شاطىء المحيط الهادىء، لكي يزور المعسكر. أخبره الضابط بلهجة ساخرة أن هناك مدرّساً يريد الالتحاق بالفرقة. توجّه الجنرال إلى شوشو «بتعابير قاسية جداً»، ثم أمر الضابط قائلاً: «دعه يحاول، هذا العجوز المجنون».

حاول فعلاً واجتاز قساوة التدريب. فتقرّر تعيينه ضابطاً، فرفض. فعيّنه عندئذ الجنرال رقيباً في حرسه الشخصي، كخدمة فعّالة خارج السنة الجامعية. وسرعان ما أدركت الثقة الكبيرة التي وضعها الجنرال فيه، تلك الثقة التي لم يمنحها لقائد أركانه الكولونيل فلوريس.

كـان تـوريخـوس يحـترم الآداب؛ وكـون شـوشـو شـاعـراً وأستـاذاً في الـريـاضيـات، أيضـاً، سهَّـل الأمـور إلى حـدّ كبـير. وصـل الجنـرال إلى درجة تكليف شوشو بالتوقيع على حسابه في البنك، مما سمح للرقيب دون تـدخّل الجنـرال مباشرة، بمساعدة عـدد من اللاجئين الـذين هـربـوا من نيكاراغوا سوموزا، وأرجنتين ڤيديلا، أو شيلي بينوشيه.

بقي شوشو أميناً للماركسيـة، لكنه كـان دائماً مخلصـاً، وقبل كـل شيء، لتوريخوس رغم اعتقـاد الجنرال العميق باشتراكية ديمقراطية كان لهـا دائماً، حسب رأي شـوشو، تفـاهة كـأس من الشاي الفـاتـر. ذات يـوم من تلك السنة، وبينما كنّا مجتمعين نحن الثلاثة، طُرحت على بسـاط البحث مسألـة المفاوضات المـزمنة حـول موضـوع القناة. فـانفجر شوشو صارخـاً: «أريد مجابهة وليس معاهدة!» ثم، نـظر صوب الجنـرال الجالس في خيمتـه، وبدا مرتبكاً وكأنه تذكَّر فجـأة أنه يرتدي بزَّته كـرقيب بسيط. «أنا من رأيـك»، أجاب، بكل هدوء، الجنرال الذي لم يكن مثاله الاشتراكي الديمقراطي أبداً لا فاتراً ولا تافهاً. كان حلماً بالطبع، حلماً رومنسيًّا نوعاً ما.

٥

هناك هبة تأتي من الأمل ـ أمـل بالنصر تجـاه كل شيء وضـدَّ كل شيء. وكاسترو وتشرشل هما مثـالان واضحان عـلى ذلك. لم يكن تـوريخوس يعي هبته الخاصة، المختلفة تماماً: هبة شبه ـ اليأس. لم يتجاوز الثمانية والأربعين من العمر ويشعر بأن الزمن يتراكض مسرعاً ـ ليس في العمل بل في التقـدم الحـذر؛ توطيـد نظام جـديد للحكم؛ التقـدم شيئاً فشيئـاً نحو الاشـتراكية الديمقراطية بوسائل تستوجب صبراً لا متناهياً (هو الذي لا ينتظر في تنقلاته استعـارة زورق، أو انتظار الجسر التـالي ليجتـاز النهـر، إنما يـرمي بنفسـه مباشرة في المياه)؛ العيش يوماً بعد يوم مع مشكلات القنـاة؛ هو، الجنـدي الحـالم أبداً بمجـابهة واضحـة، بالعنف، يضـطرّ للعمـل بمثـل هـذا الحـذر

الرهيب الذي لا نهاية له أخذاً بنصيحة كاسترو. . . لم يكن الأمر سهلاً. قال لي ذات يوم: «واعتقدت أنني عندما سأتسلّم زمام السلطة سأصبح حراً».

غالباً ما تساءلت خلال تلك السنوات الأربع التي تلت، ما إذا كان سيتسنّى له إقامة الاشتراكية الديمقراطية؟ نحن، في إنجلترا، محضرُون، أكثر من أيّ وقت مضى للاعتراف بأشكال من الديمقراطية - حتى مع رئيس للدولة عسكريّ - مختلفة عن نظامنا البرلماني الذي عمل بشكل مقبول خلال مئة سنة تقريباً في الظروف الخاصة لهذه المرحلة.

يتشكل مجلس جمهورية باناما من خمسمئة وخمسة ممثلين منتخبين في المناطق. يتوّجب على المرشّح، ليتمكّن من تقديم ترشيحه، أن يحصل على ٢٥ رسالة تأييد على الأقل. ولا يقيم النواب في المدينة إلّا شهراً واحداً في السنة لكي يقدموا التقارير المتعلقة بمناطقهم، ويصوتوا على مشاريع القوانين. وما تبقى من الوقت يقضونه بين ناخبيهم يعالجون مشاكلهم. يقوم مجلس تشريعي قوامه ١٥ عضواً بزيارة المناطق، خلال السنة، لكي يناقش مع المنتخبين المحليين اقتراحات القوانين التي ستطرح على المجلس النيابي. يمكن أن ينتمي الممثلون إلى أيّ عائلة سياسيّة، إنما يتوجب على كل واحد أن يتكلّم باسم منطقته وليس باسم حزبه.

كان رئيس الدولة يعيّن الوزراء. ابتسم توريخوس عندما قلت له أن بوسع المرء أن يختار أعداءه وليس أصدقاءه، لأن في حكومته بعض الرجعيّين الذين اختيروا لأسباب تكتيكية. وكان الجنرال، كمثل أعضاء مجلسه التشريعي، دائم التنقلّ، يصغي إلى الشكاوى والتظلمات، داعياً الوزراء المعنيينّ ليقدموا الأجوبة أمام الشعب. والنظام في باناما قابل للحياة، لأنها بلدصغير. وهو أقرب إلى ديمقراطية أغورا الإثينيّة منها إلى ديمقراطية مجلس العموم، ولهذا السبب، لا يمكن احتقاره. ربّما يكون الجنرال، بعد توقيع الاتفاق وإرضاء الولايات المتحدة، قد ابتعد خطوة عن فكرته عن

الديمقراطية الحقيقية، بقبوله تشكيل حزبه الخاص ليتنازع انتخابات تشريعية تقليدية مع اليافطات القديمة: محافظون، ليبراليون، اشتراكيون، وشيوعيون.

بعد عودتي من كولون، حضرت اجتماعاً نموذجياً بين ناخبين ونواب في إلشوريللو (El Chorillo)، أحد أفقر أحياء العاصمة. ألقى ممثل إلشوريللو خطاباً مسهباً لا نهاية له، وتناولت احتجاجات الناخبين تفاصيل تافهة مثل إجازة مرور لمسؤول المسبح المحلي. يمكن أن نقدّر ضجر الجنرال، على طريقته في مضغ سيجار هافاني ممتاز أهداه إياه كاسترو. فكّرت في ساعات الاجتماعات التي تعقد على هذا النحو، والتي عليه أن يتحملها في جولته عبر البلاد. ملصقات الدعاية معلّقة على الجدران: «مثال عمر هو، التحرّر الشامل»؛ «لم يطلقوا بعد الصاروخ القادر على قتل مثال»؛ «البلاد على الحدّ الخامس»؛ «إلشوريللو، جادة الشهداء». (تذكّرت عندئذ، أن في إلشوريللو، على حدود منطقة القناة، حيث لقي ثمانية عشر طالباً حتفهم عام ١٩٦٤).

انفرج الجمهور في القاعة لدى رؤية النائب يغادر المنبر. وبدأت الحيويّة تدبّ في الاجتماع. قامت فتاة ملوّنة، تصطحب وراءها عجوزاً صامتة، وراحت تصرخ كمثل راقصة مسكونة بالأرواح، وهي تلوّح بذراعها فوق رأسها ـ شرحت لنا أن العجوز التي تبلغ الـ ٧٦ من العمر، تعمل دائماً في الحكومة ولا تتقاضى أجراً. كانت الطبول تقرع عند التعرّض للقضايا الأساسية مما يضفي على الاحتفالات طابع الأعياد. تكلّم شخص أسود اللون بثقة واحترام قال: «لدينا السلطة المعنوية للذين يعملون بأجر زهيد». وتردّدت مسألة القناة دائماً في المداخلات: «ننتظر لحظة الدخول، نحن معك، ليس عليك إلّا أن تصدر الأمر». وقرعت الطبول. توقّف الجنرال عن مضغ سيجاره.

طغت مسألة هامة على المهرجان. لقد تمّ تشييد عدد من مجمّعات

السكن، مع ما لا يمكن تجنّبه من أعمال الهدم، فيما يتعلّق بالمصاعد والنوافذ، التي اختبرناها في إنجلترا وفرنسا. تناسب هذه المجمعات الأغنياء الذين يستطيعون الهرب إلى المسرح والمطاعم والسهرات، ولا تناسب الفقراء المضطرين على العيش في العزلة. فضلاً عن أن تكاليف هذه البيوت، تتجاوز إمكانيات المستأجرين الرازحين تحت عبء الديون. طلب الجنرال من وزير الإسكان أن يجيب فلم يستطع الخروج من المأزق. طلب عندئذٍ توريخوس معلومات إضافية. فاقترحت فتاة صبية أفكاراً مثيرة للحماس، كما تعرّضت امرأة أخرى لأزمةٍ هسترية، وقرعت الطبول...

طُرحت فيما بعد شكاوى تتعلق بالجهاز الصحي، فدافع وزير الصحة بجدارة عن أطبائه فجاء تأثيره أفضل من وزير الإسكان. طالب أحد القضاة الشباب أن يسود الأمن التام في الشوارع. والساعات تمرّ.

اخذ الجنرال الكلام دون أن يعتلي المنبر. جلس متأرجحاً على حافة المسرح، يحمل بيده كأساً من الماء، ويحر من الوجوه الصامتة تحته تماماً ـ لم يكن أحد هنا يفكرّ بأمنه. وقف ضابط من الحرس الوطني على خشبة المسرح وهو يعلك كأنه كولونيل أميركي.

تسلّل الصحافي المشكوك بأمره، الذي انضمَّ إلينا في الجزيرة حتى وصل إلى جانبنا، فسألته: «من هو هذا الضابط؟

ـ إنه الكولونيل فلوريس، رئيس الأركان. شخص مخلص جداً، كمثل والده من قبله. كان والده أيضاً مخلصاً جداً».

مخلص لمن؟ تساءلت في نفسي؟ للرئيس أرياس؟

إنه الاجتماع الأول الذي يعقده الجنرال في هذا الحيّ الفقير، الشوريللو، سوف يسمع صوت الشوريللو. تبدو وجوههم قاسية متعصّبة حاقدة، لكنهم ودودون: «نعرفك جيداً، هنا، أيها الجنرال، نراك، كل

يوم، تمرّ بسيارتك لتشتري بطاقتك لليانصيب». موجة من الضحك، وقرعت الطبول ترافق القهقهات.

أطلق أحد سيّئي النّية من أعداء الجنرال شائعة تقول إن الجنرال كان ثملًا لفرط ما شرب من الفودكا وسقط عن المنصّة (في حين أنه لا يشرب أبداً). يختار المرء أعداءه.

تناولت طعام العشاء، تلك الليلة، مع شوشو ويرفقتنا فتاة أرجنتينية هربت من نظام ڤيديلا ولجأت إلى باناما. كانت وليمة سيئة (أمر يحصل غالباً في هذه البلاد) تناولنا الطعام في الفناء على ضفة المحيط الهادىء، تحت سماء مزروعة بالنجوم، وقنينة من النبيذ الشيلي. طلب شوشو من الساقي: «أريد قطعة نقدية معدنية لما قبل بينوشيت، بسنة من أللندي». شعرت بالسعادة وكأنني في وطني. لم تؤلمني سوى فكرة سفري المقبل. لم أكن أفكر انني سأعود. . .

شاهدت في اليوم التالي تظاهرة مختلفة كلياً في منطقة القناة. بدا بطء المفاوضات التي امتحنت صبر توريخوس غير كافية لإرضاء سكان منطقة القناة. كل المفاوضات تعني الخيانة بالنسبة لهم.

لا تتحدَّد باناما فقط بالقناة: هناك عالم بين المنطقة وسائر البلاد. نشعر بالفارق مذ ندخل منطقة القناة: نرى هنا بيوتاً نظيفة، جيّدة البناء، لكنها بدون تخيّل مبدع، حدائق من العشب معتنى بها جيداً، وملاعب للغولف لا نهاية لها. ويبدو أن الأدغال قد استعادت نموّها بواسطة فريق من قصّاصي العشب.

«وستقول الريح، كانوا أناساً لائقين محتشمين،
لكنهم يجهلون الله.
روائعهم زفت الطريق،
وألوف كرات الغولف الضائعة».

وهنـا، يعرف النـاس الله. أحصيت أكثر من خمسين كنيسة في الـدليل السنوي لمنطقة القناة ـ يمثّل بعضها مذاهب مسيحية لم أسمع بها من قبـل، ربّمـا يتضاءل الإيمـان مع تـزايد عـدد المذاهب؟ وجـدت أيضـاً في الـدليـل السنوي أبنية مطمئنة جداً في حال التعرّض لهجوم نووي مفاجىء.

«يشكل إشعاع الانفجار النووي أول إنذار لك. فـإذا كنت في الخارج، أحتمِ أولاً في ملجـأ ما، وراء جـدار، في حفرة، أو في قنـاة، أو حتى تحت سيارة. فالاحتـماء (منذ اللحـظات الأولى) داخل منـزل، أو تحت شيء ما، يمكنـك من تجنّب الحروق الخـطرة أو الجـراح الظرفيّـة بالحـرارة أو بواسـطة الهواء.

إن لم تجـد ملجأ قـريباً، أنبـطح على جنبـك، وتقوقـع على شكـل كرة، واهمِ رأسك بذراعيك ويديك. إيّاك أن تنظر، بأيّ حال، إلى كرة الضـوء أو النار. إذا كنت داخل بناء ما، إلجأ إلى المكان الأضمن (المنطقة الوسطى عادة في الطابق الأول، المحميّة بالحواجز) وابقَ منخفضاً.

اتجه نحو ملجأ مُعدّ خصيصـاً، مذ ينتشر المفعـول الحراري لكي تحتمي من تساقط الإشعاعات التي ستأتي فيما بعد».

إن الطابع غير الواقعي ذاته يميّز التظاهرة التي حصلت في القناة.

جرى ذلك في ملعب فسيح، على بُعد مئات الأمتار من قاعـة إلشوريللو حيث قـرعت الطبـول. كان ضـابط الشرطة الأمـيركـي، درومـونـد، نجم السهـرة. تقدّم، بصفـة شخصية، إنما على أسس دسـتـورية بشكـوى ضدّ الرئيس فورد وهنري كيسينجر، متّهماً إياهما بإجـراء محادثـات لعقد معـاهدة جديدة دون مـوافقة مسبقـة من الكونغـرس. وادعى أيضاً، إن سيـارته تمّ تدميرها بقنبلة في ظروف غـامضة. دفـع بي كل ذلـك إلى أن أتصوّر رجـلاً خـطراً، مهدّداً بـوجوده، لكنّ أداءه لم يتـوافق أبداً مـع انطبـاعي: للسيـد درومـوند فخـذان لم يسبق لي أن رأيت بمثل هـزالهـما، يلفّهـما سروال ضيّق

كستنائي اللون. عندما وقف ليتوجّه إلى الجمهور الهزيل من النوع المتصنّع، راح يحكّ جنباً بآخر كما لو أنه يفتش فيهما عن سند له، أو ربما لكي يقلد غناء الجراد.

لقي تشجيعاً من قبل مجموعة صغيرة من الرجال والنساء في وسط المسرح، تطالب بلجنة منتخبة لتنظيم حفلة في عيد الميلاد. تكلّم كلّ بدوره. وجهّوا شعاراتهم تجاه إلشوريللو، لكن الأصوات، بدون مساندة الطبول، ضاعت قبل أن تصل إلى الجمهور. وحدها امرأة عجوز، بشعرها الأزرق، أعطت بعض الحماسّ في تعابيرها: «الله والوطن...»، «المعجزة الثامنة في العالم»، «تركنا بلادنا وأهلنا...»، «لا رغبة لنا بالعيش في ظل نموذج لحكم قمعيّ...»، «لا تستطيع القناة أن تعمل بدون قطاع أميركي، وبدون قوانين أميركية...»، «يجب أن يرتبط هذا القطاع بالاتحاد كمثل الجزر البكر». ويهتف الجمهور، من وقت لآخر، وليس دائماً، عندما يهاجم خطيباً عضواً في حكومته. وتستخدم الأسماء بشكل تحقيري كما لو أن هناك خيانة في العائلة. «جيري» كان خائناً. «هنري» كان خائناً. «عام ١٩٧٥، جرى اتفاق بين هنري وتوريخوس». لم يجدوا تعابير مهينة ليصفوا بها محافظة الدولة، ربّما لأن ليس لهذه الأخيرة إسماً.

بدت التظاهرات منفردة وضائعة وسط هذا الملعب الشاسع في ذلك الليل الرطب والحار. كانوا مثيرين للشفقة. سيتخلّى عنهم الله والوطن كلياً كما تخلّى عنهم جيري وهنري. وطلبت فتاة شابة من الحضور أن يرسلوا «قصاصات من الصحف» ورسائل إلى بعض الأعضاء في الكونغرس: «باستطاعتي أن أزوّدكم بأرقام تلفوناتهم». لم يكن لها نفس تأثير الشخص الأسود في إلشوريللو. حضرّوا صناديق لجمع مساهمات مخصصّة لمساعدة السيد دروموند في دعواه ضدّ هنري وجيري. ودعي الجمهور للنزول إلى الأرض لكي يوقّع على العريضة، لكن التجاوب كان ضعيفاً.

يعتبر هؤلاء الناس أن عام ١٩٧٧ هو عام حاسم، لكن تصوّرهم

للمجابهة يقتصر فقط على استدعاء إمدادات من فورت براغ في كارولينا الشمالية، لدعم العشرة آلاف رجل المتواجدين في القناة. لقد أرعبتهم انتفاضات شهر تشرين الأول السابق ـ انتفاضات أثيرت بقصد إفهام هنري وجيري أن پاناما متعذّر حكمها. يجهلون أن الجنرال كان على علم مسبق بما كان يجري تحضيره قبل خمسة عشر يوماً من خلال عميل في جهاز المخابرات الأميركية. ونتيجة لذلك، أمضى أربعون طالباً نهاراً كاملاً في السجن، إلى أن ذهب الجنرال وقدَّم لهم عرضاً عن الطبيعة الحقيقية للمسائل السياسية والاقتصادية، ثم أطلق سراحهم.

٦

عاد صديقي ديدريش في اليوم التالي إلى المكسيك. بدأت مع شوشو بالاستعداد لرحلة في داخل البلاد. ساورني الخوف من تسرّب أخبار مشروعنا إلى آذان السنيور V، عندما توجهت لمقابلة الجنرال، في منزل روري غونزاليس، (أراد توريخوس أن يعرف ردّات فعلي بعد اجتماع إلشوريللو، فعبّرت له عنها بمنتهى الصراحة التي ميّزت الصفحات السابقة)، قوطع اللقاء بمخابرة هاتفية من السنيور V. أراد معرفة مشاريعي بالنسبة للسفر. حاولت التهرّب. قلت له إن مشاريعي تتغيّر من ساعة لأخرى. أصرَّ عليَّ أن أتناول العشاء معه في ذلك المساء، لكي نضع معاً برنامجاً محدَّداً. من الضروري وجود برنامج محدّد. من الطبيعي، سأستقلّ سيارته.

«لديّ سيارة شوشو.
ـ لكنها تفجرت بقنبلة».

كان ذلك صحيحاً. فقد أخبرني شوشو أن سيارته قد تفجرّت، ذات مساء، أمام منزله، بينما كان إبنه يدير المحرّك ـ ولحسن الحظ انه لم ينتج عن ذلك سوى أضرار مادّية فقط.

«اقترض من الجنرال إحدى سياراته».

فكرّت، مراراً، أثناء تلك الرحلة بأن سيارة الجنرال قد تشكّل هدفاً مغرياً جداً.

أخبرت الجنرال بما حصل وأبديت له عدم حماسي لفكرة وضع برنامج مشترك مع السيد V.

كان توريخوس يتمتع بمزاجٍ مرح للغاية (ربّما لأنه يسافر يوم غد إلى موعده في مطار بوغوتا). فوافق معي على أن أيَّ برنامج هو غير مستحب. ونصحني بالسفر مع شوشو حيث نشاء، وبأن أنسى السيّد V قائلاً: «إذا اقترح عليك شيئاً، إفعل العكس».

تناولت طعام الغداء مع شوشو في ماريسكو (Marisco). كان صاحب المبنى واحداً من أصدقائه ـ لاجىء مخضرم من الباسك هرب من ظلم فرنكو ـ شعرت بالظمأ لشدّة الرطوبة والحرارة معاً: ثارت شهيَّتي لتناول كأس من البنش (Punch) مع الروم، لكن الباسكي يجهل تماماً هذا المشروب.

فيما بعد، وبينما كنا نتجوَّل بالسيارة في الشوارع، توقَّف شوشو ليتحدَّث مع رجل أسود يقف على الرصيف ـ إنه أحد تلامذتي قال، عندما كنت أدرِّس الماركسية. ورغبة منه ربّما، لإظهار أيّ مدرّس بارع هو، سأل الرجل: «من هو أرسطو؟».

ـ إنه أول فيلسوف فينزويللي «أجاب الرجل الأسود بدون تردّد». بعد ذلك، قاد شوشو السيارة فترة دون أن ينبس ببنت شفة.

تناولت العشاء، ذلك المساء، مع السيّد V في سارتيس (Sartis)، وهو مطعم أنيق في پاناما، لكن الجلسة كانت مزعجة، ومفاهيم الساقي عن البنش بدون كحول لم ترطّب الأجواء أبداً. اعترفت انني وشوشو سنذهب معاً بالسيارة إلى ديڤيد، المدينة الثانية الهامة على شاطىء الهادىء، «سألحق

بكيا إلى ديڤيد. قال السنيور V».

- فسارعت بالقول إننا قد نذهب إلى تابوغا (Taboga). لم يتقرّر شيء بعد.

تابوغا جزيرة صغيرة في المحيط، لا يسمح بدخول السيارات إليها - بدا لي ذلك موقعاً مثالياً للعمل.

«سألحق بكيا إلى هناك».

ثم طلب مني إبلاغه، كل مرة أكون فيها على موعد مع الجنرال. يريد أن يكون حاضراً، قال لي، لكي يدرس تطوّر علاقاتنا وأخبرني أنه يريد أيضاً اعطاء بعض الصحف صوراً للجنرال وهو برفقتي، أخذت لنا في جزيرة كونتادورا. لكنني هنا كنت حازماً «هذا أمر مستحيل. قال الجنرال إنها لن تنشر قبل رحيلي».

فأجاب: «إذا ذهبتما إلى ديڤيد، يجب أن تخبر شوشو بأن يبلغ كل مركز للحرس تمرّان به. أنا مصرّ على معرفة المكان الذي تتواجدان فيه».

٧

إن عدداً من الأحداث التي وقعت في باناما، خلال السنوات الأربع التي تلت، اتخذت الطابع غير المنظور لتغيّرات الحلم المفاجئة. كانت الجمهورية أرضاً مجهولة بالنسبة لي، وكانت رحلتي مجرَّد رحلة اكتشاف، وأول اكتشاف كان البيت المسكون. اجتزت أنا وشوشو جسر الأميركيتين فرأينا صفّ البواخر التي تنتظر دورها لعبور القناة والتوجّه نحو الأطلسي؛ اجتزنا القطاع الأميركي، ودخلنا مجدداً إلى الأراضي البانامية، لا وجود لأيّ مخفر على الحدود، لكن البيت المسكون هو ضمن الأراضي البانامية. ما من شيء يمكن أن يكون أقلّ أمركةً من المقهى المجاور المزخرف بعلامات قَبَلانية، وشعاره بالأسبانية يعني «المسحورين». أخبرنا الساقي أن أحداً لم يسكن

البيت المجاور منذ أربعين سنة. ومالك المنـزل والمقهى هو عجوز يعيش في العاصمة. يرفض البيع والتأجير.

«أجل، أكدَّ الساقي، يعتقد الرجال المشكّكون أنه مسكون.

ـ أيسكنه شبح؟

ـ إمرأة تصرخ.

ـ هل بوسعنا إلقاء نظرة على المنزل؟»

لا شيء يستحق الرؤية، أجاب الساقي. المنـزل فارغ كلياً، فضلاً عن اننا بحاجة لإذن من المالك.

ـ متى يمكن أن نراه؟

إذا رجعنـا إلى المقهى، ذات يوم أحـد، ستتمكن من رؤيته طبعـاً. فهو يأتي عادة يوم الأحد.

قال شوشو مع كل سلطة شارات الـرقيب، «بلِّغه اننـا سنعود في الأحـد القادم».

خرجنا من المقهى، وذهبنـا لإلقاء نـظرة على المنـزل عن قرب. إنـه بناء قبيـح الشكل، لا جـاذبية فيـه غير السريـة والممنوعـات المفـروضـة عليـه، مصراع من الفـولاذ يؤمّن اغـلاق الأبــواب الثقيلة. ثقب صغـير فقط، في أعلى أحد الأبواب، أتاح لنا رؤية ما في داخله. على كل حال، ليس المنزل فارغاً: تمكّنت رغم العتمة من رؤية لوحتين وخـزانة. بـالنسبة لي، يـوحي هـذا البيت بجـريمـة قـديمـة. صراخ امـرأة؟ «يجب أن نرى داخله»، قلت لشوشو.

«في طريق عودتنـا»، أجاب شـوشو؛ لكن ستمضي سنـة كـاملة قبـل أن أتمكن من تحقيق ذلـك. كان أسهـل بكثـير أن اتعـرّف إلى الجنـرال من أن أدخل البيت المسكون.

تابعنا طريقنا باتجاه سانتياغو، وبقصدنا التوقف في المدينة الصغيرة، أنتون (Anton) حيث توجد صورة عجائبية للسيّد المسيح. ليس لأن شوشو مؤمن بإله المسيحيين ـ فهو ماركسي مؤمن ـ بل لأنه مؤمن بالشيطان.
«هل لاحظت شيئاً؟» سألني.

«عندما تجد نفسك أمام باب يدور فابدأ دائماً بالدفع في الاتجاه المعاكس: إذن، هذا هو الشيطان». كان فخوراً بعرقه كفرد من «المايا» (Maya)، ونصف مؤمن بآلهة المايا. اخبرني أنه تحدّث ذات يوم، في أحد المتاحف مع تمثال مايا، وهو واثق انه أدرك ما قال له. الأمر ممكن بإيجاد الإشارة الصحيحة. أعطاني، وهو يقود السيارة تقليداً للإشارة التي هزت جسدي. إنه نوع من الصراخ وليس صلاة. يوجد في منزله تمثال مايا، أراد بأيّ ثمن أن يعطيني إياه لكي يكون إشعاع مايا دائماً في منزلي.

كنت أفضل الاستماع إليه بدقة وهو ينشد ريلكه (Rilke) باللغة الألمانية، أو لواحد من الشعراء الأسبان المعجب بهم. حاولت الردّ ببعض أبيات من الشعر لهاردي (Hardy)، وبـ«دعوة للرحيل» لبودلير. لكنه فضّل اللغة الفرنسية على الإنجليزية رغم انها لهجتي. ليست الإنجليزية بالنسبة له لغة شعريّة. فشكسبير أقلّ شأناً بكثير من كالدرون (Calderon). إلاّ أنه وافق على قصيدة نيوبولت «مأساة دريك» «كرة مستديرة في عنقه، في خليج نومبردي ديوس...» وعدني بأن يرافقني إلى نومبردي ديوس. ولعدم وجود طريق سنستقل طائرة عسكرية. أو من الأفضل أن نركب طوّافة مروحية ـ لكي نصل. سنقترض من الجنرال واحدة طبعاً.

بعد فترة طويلة من هذه الرحلة، اكتشفت قصيدة يعطيها حقَّ قدرها، واحدة من القلائل التي بقيت عالقة في ذاكرتي: طيّار إيرلندي يتوقع موته، لييتز (Yeats). طائرة شوشو الصغيرة التي ابتاعها بالتصفية، كانت

في كــاراج التصليـح. وردّد عـلي مسمعي، مـراراً، بعض أبيــات هــذه القصيدة.

«أعرف انني سألقى مصيري،
هناك، في مكان ما، بين الغيوم.
اندفاع انتشائي واحد فقط،
أوجدَ كل هذه الضوضاء بين الغيوم».

الماركسي في داخله يؤيّد هذه الأبيات:

«بلادي هي صليب كيلتارتان (Kiltartan)
ومو طنيّ هم فقراء كيلتارتان.»

سجّــل لي، ذات يـوم، هــذه الأبيـات عـلى شريط في أحـد مقـاهي العاصمة.

مـررنا أمـام عدد من مـراكز الحـرس الوطني، عـلى طريق أنتـون، لكن شوشو امتنع عن الاتصال بالسنيور V. «إذا لحق بنا إلى ديڤيد، قـال، فلن يجدنا فيها؛ لن نمضي الليل هناك».

لم نستطع الدخول إلى الكنيسة في أنتون لنرى صورة المسيح العجـائبية. الكنيسة مقفلة. ولا يعرف أحد أين يوجد المفتاح. «لا بأس، قال شـوشو، سنـراها في طـريق العودة». فهـذا التعبير الـذي استخدمـه للمرة الثـانيـة، أوحى لي فجأة بعنوان قصّة لم أكتبها أبداً مع الأسف.

ارتفـع الستار، رويـداً رويداً، خـلال هذه الـرحلة، عن حياة شـوشـو الشخصيـة: لم يعـد يتـذكـر جيــداً كم من الأولاد قـد أنجب من نســائـه المتعددات. لكنه يساعد معظمهن على سدّ حاجاتهن. ابن وابنة يعيشـان في الـولايات المتحـدة مع والـدتها التي طلّقهـا. تخلّت عنه لتعيش مـع مدرّس أميركي، ولا يزال يتحدّث عنها بشوق. ماذا حلّ بزوجته السابقة؟ لم أعرف

ذلك أبداً. أنجبت له إبناً، ذلك الذي نجا من حادث تفجير السيارة. يعيش حالياً مع امرأة شابَّة: «فقيرة بائسة» على حدّ قوله، يُسكنها في شقّة له، شفقةً منه عليها، لا يستطيع أن يرمي بها في الشارع كما تطلب منه «المرأة الغنيَّة» ـ حتى ولو كان يريد فعلاً التخلّص من «الفقيرة البائسة» . . .

هي المرة الأولى التي أسمعه فيها يشير إلى «المرأة الغنيَّة». أنجب من هذه «المرأة الغنيَّة» بنتاً لا تزال صغيرة. كانت أمها شاعرة مثلها. «عندما أذهب لمقابلتها، نمارس الحبّ دائماً، لكنها تقول لي دائماً انني مولع فقط بما يوجد في البرّاد للأكل».

توقفنا في معسكر الخنازير المتوحشة، بالقرب من منزل الجنرال على شاطىء المحيط الهادىء. تذكر شوشو بحنين مرحلة التدريب. التقينا بأول صديق له في تلك المرحلة، يوم كان مجنَّداً ناجحاً ـ ومع ذلك، فرضت الخنازير المتوحشة حياة قاسية على هذا المدرّس الفاشل بينهم. ضُرب ذات يوم على رأسه لأنه كان يقرأ كتاباً. ثم جاء المذنب إليه فيما بعد قائلاً: «تعال نمزح معاً». لا يمكن إظهار أفضل من هذه الإشارة للصداقة.

أصبح شوشو اليوم رجلاً له أهميَّة كبيرة بنظرهم، حتى بالنسبة للضباط، لأنهم يعرفون أنه يحظى بثقة الجنرال. هنا بالذات، أعلن كولونيل يدعى سنجور (Sanjour) تمرّداً في عام ١٩٦٩، بعد أن نفى الجنرال، الكولونيل مارتينيز، وتسلّم السلطة. كان توريخوس يومها يقوم بزيارة للمكسيك. لكنه ما لبث أن استقلّ أول طائرة وعاد إلى ديفيد، مفاجئاً بذلك المتآمرين الذين ظنّوا أنه سيلتحق بأرياس ومارتينيز في ميامي. ثم انتقل من ميامي إلى العاصمة فانهارت حركة التمرّد من تلقاء نفسها. أصدر العفو عن الضباط ذوي الرتب البسيطة، وسجن الكولونيل سنجور. لكن المخابرات الأميركية دبَّرت عملية هروبه عن طريق بعض الرشاوى، ونقلته إلى منطقة القناة.

لحق بنا مجنّد آخر في معسكر الخنازير المتوحشة. كان بحاجة ماسّة

للمال، وكان يحلم بيوم يستجمع فيه كل قواه، ويستفيد من زيارة الجنرال إلى المعسكر ليعرض عليه قضيته. لديه ثلاثة أولاد ـ أثنان فقط، في الواقع، ثم اعترف لنا أن ثلاثة أولاد لهم وقع أكبر، وهو بحاجة فعلاً إلى ثلاثمئة دولار. ثلاثمئة؟ سوف يكتفي بمئتين طبعاً، لكن، من الأفضل دائماً أن يطلب الكثير.

كان الهدف الحقيقي، من زيارة شوشو للمعسكر، هو الحصول على بعض الذخيرة، من أجل كسب جديد يفخر به كثيراً. فهو يملك ترسانة كاملة، استعداداً لمجابهة مع اليانكي في السنة القادمة، إذا ما نشبت معارك في الشوارع. وهناك أمر ذو نكهة خاصة ـ مسدَّس رشاش روسيّ يمكن أن يستخدم للإطلاق من على الكتف. حصل عليه من صديق له في السفارة الكوبيَّة مقابل مسدس بلجيكي. مجرَّد كلمة «روسي» تحمل سحراً خاصاً بنظره. سنجرّبه عندما نصل إلى ديفيد، قال شوشو.

عندما وصلنا إلى سانتياغو، تناولنا طعام غداء سيء في المطعم الوحيد الموجود في المدينة ـ مطعم صيني. تشجعت عندما وقع نظري على قنينة غوردون (Gordon's) في الواجهة وراء البار، لكن محتواها لا علاقة له بالجين. عندما قلت ذلك للرجل الصيني، اكتفى بتوجيه ابتسامة باردة. اخترنا، على سبيل الحذر، الوجبة اليومية، وطلبت الصلصة مع البهار لتحسينها قليلاً. أعطانا وعاءً يحمل الاسم الصحيح لكنه يحتوي على ماء ملوَّن. اشتكيت للصيني، فضحك وضحك وضحك. يوجد في المكان فندق للمنامة، لكننا فضلنا البحث عن مكان آخر.

وجدنا أخيراً مكاناً ننام فيه. طلبنا غرفتين. «وأين الفتيات؟» سألنا صاحب الفندق بمزيج من التعجّب والشك.

نزع شوشو حمّالة المسدس ثم وضع مسدسه على الطاولة. سألته لماذا؟ «احتياط». فكرّت كثيراً أثناء عودتي إلى فرنسا بالقول المأثور الذي أجابني

به. «ليس المسدَّس وسيلة للدفاع». لقد كان عاقلاً حقيقياً. فقد برزّت أبواب الفندق نظريته حول وجود الشيطان.

كان شوشو يتمتع، ونحن في طريقنا إلى ديڤيد، بمزاج جيّد؛ يلتفت إلى الوراء من وقت لآخر، كما لو أنه يستطيع أن يرى داخل الصندوق الذي يوجد فيه مسدسه الروسي العزيز. أخبرني عن حادث مؤسف أثناء إحدى زياراته الأخيرة إلى ديڤيد. كان يسافر معه عميد جامعة غواتيمالا، ضيف شرف في پاناما. شرب الضيف، أثناء الرحلة، قنينة من الويسكي: كان ثملاً كلياً عندما وصلا. والفنادق كلها ملأى بالناس. ذهبا إلى مفوَّضية الشرطة ليطلبا غرفة لقضاء الليل، فما وجدا غرفة واحدة شاغرة. أما المقاعد الحجرية الموجودة في الساحة الصغيرة، فقد كان يجلس عليها ١٤ لوطياً. لحسن الحظ أن شوشو يرتدي بزّته العسكرية. أمر أحد الحراس بجمع اللواطيين، وألقى فيهم خطاباً طويلاً هجومياً قبل أن يطردهم إلى بيوتهم. فتمكن هو والعميد عندئذ أن يقضيا الليل على المقاعد الحجرية في الساحة الصغيرة.

توجّهنا في ديڤيد إلى ثكنة الحرس الوطني، حيث يستطيع شوشو أن يترك سيارة الجنرال بأمان طوال الليل. هناك اكتشفنا النقيب وونغ (Wong) المهتم جداً بالسلاح الروسي. أخذ مسدسه الرشاش الأميركي واصطحبنا إلى حقل الرماية. المسدس الأميركي يعمل بشكل جيّد. قذف المسدس الروسي بعض الرصاصات، ثم توقف. تجربة ثانية. لا مشكلة مع السلاح الأميركي. لكن الروسي تعطل فجأة. بدا شوشو غاضباً ومهاناً كما لو أن عشيقته قد خانته. ان استبدال مسدس بلجيكي جيّد بهذا الصاروخ من السفارة الكوبيّة... كما لو أن النبي ماركس شخصياً قد تخلّى عنه.

سمعت شوشو يقول للنقيب وونغ اننا سنلتقي «في طريق العودة».

ب وونغ، المسيح العجائبي، البيت المسكون، كلّها أمور موعود بها في طريق العودة. خرجت قصتي الجديدة التي تحمل هذا العنوان مجدداً من

الظلمة. لكن وعد العودة لن ينفذ في كتابي - لن تكون هناك عودة للشخصية الرئيسيَّة.

في اليوم التالي، بقي شوشو حزيناً صامتاً مضطرباً من مسألة المسدس الروسي، ونحن نسير في الجبال باتجاه قرية تدعى بوكيتي (Boquete). أمَّا أنا فقد شعرت انني عدت إلى الحياة بعد مرض طويل - الآفة الخبيثة التي هي حصار الكاتب وتقييده. وصلت إلى عنوان العامل البشري، قصة أهملتها، وقد استعدتها يأساً من القضية، وتحديداً، محاولة مني للخروج من هذا الحصار. مضت خمس سنوات على القصة الأخيرة، وبدأت أشعر بتهديد حصار آخر أطول عندما أفلت مني العامل البشري بدوره، تاركاً إياي فارغاً من التفكير.

لكن كل شيء بدا ممكناً مع «على طريق العودة»: لم أكن قد استنفدت بعد كل مصادري. بدأت بتجميع العناصر الأساسية للقصة: الوضع الخطير القائم بين پاناما والولايات المتحدة؟ شوشو ذاته؟ المتفجرة في السيارة؛ التعبير الذي استخدمه في الفندق؛ «المسدس ليس وسيلة دفاع»؛ برهانه عن وجود الشيطان؛ عميد جامعة غواتيمالا والـ ١٤ لوطياً؛ وتتدافع الانطباعات كمثل النحل حول الملكة، ونحن نسير جالسين جنباً إلى جنب. نعم، شعرت بالسعادة في طريقنا إلى بوكيتي، تلك المدينة الصغيرة الرائعة على ارتفاع ألف متر، على سفح أحد البراكين. صوت مياه مندفع يملأ الشوارع، وعذوبة النسيم تذكر بمدينة سويسرية، وكان الفندق الصغير مغناجاً يشبه المضيفة التي تملك أناقة الفتاة أوونا شابلن ورشاقة مظهرها.

٨

قمنا في صبيحة اليوم التالي بزيارة لمنجم النحاس الكبير الذي يديره روري غونزاليس الصديق المفضل لدى الجنرال. جرى تأميم المنجم مؤخراً؛ ويعتبر الأمل الكبير لمستقبل پاناما الذي كان مرتبطاً حتى ذلك

التاريخ ببنك السكر والبن واليوكا ناهيك عن المداخيل الأخرى الناتجة عن رسم المرور في القناة حسبما تنصّ عليه المعاهدة القديمة، مداخيل زهيدة، لم يعد باستطاعة القناة ان تستقبل البواخر ذات الحمولة الضخمة، كناقلات النفط وحاملات الطائرات. علمت بأن المنجم كان بعهدة مجموعة كنديّة. لا يمكن البدء باستثماره قبل أربع سنوات. إنها لمراهنة غريبة.

منجم من أوسع مناجم النحاس في العالم، أكبر من منجم شوكيكاماتا في الشيلي الذي قمت بزيارة له في ظلّ رئاسة أللينديي، لكن نحاسه أفضل كمياً وليس نوعياً. أبدى أحد الكنديين الذين كانوا في إدارته، تشاؤماً بالنسبة لحظوظ النجاح: لا يريد أن تكذّبه الوقائع، فهو يتمنى الفشل. يعتقد أن المنجم لن يبدأ بالإنتاج قبل عام ١٩٨٦ أو ١٩٨٨، وكم سيكون يومها سعر النحاس؟ لم يكن تقدير أسعار السوق أكثر احتمالاً لمباشرة العمل من توقعات الأبراج في الصحف. فقد راكمت اليابان احتياطات كبيرة في تلك المرحلة حيث كان ميزان مدفوعاتها إيجابياً مرتفعاً، وقد تدفع بها إلى السوق في أية لحظة.

توغلنا داخل المنجم بقدر ما سمحت لنا به الحفريات، قبل أن نتناول طعام الغداء في مطعم المنجم حيث أعطاني شاب إنجليزي ملاحظة غريبة هي «أن التطيّر يجلب الشقاء».

لست أدري لأي سبب دوّنت في مفكرّتي وجود «أميركي متعب»، لكنه لم يترك لديّ أيّة ذكرى. ثم تابعنا طريقنا إلى بوكيتي.

زالت تعاسة شوشو. فراح يغني ويلقي بعض القصائد. أسمعني تعبيراً باناميا وقحاً يمكن استخدامه مع فتاة، ولا أعرف لماذا بقي في ذاكرتي: «تعالي معي لتكوني وحيدة». إن للذكرى أسرارها كما للنسيان. هناك عصافير غريبة، وفراشات مثيرة للفضول، وعلى حافتي الطريق وجوه قبيلة هندية يهدّدها منجم النحاس لأن نجاحه سيغيّر كل مجرى حياتها. مرّ فارس يحمل بيده ديكاً كما يحمل الخادم الصينية.

سجلت، قبل أن أنام، هذه الأفكار التالية: «أبدأ الرواية بإمرأة شابة، تعمل صحافية في مجلة أسبوعية يسارية فرنسيّة، ذهبت لتجري مقابلة مع الجنرال. هربت من زواج فاشل في باريس، ولا تريد أن تتألم أكثر من ذلك. أخيراً، تعود إلى آلامها وليس إلى سعادتها».

عدنا في الصباح إلى ديڤيد لنستقل الطائرة إلى جزيرة بوكاس دي تورو Bocas de Toro، مرفأ للموز في مرحلة الزوال والتقهقر. جذبني ذلك المكان لأنه أبعد نقطة في الغرب وصل إليها كولومبس على امتداد الشواطىء البانامية؛ وربّما أيضاً لأن دليل أميركا الجنوبية أعلن بصراحته المعهودة: «لا يزورها سائح أبداً».

أخبرت شوشو، ونحن في الطريق، عن القصة التي أخطط لكتابتها، وهذا ما يفسّر، ربّما، لماذا لم أتجاوز الفصل الأول: أن تروي قصة ما، يعني كأنك كتبتها بشكل من الأشكال، إنه بديل للكتابة. «صحافية فرنسية وأنت بالذات، شخصيتاها الرئيسيتان. يعهد إليك الجنرال بالصحافية ويكلفك بمرافقتها لزيارة البلاد. يعطيك سيارته، وتذهبان معاً، كما نحن الآن تماماً. تصادفان دائماً في الطريق أشياء مسليّة لا تتمكّنا من زيارتها ـ مثل المسيح العجائبي، والبيت المكسون. «في طريق العودة»، تردّد دائماً، وسيكون هذا عنوان القصة. لكن السخرية تكمن في ألّا تعود لا أنت ولا هي.

ـ هل تمارس الحب؟ سأل شوشو بعد نفاد صبره.

تفكرّ أنت في ذلك، لكنّ هذه المرأة ليست كاللواتي عرفتهنّ. تعتريكما مشاعر الخوف والشك. ثم، عندما تصلا إلى ديڤيد، أو إلى أية مدينة أخرى، تعرفان أن الأمر سيحصل. تتوقفان أمام أحد الفنادق، وباتفاق مشترك، ودون التفوه بأية كلمة، تطلبان غرفة واحدة. هي، تريد أن تتخلص من غبار الطريق وترتّب شعرها. تقول لها أنت، أنّ عليك أن تسلّم سيارة الجنرال إلى الحرس الوطني لأسباب أمنيّة، ثم تعود إليها.. عندئذٍ، تمارسان الحب دون شك، لكنكما تعرفان ذلك دونما حاجة للكلام

عن ذلك. تستحمّ ثم تغسل شعرها. تشعر بالسعادة لأن أوقات التـردّد قد مضت. أتّخذ القرار. لكنها تنتظرك دون جدوى. فأنت لن ترجع. لأنـه في الفـترة الـوجيـزة التي قضيتها معهـا في الغـرفـة، وضـع مجهـول متفجـرّة في السيـارة، وحصل الانفجـار. تسمع دويّ الانفجـار وهي تسرّح شعرهـا. لكنها تعتقد أنه صوت محرّك فيه خلل...

- يعني أنني قُتلت؟ سأل شوشو مضطرباً. فكرّت عنـدئذٍ بمـا قالـه لي في النهار: «أنا لن أموت أبداً».

«أجل، يزعجك أن تموت في القصة؟»

- نعم. هـذا يزعجني طبعـاً». ورفـع كمّ قميصـه. لحمـه أبيض كلحم الدجاج. «يجب أن تكتب هذه القصة. عدني بأنك سوف تفعل.

- سأحاول». لكن الكتاب لم يظهـر أبداً. والجنـرال هو من مـات وليس شوشو.

تأخرّنا في ديڤيد عن موعد الطائرة المسافرة إلى بوكاس. لم يبدِ شوشو أيّ عـلامة أسف. «متى ستعـود»، قال لي - مجـرّد احتمال لـ «طـريق العـودة»، والاحتمال ضئيل بنظري، لأنني لم أرَ أيّ سبب للعودة، يوماً من الأيام، إلى باناما.

رجعنا لمقابلة النقيب وونغ، وانتقلنا معه بالسيارة حتى ضواحي المـدينة، إلى المكان الذي ترك فيه أحد السارقين سيارة يتأكّلها الصدأ. اقترح النقيب حفلة رماية جديدة، بالمسدّس هذه المرّة. (المسـدس الرشـاش الروسي بقي في الصندوق). كان هدف الرماية لـوحة عـدائيّة عليهـا إشارتـان: دائرة ٥ و١.

«سيكـون التصويب عـلى الدائـرة ٥» قرّر النقيب وونـغ. لم يصب أحد منهما اللوحة في ثلاث محاولات. أبـديت نظرة مـرحة عنـدما نـاولني شوشـو المسدس واقترح عليّ أن أحاول: «حاول، أنت أيضاً.

- أنـا لست شيئـاً في الـرمـايـة. لن أصيب حتى السيـارة. لمـاذا تبـذيـر الذخيرة؟

- لا. لا. حاولْ!».

أطلقت النار، وبصدفـة استثنائية أصبت الإشارة ١. صعـد الجميع إلى السيارة دونما أيّ تعليق.

غادرت ديڤيد مع شوشـو باتجـاه العاصمـة. توفَّـر لنا الحظّ هـذه المرة في أنتون إذ رأينا التمثال العجائبي أخيراً. تمثال المسيح الخشبي مغطىً بزخرفة مذهبة، يبدو أنها أغوت بعض اللصوص. لكنهم عندما أخرجـوا التمثال من الكنيسة ازداد وزن الزخرفة بشكـل عجائبي، فـاضطروا لـترك غنيمتهم في مكانها.

لم تكن لي رغبة، في الواقع، أن أعود إلى پـانامـا. تصوَّرت وجـود امرأة إلى جانب شوشو، وكنت بحاجة فعلية لمراقبتها معاً. ذكَّرت شوشو أننا على موعد مع صاحب البيت المسكـون. كان البـار مقفلاً لسبب غـير معروف. فسكان الجوار أنفسهم لا يعرفون شيئـاً عن سبب ذلك: يـوم الأحد، كـل البارات تفتح أبوابها. أصبحت أكـثر تصميماً عـلى العودة في يـوم من الأيام لزيارة البيت المسكون لأرى ما في داخله. هل أن صاحب البيت خائف من الغريب المفتش بالبزة العسكرية؟.

اتجهنا خائبين نحو أوكـو (Ocú)، تلك المدينـة الشهيرة بصناعة الأحـذية الجلدّية، حسبما يقـول شوشـو. فاشتـرى كميَّة تكفي لصنـع حذائـين. ثم سـألنا فـلاّحاً أوقفنـا، ونحن في الطريق، أين يمكن أن نصنـع الحـذاءين. فأكدَّ لنا أنه أفضل صانع للأحذية في المنطقة كلها، واصطحبنا إلى كوخه.

سبق وحدثني شوشو عن العادات الغريبة في پاناما فيما يتعلّق بالكحول، عـادات يتأقلم معهـا الجنرال عـادة. «نحن أناس سكـارى. نشرب يـوم الأحـد حتى نبلغ حالـة السكر الشـديد. لكننـا نتوقف عن الشراب في بقيـة

الأسبوع. أمّا أنتم، في أوروبا، فمدمنـون. تشربون الخمـر في كل وقت».
كنت شاكراً له لأنه مارس العادة الأوروبية طوال الأسبوع.

بدا صاحبنا الفلاح أنه من النوع الصبور. حمل كرسيينْ إلى غرفته وباشر عمله تحت نـظرات أحد عشر ولـداً وزوجة حـامل. حضرٌ الجلد أولاً، ثم ضغـطه حول رجله وبـدأ بتفصيله. سمعنـا فجـأة صرخـات «أواهـو...» تبعها ما يشبه العواء. ثم ظهر اثنان من الجـيران يعتمران قبّعتـين صغيرتـين غريبتين لهما أطراف مستديرة كأنها تتوازن فوق اذنيهما المنفصلتـين. يحتفلان بيوم الأحد منذ ما بعد قداس الصبـاح. اكتفيا، في البـدء، بمتابعـة العواء (أخـبرني الجنرال فيـها بعد أنها أغنيـة تقليديـة عنـد الفـلاحـين)، ثم تعلّق واحدهما بي. وجلس أرضاً وتمسّك بيدي. ثم قال انه لا يهتم إلاّ بالـدين، وهو يريد أن يناقش فيـه. هل كنت غـرنغو؟ كـلاًّ. أنا لست غـرنغو. أنـا انجليـزي. كاثـوليكي؟ أجـل. أنـا كـاثـوليكي. إذاً، يجب أن نـناقش في الدين.

سألت رفيقي عن رأيه بكاهنه. أجابني «انه مادي جداً». حـاولت تغيير المـوضوع والانتقـال إلى الحديث عن السيـاسة ومسـألـة القنـاة. لكن هـذه المواضيع لا تهمّ أحداً.

«والجنرال؟ قلت له. ما رأيك بالجنرال؟
ـ نصف جيدّ. نصف سيء.
ـ ما هو النصف السيّء؟
ـ لا يحبّ الغرنغو.
ـ وأنت، لماذا تحبّ الغرنغو؟».

أرسل كينيدي أربعمئة رجل من (Peace Corps) إلى پـانامـا، فطردهم الجنرال. لكن واحـداً منهم أوجد له مناصرين في هذه المنطقة الفقيرة القريبة من لاس مينـاس (Las Minas). «كان رجـلاً طيباً. علّمنـا أشيـاء كثـيرة.

وكان يسكر معنا يوم الأحد.» تصوَّرت نفسي في بلاد أخرى، بعيداً جداً عن أحياء إلشوريللو وضجيجها العدواني، أو أناشيد الخنازير المتوحشة.

انتظرنا أكثر من ساعتين لكي يتم إنجاز الأحذية، لكن النتيجة جاءت مخيبة للأمل. فمنذ صباح اليوم التالي، كنا في شيتري Chitré، تلك المدينة الصغيرة غير الجديرة بالاهتمام، فتركت أحذيتي في فندق صغير مليء بالصراصير. استنكر شوشو عملي هذا ـ إنها صناعة حرفيّة نموذجية في باناما ـ لكنه لم يتأخر هو أيضاً عن القيام بالشيء نفسه.

٩

توقّفنا في طريق العودة، في ريو هاتو(Rio Hato) حيث كانت تخيّم فرقة الخنازير المتوحشة، وكان الجنرال هناك في منزله الصغير القريب من شاطىء المحيط الهادىء. في ذلك اليوم، كان توريخوس قد جمع حوله وزير خارجيته أكيلينو بويد (Aquilino Boyd) وأعضاء أركانه، بانتظار وصول الوفد الأميركي، والسيد بونكر، المتوقع وصولهما في اليوم التالي، وبعد أحاديث غير لطيفة نوعاً ما، تناولتها بشأن الكولونيل فلوريس، شعرت بنفسي منزعجاً عندما أصرّ الجنرال على أن يعرِّفني إلى ضباطه، مبتدئاً بالكولونيل الذي لا يتوقف عن مضغ علكته الدائمة. شعرت من خلال يده التي مدّها صوبي بتحفظ، بحقده واحتقاره وتمرّده الداخلي: لأيّ سبب، يتوجّب عليه هو، قائد الأركان، أن يصافح، على قدم المساواة، رجلاً مدنياً بسيطاً وغريباً أيضاً؟ بالمقابل، لمست في قبضة يد ضابط المخابرات نوعاً من الملاطفة والتواطؤ. إنها لمفارقة طريفة.

أثناء هذا الاجتماع لهيئة الأركان، استحميت أنا وشوشو في المياه النقية الصافية في المحيط الهادىء. ثم تناولنا طعام غداء لذيذاً في مطعم الخنازير المتوحشة حيث انتظرنا الجنرال ريثما يعتذر من مدعويه العسكريين. أظهر

رغبة في التحدّث إليّ. فقد أثقلت زيارة الأميركيين فكره على ما يبدو. كان يأمل، دون شك، أن يتوصّل، ذات يوم، إلى معاهدة عادلة بواسطة هذه المناورات التي لا نهاية لها، مع أن أيّ أمل بمجابهة معلنة كان ممنوعاً إن لم يأخذ بنصائح كاسترو. أعطاني ملاحظة غريبة لم أدرك معناها حتى اليوم: «لدينا نقطة مشتركة، أنت وأنا، ألا وهي التدمير الذاتي». ثم سرعان ما أضاف: «لا أريد أن أقول إننا انتحاريين، طبعاً». كان ذلك وكأنه فتح أمامي، في تلك اللحظة، باب غرفة سرّية، باباً لن يقفله أبداً بعد ذلك.

استمرَّ في إثارة موضوع المجابهة الذي يدور في رأسه، مع الولايات المتحدة. استحضرتني العبارة التي قالها لي في جزيرة كونتادورا: سيكون عام ١٩٧٧ العام الذي سينفد فيه صبره. المواجهة تعني الحرب ـ حرب بين جمهورية صغيرة يسكنها أقلّ من مليوني نسمة وبين الولايات المتحدة التي يزيد عدد سكانها على المئتي مليون نسمة.

بدأت أدرك أن توريخوس هو رجل رومنسي. لكنني ما لبثت أن اكتشفت أن الرومنسيَّة لدى معظم الباناميين تقابلها نسبة من الفلسفة الوقحة بالإمكان اكتشافها من خلال الأناشيد ـ إنها أقلّ عاطفية من أناشيدنا، كما في «حبك هو يوميات باطلة»، أو في الكتابات المرسومة على سياراتهم المزخرفة بشكل رائع: «ليس من الضروري أن ترتدي ملابسك، لن ترافقني». ربّما يقوم الجنرال بالتدمير الذاتي، لكنه يعرف كيف يجري حساباته بواقعيَّة.

«نستطيع أن نسيطر على العاصمة خلال ٢٤ ساعة. أمَّا القناة فمن السهل التخريب فيها. قذيفة واحدة فقط على سدّ غاتون (Gatun) وتصب القناة في الأطلسي. يمكن أن يعاد بناء السدّ خلال بضعة أيام، لكنه يلزم ثلاث سنوات من المطر لإعادة ملء القناة. خلال هذه الفترة، ستقوم العمليات المسلحة.

والكورديرا المركزية (Cordilleras) ترتفع حتى ثلاثة آلاف متر وتمتد حتى تبلغ حدود كوستاريكا، من جهة منطقة القناة؛ ومن الجهة الأخرى، تمتدّ الغابة الكثيفة البكر في داريان حتى الحدود الكولومبية؛ فهي ليست معروفة الآن أفضل ممّا كانت عليه في مرحلة بَلْبُوَا (Balboa)، ولم تخترقها سوى آثار المهربين. يمكننا أن نصمد هنا لمدة سنتين، وهذه المدة كافية لإيقاظ الضمائر في العالم، واستثارة الرأي العام في الولايات المتحدة. ولا تنس هذا الشيء: لأوّل مرة منذ حرب التقسيم، يجد مدنيون أميركيون أنفسهم على خطّ النار. يبلغ عددهم ١٤ ألفاً في القطاع، بالإضافة إلى عشرة آلاف جندي».

تصل الأدغال إلى جزء من القطاع ذاته الذي فيه يدرّب الأميركيون وحداتهم الخاصة على العمليات، وكذلك وحدات دول أخرى تابعة لأميركا اللاتينية. لكن الجنرال، انطلاقاً من تجربته الشخصية، ينظر باحتقار إلى هذه التدريبات فقد فوجىء الأميركيون الذين كانوا يقيمون مناورات في تلك البقعة من الأدغال، بدورية من الخنازير المتوحشة التي دخلت إلى القطاع دون أن تثير الانتباه، لأنهم كما قال ضابطهم، واجهوا بعض المشاكل مع البوصلة. «أعرف جيداً، قال الجنرال، إن البنتاغون أبلغ كارتر انه يلزمنا مئة ألف رجل وليس عشرة آلاف للدفاع عن القناة كما يجب».

قطع حديثنا هدير طائرة الجنرال الصغيرة التي وصلت من فنزويلا. أرسلها توريخوس، في الصباح، لتحمل رسالة إلى رئيس البلاد، وعادت حاملة جوابه. (إن المساندين الوحيدين، في أميركا اللاتينية، الذين اعتمد عليهم الجنرال، في مفاوضاته مع الولايات المتحدة، كانوا فنزويلا وكولومبيا والبيرو). جرت الاتصالات كما في القرن الثامن عشر: بواسطة الرسائل - مع فارق أن الطائرة حلّت محلّ الحصان. فالقطاع الأميركي مليء بالتجهيزات الإلكترونية، وكل مخابرة هاتفية يجري تسجيلها، وكل شيفرة يمكن كشفها خلال بضعة دقائق.

قرأ الرئيس توريخوس رسالة الرئيس الفنزويللي، ثم اتخذ النقاش وجهة مختلفة كلياً. وبدا لي انني عرفت لماذا كان يرغب ببقائي: كان يتوق إلى وجود محادث باستطاعته أن يدرك انفعاله. «يوم أمس، قال لي، حصل شيء هام».

تساءلت ما إذا كان سيكشف لي عن بعض الرسائل السرّية الخاصة بالسيد بونكر ـ أو لهذين الشخصين العالميين اللذين يسميهما السيد دروموند جيري وهنري؟

وتابع يقول: «يوم أمس، كانت ذكرى زواجي الخامسة والعشرين ـ كنت يومها ملازماً شاباً ـ ويومها، أقسم والد زوجتي، وهو رجل أعمال يهودي يعيش في نيويورك، أنه لن يتكلم أبداً مع ابنته. كانت تلك السنوات قاسية جداً لأن زوجتي تحب والدها. ومنذ بضعة سنوات، طلبت من الجنرال دايان أن يتدخّل لصالحي في نيويورك. رفض عمّي الاستماع إلى دايان. إلاّ أنه في مسألة عنتيبي(*)، حدث أن الدولة الأميركية اللاتينية الوحيدة التي صوّتت لصالح إسرائيل في الأمم المتحدة كانت باناما. وعندما عرض عليَّ الإسرائيليون فيما بعد، تعبيراً عن امتنانهم، تقديم مساعدات من كافة الأنواع، أبلغتهم أن الجنرال دايان نفسه لم يتمكن من تنفيذ الأمنية الوحيدة التي أريدها. وفجأة، يوم أمس، اتصل والد زوجتي هاتفياً من نيورويورك، وطلب التحدّث إلى ابنته. وللمرة الأولى منذ ٢٥ سنة ذهبت لزيارته اليوم. عندما تلفن العجوز يوم أمس، قلت له أن لديه ابنة رائعة، وأنا مدين لها بكل شيء».

كانت قصتّه مثيرة لأنه يعرف انني أفهم أبعاد هذا المستوى من العلاقة فيما بيننا، فهو ليس من النوع الذي يبقى مخلصاً جنسياً لامرأة واحدة. لكنه

(*) حادثة مطار عنتيبي في أوغندا. حيث هاجم رجال الكوماندوس الإسرائيلي طائرة إسرائيلية مخطوفة وهي جاثمة على أرض المطار. (المحرر).

كان الرجل الأمين بعمق للماضي، وللصداقة قبل أي شيء آخر.

١٠

قررّت أنا وشوشو أن نستقلّ الطائـرة إلى جزيـرة تابـوغا (Taboga) لكي نـرتاح قليـلاً من عناء رحـلاتنا. لكن الأمـور لم تجرِ كـما يرام. فقـد طلبني الجنرال مجدداً إلى ريو هاتو Rio Hato وفي اليوم التالـي سـأرافقه إلى لقـاء مع المزارعين وممثليهم. إنها مناسبة، بالنسبة لي، لكي أراقب ميدانيـاً نموذج ديمقراطيته.

قامت الطائرة التي تقلّنا بدورة فوق المحيط قبل أن تحطّ على الشـاطىء. «يمكن القـول إن الطيـار شابٌ اليـوم. قال الجنـرال: تنقصه الخـبرة، يحلّق فوق المحيط. الأكبر سنّاً يحطّون عـلى الشاطىء. هـذا أضمن عندمـا تكون الطائرة صغيرة. بسبب سمك القرش. عندما أعرف، أحيـاناً، أن طيّـاري سيرفض اتباع هذا الطريق بسبب الطقس، أطلب طياراً شـاباً أقـلّ اعتداداً بنفسه».

يبدو أن السقوط في محيط مـليء بسمك القـرش، حتى ولو كـان ضئيلاً، يروق له. فهل طالب بـطيّار شـاب يوم مـوته؟ مـا زلـت، بعد مضي خمس سنوات، أطرح على نفسي هذا السؤال.

لست أدري ما الذي دفع بي كي أسأله، ونحن على متن الطائرة، في أية فـترة من النهار يشعـر بنفسه مـوهن العزيمـة (يبدو أنـه يحبّ هذا النـوع من الأسئلة كما لو أن ذلك يقرّب واحدنا من الآخر). جاء جوابه مبـاشراً: «في المساء، عندما أذهب إلى النوم. أمّا عندما تشرق الشمس فأشعر أنّ مزاجي جيّداً».

إذا كنت قد أردت التعرّف أكثر إلى الجنرال، في كـل لقّاء بيننـا، فذلـك بناءً على رغبته. يمكن القول إنّ صورته العامة، على المدى الطويل، كـانت

تضجره وتقلقه، وهو يفضل أن يكون قبل أي شيء فرداً عادياً، حرّاً في التحدث إلى صديق، وفي قول هذا الشيء أو ذاك دون حسابات مسبقة.

ذهبنا هذه المرة إلى لقاء مع مجموعة من مزارعي اليوكا (Yuccas)، والاستماع إلى مطالبهم. عندما حطّت بنا الطائرة، أخبرني، ونحن في الطريق إلى القرية، أنه قرّر إعطاء هؤلاء المزارعين زيادة الأسعار التي يطالبون بها: من دولار و٢٥ سنتاً إلى دولار و٧٥ سنتاً لكل حُزمة. «إن مركز اليوكا هذا هو غلطة ـ غلطتنا نحن، وليس خطأهم. على كل حال، أريد أن أوزّع المال: الحصة الكبيرة للأرياف، والصغيرة للمدن». إلاّ أنه تركهم في جوّ من الشك، فترة وجيزة، لتسليته ولتسليتهم.

عُقد الاجتماع في الهواء الطلق، ورأيت أمامي وجوهاً مجتمعة شبيهة بوجوه أصدقاء صانع الأحذية، مع القبعات ذاتها على الآذان الكبيرة ذاتها. إنني مقتنع أن أحد الفلاحين الذين التقيت بهم، ذلك اليوم، في أوكو، موجود فعلاً، لأن الرجل لم يتوقّف عن جذب انتباهي وتوجيه بعض الغمزات إليّ. كان للكثير من المشاركين أسنان من الذهب، ولعدد غير قليل سلاسل من الذهب أيضاً. ربّما وجد كولومبس في ذلك إشارة لقرب الإلدورادو. حاولو جميعهم الكلام في وقت واحد مظهرين هيبة شرسة ومصمّمة، ولاحظت أن الجنرال كان مسروراً جداً.

«لنبدأ أولاً بالمسائل السهلة، قال الجنرال، ونترك للنهاية قضيّة اليوكا الصعبة». أسلوب بارع لإنهاء الاجتماع بسرعة، لأن الفلاحين لا يهتمون إلاّ باليوكا، والقرارات الأخرى لا اعتراض عليها. وعدهم الجنرال، انه سيكون هناك جسر آخر على القناة لكي يخفف السير على جسر الأميركيين لاجتياز القطاع. وأرجىء البحث في اقتراح استئجار مصنع لتصنيع ليمون الحامض، كما تأجّل، إلى اجتماع آخر، بحث مشروع مؤسّسة مشتركة (٦٠٪ من الرساميل الخاصة) لتربية البقر. كان الحضور مستعداً لتأجيل

كل شيء لاجتماع آخر بما في ذلك مسألة منجم للملح، واستخدام الملح في بناء الطرقات.

توصّلوا أخيراً، وبحركة اهتمام قويّ من الجمهور، إلى سعر اليوكا. كانت الحكومة طموحة جداً، قال الجنرال، في سياستها لتشجيع زراعة اليوكا. فارتكبت عدداً من الأخطاء؛ إلاّ أنه يشك بقدرته على رفع السعر. من سيقدّم المال؟ يجب أن يتبرَّع به واحد من الناس.

حاول مهندس الحكومة أن يبدأ بالكلام، فقاطعه الجنرال معلناً أنه جاء ليستمع إلى الفلاحين.

تكلَّم مجدداً عن الصعوبات التي يخلقها رفع الأسعار ـ يجب ألاّ نؤثّر سلباً على التصدير. ربّما زيادة ٢٠ سنتاً...؟ استمرَّ في المناقشة حول المئة. لكن المزاح كان ظاهراً في نظراته. واستمالهم إلى رأيه أخيراً.

سرعان ما أدرك الفلاحون لعبته وتابعوا النقاش مع بعض الابتسامات مازجين بين المزاح والحجج إلى أن وافق الجنرال فجأة. وانفجر الضحك عندئذ والتصفيق. فقد حصلوا على السعر الذي طالبوا به. كانت لهذا الشأن أهميته طبعاً، لكنهم قبل كل شيء، قد تسلّوا. واختتم الاجتماع بجوّ من الفرح والغبطة.

لم يكن ما حصل بعد ذلك سيئاً ـ تناولوا غداءً مشؤوماً في منزل مالك أرض مع جمهرة من النساء الملاّت اللواتي أحطن بالجنرال الجالس في خيمته التي لا بدَّ منها. قدَّموا لنا شرائح من لحم الخنزير الذي لا يؤكل، واليوكا التي لا تؤكل أبداً (عندئذ عرفت أن اليوكا هي ما أعرفه باسم (Cassave). أمّا الشراب فهو الماء والبيبسي. كم تمنيت كأساً من الويسكي أو الروم ـ لكن اليوم ليس يوم أحد. حتى الجنرال، شرب الماء. وارتبكت عندما نظر إليَّ شوشو الذي يقوم بالحراسة في الخارج، ودعاني بطرف عينه. خرجت لرؤيته فاكتشفت غير الماء في غرفة مجاورة.

عندما نزل الجنرال من الطائرة في ريو هاتو، اتجهت وشوشو إلى العاصمة. توقّفنا لنتناول كأساً من الكحول في البار المجاور للبيت المسكون.. اعتاد شوشو بسبب رفقتي على بعض العاداتِ الأوروبية.

أخبرت الجنرال عن زيارتنا الأولى للبيت المسكون. فتذكّرَ أنه سمع في طفولته عن قصّة أحد الأشباح. وكان، حسب الإشاعة، شبح امرأة بيضاء اللون قد ذبحت. يجب أن يكون صاحبه قد ناهز الثمانين من عمره. كان في الثلاثين إذن عندما بدأت الحكاية. تأكدت أنه قتل المرأة في المنزل، وسمع بعضهم صوت الضحية. وهكذا وُلدت حكاية الشبح. الجثة، إذاً، موجودة دون شك تحت أرض المنزل. اقترحت على الجنرال أن يرسل الخنازير المتوحشة في مناورة إلى المكان. يدخلون البيت تحت شكل حصار ويحفرون بعض الحفر. لم يوافق الجنرال على فكرتي لأنَّ أيّ تفتيش يلزمه إذن من السلطات الشرعية.

رجعت مع شوشو ندور حول البيت. سألنا خادم البار إذا كان قد رأى المالك. بالطبع نعم، فقد أخبره عن زيارتنا، لكن شيئاً لن يحصل قبل التحدث إليه. يجيء دائماً إلى هنا يوم الأحد. جيّد! سنمرّ في الأحد القادم.

اقترح شوشو بعد عودتنا إلى العاصمة أن ندعو «المرأة الغنيّة» إلى العشاء (يسميها دائماً هكذا لكي يميزها عن صديقاته الأخريات، لكنني لا اعتقد انها تملك ثروة كبيرة). كان ينوي أن يقضي الليل معها في الفندق، بسبب الولد. يجب أن تنهض في الساعة السادسة صباحاً لكي تعود إلى منزلها. و«الصغير» الباقي في البيت؟ سألته أنا.

لا، إنها لا تشكّل مشكلة. فهي لا تطلب شيئاً منه. اعترف شوشو أن النساء، ربّما يستلطفنه. «انت عاشق ممتاز»؟ ليس هذا بالضبط. فهو لا يهتم كثيراً بالبهلوانيات الجنسية والحماقات الأخرى. والنساء أيضاً، حسب

رأيـه، لا تهتم فعلياً بمثـل هذه التفـاصيل التـافهة. إن مـا تبتغـين، حسب رأيه، هو الحنان الذي يظهره لهنَّ خاصة بعد الانتهاء من ممارسة الحب.

شرب كـلٌ منا ثـلاثـة كؤوس من البونش في بـار سينيـوريـال الـرائـع، حضرَّتهـا لنا فتـاة جذابَّـة رائعة الجمـال تدعى فلور (Flor). كـانت معجبـة بشوشو، إلاّ أنه أبدى تحفظاً غريباً في مغازلتها («إنها امرأة جيّدة وقد يصبح الأمر جدّياً»). ثمَّ، ذهبنا للقاء الشاعرة. كان شوشو قد أصبح ثمـلاً نوعـاً ما.

ازداد سكره أثناء تناول طعام الغداء الذي أمضى فيه الوقت وهـو يطلب مني أن أتمتع بجمال صديقته. إنها بدون أيّ شك امرأة جميلة وذكية، قاربت الخمسين من عمرها. إلاّ أنه من المستحيل النقاش مـع شوشـو الذي كـان يتدخل باستمرار: «أنظر إليها، غـراهام، انـظر إليها، تـأمّل بهـا، كم هي جميلة»؟ لقـد أبدت صبـراً حتى الحدّ الأقصى حسـب رأيي. أوصلني شـوشو إلى الفندق وهو يقـود السيارة بشكـل متفنّن. ثم رجع واصـطحب رفيقته. تهيأ لي أن حظّه في قضاء ليلة ممتعة معها ضئيل جداً.

كنت على خطأ كبير. جاءني شـوشو، في اليـوم التالي، فـرحاً، لم يصحُ بعـد من سكرة الأمس. (شرب نصف قنينـة من النبيذ أثنـاء تنـاول طعـام الفطور قبل أن تغادره في السـاعـة السادسـة صبـاحـاً). «قضيت ليلة رائعة» قال لي. أبديت له تعجبي بعد الأسلوب الذي عاملها به أثناء العشاء.

«ماذا تعني؟

ـ لم تتوقّف عن الطلب إليّ من النـظر إليها، وأن أرى كم هي جميلة. لا تعرف أن تقول إلاّ هذا.

ـ لا تعرف، يا غراهام، أجابني، أنها بلغت عمراً أصبحت فيـه بحاجة لمن تطمئن إليه».

كان شوشو ما هو أهمّ من أستاذ في الفلسفة الماركسية والريـاضيات، أو

رقيب في الحرس الوطني - إنه رجل طيّب وكريم الخلق تفوق حكمته الإنسانية حكمتي الشخصية بالكثير. وقد وُلد هذا الحبّ الذي أكنّه له، كما اعتقد، في ذلك المساء، يوم كان ثملاً حتى السكر الشديد وقاد سيارته فتجاوز الأضواء واصطدم بسيارة متوقفة قبل أن ننهي رحلتنا في واجهة مكتبة يديرها أحد اليونانيين، وهو بطل حرب. «يجب أن ندعوه إلى حفلتك يوم الجمعة، قال شوشو.

- إلى سهرتي أنا؟»

يبدو أن الجنرال وشوشو قد قرّرا فيما بينهما أن أكون ضيف إحدى الحفلات. سيقدّم فيها الحرس الوطني المشروب، وستقام في منزل كاتب پانامي عجوز هو روجيليو سينان. لن يتمكّن الجنرال من الحضور بسبب انهماكه مع الوفد الأميركي، و«البرّاد» بونكر. «سوف ندعو الكوبيين، اقترح شوشو، (فقد غفر لهم كلياً مسألة المسدَّس الروسي) لكننا لن ندعو السينيور V». هناك كاتب يدعى كوستر (Koster) يعيش في پاناما ويقال عنه إنه عميل للمخابرات الأميركية. سيحضر الحفلة، سواء وُجِّهت إليه الدعوة أم لا. استفسر عني من شوشو: «ماذا يصنع هذا التيس العجوز في الزاوية». كنت فضولياً جداً للتعرّف إليه.

١١

أعطانا الجنرال في صباح اليوم التالي طوّافة عسكرية أقلّتنا بعد طعام الغذاء إلى شاطىء تابوغا مقابل فندق صغير موجود هناك. سينقلوننا بعد يومين لقضاء سهرة پاناما. لا يوجد في الجزيرة الصغيرة سوى قرية تحيط بها الأدغال، وفي مكان ما في تلك الادغال توجد مقبرة إنجليزية لم نتمكن من معرفة الطريق المؤدّي إليها. يمكن اعتبار من فيها الآن أنهم دفنوا مرتين. فمنذ زمن بعيد، يوم كانت پاناما ملحقة بكولومبيا لتشكّلا أمة واحدة،

كانت في الجزيـرة مؤسسة تجـاريّة بـريطانيـة مرتبـطة دون شك بمشروع دي ليسيبس. زار غوغين (Gauguin) الجزيرة مـرتين، لكنـه أُصيب بالخيبـة في المرة الثانيـة، لأنه لاحظ أن السـلام فيها قـد تعكرّ بسبب ملحق في شركـة القناة. واليوم، عاد السلام إليها.

سبحت وشوشو بين الأمواج بحذر شديد خوفـاً من سمك القـرش، مع العلم أنهم طمأنونا انها تتجمعٌ في مياه الجزيـرة المجاورة التي تبعـد مسافـة كيلومترين. ثم ذهبنا سيـراً على الأقـدام إلى القريـة حاملين معنـا كمية من السندويشات وبعض قناني الجعة. عند المساء، أعـاد المعبر الـوحيد سكـان الجـزيـرة الـذين يعملون في القـارة. كـان هـدوء ذلـك المكـان الخـالي من السيـارات هدوءاً عميقـاً بحيث أصبح كـالهـواء الـذي يـداعب الـرأس. يـوجـد في ممـرّ غـرفتي تنبيـه، صيـغ بشكـل مهـذّب، وتُـرجم إلى اللغـة الإنجليـزيـة «إذا كنت تنتـظر زيـارة شخصٍ من الجنس الآخـر، يُـرجى استقباله في الغرف المشتركة». إنه طلب متحشّم بالنسبة لپاناما. لعبـت مع شوشو مباراة في كرة الطاولة، ثم ذهبت لأنام فحلمت ـ كردّة فعل على مثل هذا الهدوء ـ انني تسلّمت برقية مزعجة من بلادي.

استيقظت في اليوم التالي وفي رأسي نفس حالـة الهدوء، هـدوء، هدوء. ونفذّنا البرنامج نفسه بدقة. حمام، طعام الفطور، نزهة إلى المدينة، ثم حمّام آخر. كما لو أننا قضينا بضعة أشهر هادئة في هذه الجزيرة. خرج شوشو من المياه ليجيب على مكالمة هاتفية من السينيور V. لن يلتحق بنا، الحمـد لله، كما كنت أخشى في بادىء الأمر. لكنه اتخذ كل الترتيبات الضروريّة للسهرة التي لم نكن ننـوي دعوتـه إليها. أتـذكرّ أن الضـوء، في ذلك المسـاء، كان جميـلاً جـداً، وبـاستـطاعتنـا أن ننسى السينيـور V. والأبـراج البيضـاء في العاصمة تمتزج بالغسق على مسافة خمسة عشر كيلومترا في الضفة الثانية من المحيط كرسم للجنّة من إبداع جون مارتن.

منذ عام ١٩٥٨، في الكونغو، لم أقرأ في قلب الظلمات. قـرأت الكتاب

ثانيةً في ذلك المساء قبل النوم. ويبدا لي فجأة أنني اكتشفت لدى كونراد عبارة في القصَّة، اعتقدت أنها اتخذت في رأسي شكل: **على طريق العودة**. وعندما فتحت اليوم قصة كونراد في الصحفة المشار إليها، تحديداً، شعرت بأن هذه العبارات تتطابق بشكل أفضل مع كتابي الحالي.

يبدو أنني أحاول أن أقصّ عليك حلماً ـ محاولة فاشلة ـ فما من نصّ حلم يستطيع أن ينقل انفعال حلم، هذا المزيج من اللامعقولية والمفاجأة والاندهاش وهزَّة التمرّد المتكوِّنة، إلى فكرة انه اتخذ ممَّا لا يُصدَّق...

شعرت بنفسي، في هدوء تابوغا، أسير پاناما، وأسيرَ النزاع مع الولايات المتحدة، وأسير الفلاحين وصراخهم الوحشيّ، وحكمة شوشو الغريبة وتعقّد حياته العاطفية، أسير قرع الطبول في أحياء إلشوريللو، وأسير أحلام موت الجنرال؛ أمَّا الانتفاضة فقد تعرَّفت إليها أيضاً في السنوات التالية، مع الرغبة في العودة إلى أوروبا لكي أواجه مشكلات كبيرة.

حاولت في صبيحة اليوم التالي أن أدوِّن في مفكرّتي العبارات الأولى في القصة التي تصف كيف كلَّف رئيس تحرير مجلة أسبوعية باريسية يسارية صحافية فرنسية شابَّة، بالذهاب إلى پاناما واجراء مقابلة مع الجنرال.. لم تكن هذه الجمل هي الأولى، بالفعل، في الفصل الذي سأكتبه ثم تخلَّيت عنه.

«كانت أناقتها تفرض ذاتها ناهيك عن الانسكاب الرائع لشعرها الأشهب فوق أذنيها؛ لكن أذنيها، ويجب الاعتراف بذلك، هما بحجم أذني الذكر تماماً. ولكانت اعتبرته ديبلوماسياً لو لم تعرف انه يدير تلك المجلة الأسبوعية لليسار ذي النوعية الجيّدة، والتي لا تقرأها إلاَّ نادراً، غير مظهرٍ لها تعاطفه لميلها لسياسة الصالونات. عديدون هم الرجال الذين يظهرون ضعفاء الشخصية للنظرة الأولى لكنهم ينتعشون من مجرَّد النظر.

كانت عينا هذا الرجـل ميتتين. حركـات قامتـه الأنيقة فقط هي التي تعـطيه الحياة».

اعترف أنني كنت أفكرّ بمدير جريدة مـا، التقيت به مـرّة واحدة في أحـد مقـاهي ليشبونـة. ولأول مـرّة في حيـاتي كقصصيّ أحـاول خـطأً استخـدام أشخاص واقعيين ـ الجنرال، وشوشو، وحتى مدير الجريدة هذا ـ جاءوا من واقع الحياة وليس من الخيال ولهـذا السبب، تجمدّوا في رأسي كـالتماثيـل، عاجزين عن التطور، عاجزين عن النطق والحركة غير المتوقّعـة، لم يتمكنوا من حياة خيالية لهم ومستقلة عني.

١٢

حطّت الطوّافة التي أقلّتنا على الشاطىء بدقة عسكـرية تـامة. أخـذت، بعد عودتي إلى باناما، قيلولة طويلة لكي استعدّ لتلك السهـرة الغريبـة التي سأكون ضيف الشرف فيها، ضيف جمهور مجهـول اختاره شـوشو والسنيـور ٧. كان صاحب المكتبة اليونـاني هو المدعو الـوحيد الـذي أعرفـه بالـوجه فقط.

ستقام السهرة، حسب بطاقة الدعوة ما بين السـاعة الثـامنة والعـاشرة. كنت وشوشو دقيقين في الموعد، وكذلك عدد من المدعوين الآخـرين؛ لكن الشراب قـد تأخّـر. وبدونـه يمرّ الـوقت بطيئـاً. فالسهـرة تجرجـر جامـدة. ونشطت آلات التصويـر دون توقف. بـدا شوشـو تعباً. أخـبرني أنه أمضى طيلة بعد الظهر مع إحدى المومسات. واستمرّ تدفّق الناس، لكن الشراب لم يصـل. وقيّمت بمرارة مـدى خبث مثل هـذه الاستقبالات. مـا من أحد يذهب إلى حفلة استقبال لكي يعقد لقاءات. كلّهم هنا ليشربوا مجـاناً. لا يوجد شيء للشرب وكان عليّ أن استقبل الناس.

نفـرت من الملحق الكويتيّ للشؤون السيـاسيّة، الـذي بدا أنـه ينـظر إليّ

بارتياب عندما قلت له أنني زرت كوبا ثلاث مرات منذ الثورة، وانني تعرَّفت إلى البلاد في عهد باتيستا. ولحسن الحظّ انني تخلّصت منه بفضل ملحق صحافي كوبي شاب لطيف جداً. توارى شوشو (بحثاً عن المشروب، كما قال لي)، ثمَّ عاد منتصراً، بعد فترة من الوقت بدت لي طويلة جداً، ومعه شاحنة مليئة بالصناديق. يبدو أنه أعطى عنواناً خطأً للحرس الوطني.

انتعشت الحفلة بسرعة. كان القائد الشيوعي لپاناما لطيفاً للغاية، أخبرني أن حزبه يساند سياسة «الحذر» التي يمارسها الجنرال. وافق معي مهندس شاب على سوء مجمّعات السكن في حيّ إلشوريللو الفقير، حتى أكواخ هوليوود القذرة هي أفضل منها، حسب تعليقه. «يرتبط الناس في هوليوود بمنازلهم»، قال الشاب. «الشروط سيئة جداً، لكنها، بالرغم من كل شيء، منازل معقولة». عرفت فيما بعد أن هوليوود هو اسم أعطي لقطاع فقير جداً في المدينة.

دفعني شوشو بكوعه: «هذا هو كوستر» (Koster).

كان القصصي - أو عميل المخابرات الأميركية - يتجول بسرعة، يتقدَّم باتجاهنا أكثر فأكثر، إلاَّ في اللحظات التي يتوقّف فيها لكي يملأ كأسه. لم يسخر منّا الحرس الوطني، وبدأت أشعر بنفسي مرحاً نوعاً ما. وصل كوستر إليَّ ومدَّ يده مصافحاً.

«كوستر»، قال لي.

قدَّمت نفسي بدوري: «التيس العجوز».

«- ماذا تعني؟

- قال لي شوشو إنك تريد أن تعرف ماذا كان يفعل ذلك التيس القابع في الزاوية.

- لم أقل أبداً مثل هذه الأشياء».

وانصرف بسرعة متغلغلاً بين المدعـوين، وأطلق، حسب قول شـوشو، إشاعة غريبة جداً، وهو انني لوطيّ ذائع الصيت. فهل التيوس لواطيون؟

تجاوزت الساعة العاشرة منذ فترة طويلة. واحتياطي المشروب لا ينتهي. ولا تزال الناس تتدفق إلى السهرة حتى منتصف الليل. وبما انني مدرك انني ضيف غير مهذّب، تواريت مع شوشو ورفيقته اللاجئة الأرجنتينية التي كان مرتبطاً معها. كثيرون هم اللاجئون مثلها في باناما حيث يملكون شقة خاصّة، يسميها سكان الحيّ، مـاخوراً؛ لأنهم عنـدما يجـدون عملاً ويحصلون عـلى تأشيرة دخول إلى بلاد أخرى، يغادرونها فـوراً. وكان شـوشو يهتّم بشؤونهم على حساب الجنرال.

أخبرني شوشـو، ذات يوم، وهـو يشرب كأسـاً، أن المرأة الـوحيدة التي أحبَّهـا فعلاً (والتي كـانت زوجتـه الشرعيـة)، ستصـل في اليـوم التـالي من الـولايات المتحـدة حيث تقيم هناك مـع زوجها الجـديد. تـأتي لزيـارة أمّها ومعها ولدا شوشو اللذان لم يشاهدهما منذ سبع سنوات. سيلحق بها زوجها بعـد يومـين. لكنني شعرت أن شـوشو لا يـزال يحتفظ ببعض الأمـل. من الواضح أن صديقته الأرجنتينية لا تعني له الشيء الكثير الآن.

غداة اليوم الذي تلا السهرة، تحقّقت إحدى رغباتي. اصطحبني شـوشو إلى بورتو بيللو. فهي غير نومبر دي ديوس التي شاهدتهـا بعد سنتـين، ومع ذلك، فجثّة دريك ترقد في خليج بورتو بيللو. هناك ضابط أميركي يساعـد الباناميين في البحث عن قبره، وما زالوا حتى الآن يبحثون دون جدوى.

بورتو بيللو مدينة ذات جمال رائع. لم تتغـيّر فيها أشيـاء كثيرة منـذ موت دريك. وتقع المدينة على طريق الـذهب الذي ينـطلق من بانـاما. ومـا زال هنـاك مبنى الكنز حيث يتجمّـع الذهب لكي يُنقـل إلى أسبـانيـا. وكـذلـك القلاع الثلاث التي تحمي المدينة والمرتفعات التي تصـطف عليها العقبـان، كما تجثم العقبان أيضاً على أقدام الكاتـدرائية وصـولاً إلى صليبها. لا يمكن

رؤية شيء في القرية من على قبة الكاتدرائية. تنتشر الأدغال فقط مثل ستار قائم، يتعذّر الدخول إليه، من المنحدرات حتى تبلغ حدود الكنيسة. وما من مكان هناك، بين الصخور، حتى بالنسبة للعدد الضئيل من السكان البالغ ألفي نسمة. وينتصب في داخل الكنيسة، فوق المذبح، تمثال مسيحٍ أسود اللون، انقذه الهنود بعد غرق المركب الذي كان ينقله إلى نائب ملك البيرو.

في طريق العودة إلى پاناما، وبينما كنت استعدّ لاتخاذ فترة وجيزة من الراحة، أيقظني شوشو ليخبرني أنّ الجنرال ينتظرنا في منزل روري غونزاليس. فقد غادر الأميركيون والسيدّ بونكر، بعد زيارة قصيرة لجزيرة كونتادورا، ويريد الجنرال أن يحتفل بذلك.

كانت تلك هي السهرة الأولى التي نجلس فيها ونشرب سوية. لا يشرب عادة توريخوس إلّا الماء مع الأكل، لكن الويسكي السوداء راح ينسكب منذ وصولنا في الساعة الخامسة بعد الظهر حتى مغادرتي في حوالي العاشرة. كان السينيور V هناك. وقد أصبح ثملاً فلم يعد يشكل تهديداً لحرية حركتي. بالفعل، كانت المرَّة الأخيرة التي شاهدته فيها على قيد الحياة. كان في الحفلة، أيضاً، سفير الولايات المتحدة الأميركية وروري غونزاليس طبعاً.

كان الجنرال سعيداً وواثقاً من نفسه بعد أن تحرَّر من سأم المفاوضات. شاهدت معه صوراً لزوجته، اتخذت لها يوم زارت والدتها بعد غياب طويل. بدا الاثنان سعيدين، كما هو الجنرال الآن تماماً. راح يمزح حول موضوع المغنيَّة الكولومبية التي طار للقاء بها في بوغوتا. «أنت رأيتها، قال لي، أمّا أنا فقد أخذت قياسها». إلا أنه أضاف، ـ ربما بداعي روح الفروسيَّة، وهذا من طبعه ـ بأن أمله قد خاب: لم يحدث أيّ شيء معها، لم توافق حتى على الصعود إلى طائرته.

«سندفن هذا المساء، حياة الفتى الأعزب صاحب الرقم واحد في پاناما، قال الجنرال. سيتزوج روري في ٢٧ كانون الأول». سبق وتزّوج في الثالثة والعشرين من عمره؛ لم يأسف على شيء رغم أنه واجه مشاكل عديدة. كشفت زوجته الفتيَّة، ذات يوم، مخبأ رسائله الغرامية. «لم تفقد صوابها، قالت مؤكدة، بل كانت واقعيّة». حجزته في المنزل فاضطرّ لاستدعاء روري للإفراج عنه.

مضى الوقت سريعاً مع الويسكي السوداء. قاربت الساعة التاسعة؛ أسرَّ شوشو في أذني أنه يريد الذهاب إلى المطار لكي يستقبل زوجته السابقة مع ولديه. «رافقني ياغراهام، أرجوك». رجاني كثيراً، لكنني كنت مرتاحاً ولا أريد أن أتحرَّك من مكاني.

«أعطني إذاً نظارات الشمس خاصتك.

ـ لماذا؟ فالليل معتم جداً في الخارج.

ـ لكي أخبّىء دموعي». قال.

أثار الجنرال مسألة حرب الموز التي واجهها، منذ بضعة سنوات، اليونيتد فرويت، مع الدول المنتجة. تعاقد هؤلاء مع الشركة، الواحد بعد الآخر، حتى بقيت پاناما وحدها تقاوم. «قالوا، إنهم مستعدّون ان يقدِّموا لي ثلاثة ملايين دولار. لو أنهم قدّموا لي ملكتي جمال كون، من يدري...»

عند الساعة العاشرة كنت قد شربت ما فيه الكفاية، وكان الجنرال قد توارى. اقترح روري أن ينقلني بسيَّارته بما أن شوشو لم يرجع بعد. طلبت إليه أن يشكر الجنرال باسمي. «اعتقد انه مع إحدى الفتيات». قال روروي. أعطينا المقعد الخلفيّ للسينيور V. كان ثملاً، لم أفهم شيئاً ممّا قاله في طريق العودة إلى الفندق.

كنت لا أزال مرحاً عندما حان وقت النوم، وقلت في نفسي: إن پاناما

لا تملك بعد نقدها الخاص، الدولار فقط في التداول، ووعد الجنرال بخلق نقد پانامي . . . بعد حلّ مسألة القناة فوراً. تصوّرت، وأنا في سريري، سبب إيجاد النقد الپانامي المقبل. أليس من العدل أن تُنقش على أحد وجهيه صورة الجنرال، وعلى الوجه الآخر صورة شوشو. صورتا الرجلين الرومنطيقيين اللذين يثق واحدهما بالآخر أكثر ممّا يثق بأية امرأة، سياسية كانت أم مثقّفة؟

١٣

وصل شوشو إلى الفندق برفقة ولدين جميلين وذكيّين هما ثمرة زواجه من المرأة التي أحبَّها أكثر من أية امرأة أخرى. ثم، بعد زواج جديد، وأبوّة جديدة، قال لي شوشو بصوت ملؤه الأسف: «آسف، انها لم تكن امرأة نظيفة». اعتقدت انه أراد أن يقول إنها لم تكن كما يجب فيما يتعلق بالترتيب وبالإدارة المنزليّة. لم تكن «امرأة معنيّة ببيتها».

حاولنا، مرة أخرى، الحصول على طائرة للذهاب إلى بوكاس ديل تورو، تلك الجزيرة التي أصبحت، بالنسبة لي، هاجساً كقرية نومبر دي ديّوس. ولحسن الحظ إننا فشلنا مرة أخرى. اصطحبنا الولدين إلى الأوتوستراد الذي لم يتم إنجازه بعد، باتجاه كولومبيا والمساحة الصحراوية الكبيرة المرسومة باللون الأخضر على الخريطة، والتي تشير إلى الأدغال الكثيفة التي لم تكتشف بعد في داريان، الاحتياط الذي لا يحصى من الهنود. يوجد هناك أناس (من بينهم مهندسون يابانيون) ليقترحوا بناء قناة جديدة عبر الأدغال، والتي سيتم شقّها بواسطة صواريخ نووية. لكن الجنرال يعارض هذا المشروع بحزم: «لا نعرف كم من الهنود سيُقتلون أو سيُطردون».

يوجد على حدود هذا الاحتياطي الكبير، سدّ بايانو (Bayano) الذي تمّ

بناؤه بمساعدة اليوغوسلافيين. وصلنا إليه بعد أن تناولنا الطعام في مركز للإنشاءات العسكريَّة - كان يوم أحد، يوم زيارة العائلات ممّا أعادني بالذكرى ليوم عيد مدرسي في إنجلترا مع الأمهات الفخورات بأولادهن، وصغارهنّ المرتبكين.

سبَّب السدّ تغيير مكان قرية هندية على الأقل، هي اليوم مغطّاة بالمياه. صعدنا حتى وصلنا القرية الجديدة التي حلّت محلّها، استقبلنا الزعيم في خيمة مخصصّة للاجتماعات. إنّه رجل مسنّ على قدر كبير من الوقار، يضع على قبعته ريشتين، ويُسدل على كتفيه قطعة من القماش الأخضر. وهناك عدد من القرويين الجالسين على الأرض يستمعون بصمت عميق إلى المترجم الذي يترجم شكاوى الزعيم ضدّ الحكومة. لن يتركوا مناسبة زيارتنا تفوتهم.

لم تفِ الحكومة بوعودها، قال القرويون، - تأخرت تعويضات النقل ثلاثة أشهر؛ وتأخّرت التجهيزات المتعلقة بالبذار كثيراً في القرية الجديدة؛ وطردت أعمال السدّ الطريدة التي تغذّي الأسماك فماتت جميعها. فإذا أرادوا الاستعانة بالجنرال، يجب أن تقدَّم الشكاوى من قادة الهنود مجتمعين. والرجل الذي يختارونه لتمثيلهم ليس مهماً، ولا يقوم بأي جهد ليخدم شعبه. وعدنا الزعيم اننّا سنتحدَّث مع الجنرال مباشرة، وصدّق وعدنا - ربّما مع بعض الشك.

أصغى ولدا شوشو بانتباه تام إلى النقاش. فبدا لهما كل ذلك غريباً عن حياتهما في الولايات المتحدة الأميركية وعن عمّهما في المعسكر. كان شوشو أيضاً «بورفسوراً» ولكن بالبزة العسكرية، ومع شاراته كرقيب. يجب أن يكون بالنسبة لهما مختلفاً جداً عن الأساتذة الذين اعتادا على رؤيتهم في الولايات المتحدة. لقد ربّى شوشو ابنه بشكل بارع. «أعطني فكرة ما» قال له، ثم:

«ـ اعطني فكرة عن هذا الموضوع»، ولا يلبث ابنه أن يجيب بأمثلة قصيرة.

بعد عودتنا إلى العاصمة، ذهبنا، شوشو وأنا، إلى الموليدي إن لعدم توفّر الأفضل، ولأنه قريب، لكي نشرب كأساً من البونش مع الروم ـ سيء، كما خشينا أن يكون ـ ولكي نضع أيضاً برنامج اليوم التالي. نأخذ طوّافة من الجيش لنصل إلى إحدى جزر سان بلاس (San Blas) على شاطىء الأطلسي حيث كان سرطان البحر طيّباً، حسب قول شوشو، وحيث يعيش هنود كوناس حياة مستقلة. ثم ذهبنا لتناول طعام الغداء في ماريسكو. انتبه شوشو هناك أنه نسي نظارتيه فعاد ليبحث عنهما. كان قد نسي، بالفعل، أكثر من نظارتيه لأنه عاد مع «الفقيرة البائسة» التي لا يستطيع أن يتخلّ عنها. كانت جذّابة لطيفة، وبسيطة أكثر مما كان يزعم.

١٤

لم يحصل شيء في پاناما كما كنّا نتوقّع. فبدلاً من الركوب في الطوافة إلى جزر سان بلاس، ذهبنا لشراء بعض الحاجيات، لأن الجنرال أراد أن نكون معه عند روري أثناء تناوله طعام الغداء (يكره الأكل لوحده). استحضرتني فكرة محاولة تغيير ذوقه بالنسبة للويسكي. ابتعت قنينة ويسكي إيرلندية (أردت أن أعلّمه تحضير القهوة الإيرلدنية). تملكته الدهشة عندما عرف أن إيرلندا تنتج الويسكي. وأخذت معي أيضاً قنينة غلينفيديش لكي أتحدّى مشروبه المفضل الويسكي السوداء. قدّمت له أيضاً واحداً من كنوزي التي احتفظ بها في محفظتي ـ دولار مزوّر مع شعارات معادية لحرب الڤيتنام منقوشة على وجهه الثاني. أعجبه هذا الدولار أكثر من الويسكي، لأنه بقي أميناً للبلاك ليبل حتى النهاية. كانت تلك الهدايا هدايا الوداع. سوف تنطلق في اليوم التالي، طائرتي التابعة لشركة ك. ل. م (K.L.M.) إلى أمستردام.

نقلنا إليه شكاوى الهنود في بايانو. وعدنا بأن مطالبهم ستتحقق، وسجلّها لدى السكرتيرة ثم تناولنا الطعام مع الماء، في جوّ من النقاش حول بعض القضايا ـ لم يكن اليوم يوم أحد. تحدّثنا عن الأحلام ـ نادراً ما يتذكّرها، والتي يتذكرها هي المزعجة منها، كمثل حلمه أن والده قد مات. وقدَّم هذه الملاحظة حول النساء: «عندما نكون شباباً نأكل أيَّ شيء. لكننا فيما بعد، نتعلَّم طريقة الاختيار». طرح أيضاً مسألة الهواجس التي كان يعاني منها أغلب الأحيان. فهواجسه تتعلّق عادة بموته العنيف. اخبرته عن صدمتي عندما رأيت على طرق الجمهورية ظلال شخصيات ديزني التي ارتبطت بها اسماء المدن والقرى. «ألا يمكن الطلب من الطلاب عندما سيتظاهرون ضدَّ الولايات المتحدة أن يحرقوا كل هذه الرسوم المصنوعة على طريقة دونالد داك؟» لم أكرّر هذا الاقتراح، مع الأسف، أبداً. ولا تزال ظلال الرسوم موجودة دائماً.

كانت الببغاء تراقبنا من القفص فيما كنا نتحدَّث. «لن تغنّي أبداً بدون رفيق لها. قلت لتوريخوس.

ـ بلى لماذا؟». ذهب إلى الغرفة المجاورة وجاء حاملاً شريطاً مسجلاً صغيراً. كان قد سجل عليه غناء ببغاء، وأسمعه للعصفور الموحش. فبدأ هذا الأخير بالغناء. كيف يمكن للمرء ألاَّ يحبَّ هذا الرجل؟

ذهبت مع شوشو، هذا المساء، إلى باناما، إلى مطعم في الهواء الطلق. المحيط الهادىء ممتدّ أمام ناظرينا كمثل جادة قاتمة اللون، ورأينا النجوم أقرب إلينا وأكثر لمعاناً ممّا هي عندنا. كان علينا أن نقابل زوجته السابقة مع الولدين. وفي فترة الانتظار، وصف لي شوشو زوجته السابقة كأجمل امرأة لم تقع عيناي على مثيل لها بعد. مستدركاً كم سيكون حزنه كبيراً في لحظة الانفصال عنها بعد تناول الطعام. تدبّر تعزية له بترتيب موعد في الساعة العاشرة والنصف مع مومس في إحدى زوايا الشارع ـ «المرأة الفقيرة البائسة» في منزله لن تكون كافية لتهدئة حزنه.

وصلت الـزوجـة الـسـابقـة. جميلة، وذكيّـة، ومستحبّـة فعـلاً. لكنني لم أجدها، مـع كل هـذا، على مستـوى حلم شوشـو. اصطحبت معهـا (ربّما لتجنّب شدّة شوق شوشو) فتاة جميلة شابّـة تحمل لقب دكتـورة تبدو وكـأنها دائـماً في حذرٍ عدواني. ارتدى شـوشو أجمـل ثيـابـه. سرّح خصـلات شعـره المتمـرّدة، وصمّم على إغـراء ابنته ذات الثـلاثـة عشر ربيعـاً. كـانت فتـاة رومنسيّـة هي أيضاً ـ شـاهدهـا أحد أصـدقـائي، بعـد بضعـة سنـوات في نيكاراغوا، ترتدي بزة كاكية اللون والمسدّس على خصرها.

لم يتوقّف شوشو، طيلة فترة الطعام، عن التشكّي من وحدته في بانامـا ـ متنـاسياً «المـرأة الغنيّة» وطفلهـا، و«الفقيرة البـائسة» التي تنتـظر في المنزل، والمومس التي كانت تتوجّه في تلك اللحـظة إلى الموعـد. توسّـل شوشـو إلى زوجته: «عندما تعودين إلى الولايات المتحـدة اتركي لي ابنتي عـلى الأقلّ». أمسكت البنت بيد والدها وراحت تنتحب وهي تفكر بـوحدة هـذا الرجـل الجالس بالقرب منها.

ـ لم يعد أستاذاً بنظرها: فهـو جندي هـذا المساء. كـان شقيقها الشـاب أصلب عوداً، وطرح بـاعتزاز «فكـرة» علّمه إيـاها والـده: «لا يستطيـع أن يشعـر بنفسه وحيـداً مع العـالم بأسره لكي يشغـل عقله». كانت الـدكتورة تراقب بوقاحة مسرحية شوشو، والبنت تبكي وتبكي.

غضبت من شـوشو، ووبّختـه في طريق عـودتنا إلى الفنـدق. «ليس من حقـك أن تجعل ابنتـك تضطرب بهـذا الشكل، بـأكاذيبـك عن الـوحـدة. وحدة؟ أية وحدة؟

ـ لكنني وحيد». أوقـف السيـارة في إحـدى زوايـا الشـارع، والتفت حوله. «لقد ذهبت، قال. لقد تأخرنا حوالى الساعة تقريباً».

تناولت في صباح اليوم التالي آخر طعام غداء مع شـوشو في مـاريسكو ـ وداع لبانامـا. كانت الوجبة التي قدّمها لنا رجل من البـاسك، بسيـطة لكنها

محضّرة جيداً، وهي كناية عن نوع من السمك مع الزيت، مغمّسة بالنبيذ الشيلي الذي اختير من بين المجموعة المرقّمة غير التابعة لبينوشيت.

لم أتصوّر لحظة أنني سوف ألتقي فيها بعد بشوشو، أو بالجنرال، أو بپاناما. لكنني، كنت لا أزال أفكّر بتلك القصة التي لن أكتبها أبداً. سجّلت خلال الأشهر التي تلت، بعض مقاطع الحوار ـ ليس الحوار الذي استمعت إليه: حوار مختلف تماماً عن الواقع.

«إنك تحاكمينا»، قال الجنرال لصحافية «على طريق العودة». «تسمّيننا أميركيين ـ لاتينيين لأنك ترفضين النظر إلى أعماق ذاتك، حيث تجدينا.

من كان أول أميركي ـ لاتيني؟ كورتيز ـ ليس كولومبس. بقي كولومبس على سطح سفينته في خليج بورتو بيللو ولم يرد النزول إلى الأرض. كان هرماً مثل أوروبا».

لكن هناك جملة خاصة بالجنرال بقي سرّها مسيطراً عليّ. ماذا أراد أن يقول عندما أسرّ بها في أذني: «لدينا، انت وانا، نقطة مشتركة، هي التدمير الذاتي؟» أحسست بأنني استمع إلى صديق يعرفني أكثر ممّا أعرف أنا نفسي.

القسم الثاني

١٩٧٧

١

لاحقتني روايتي ليل نهار منذ عودتي إلى فرنسا. ولم تتوقَّف شخصياتها التي أوجدتها عن خطأ من الواقع عن تعذيبي. كنت أفكرّ باستمرار بتبجّح شوشو وطيبته: «لن أموت أبداً»، وبنظريته اللاهوتية المعقدة: «أؤمن بالشيطان ولا أؤمن بالله»، على طريقته بالبرهان عن وجود الشيطان بدفع مصراع الباب في الاتجاه الخاطىء. ويستمرّ الجنرال وشوشو في العيش بعيداً جداً في پاناما، وهما يرفضان أن يصبحا من الشخصيات في قصّتي. أما پاناما، فهناك أشياء كثيرة لم أشاهدها في تلك البلاد الصغيرة، ولم يكن من المتوقع أن أعود إليها يوماً. . . لم أتبع أثر كولومبس فوق جزيرة بوكاس ديل تورو غير المرغوب فيها؛ وبقيت نومبر دي ديوس إسماً في مسرحية تاريخية، وقصيدة، لم نتمكّن من الدخول إلى البيت المسكون. عرفت من صديقي ديدريش أن السينيور V المسكين قد توفي إثر أزمة قلبيّة. هل وضعت حداً لحياته سهرة البلاك ليبل تلك؟ ففي القصّة التي بدأت أفقد الأمل بكتابتها نهائياً، كان من الأساسي أن يبقى على قيد الحياة لأنه يلعب دوراً هاماً بعد مصرع شوشو في السيارة المفخخة ـ في ديڤيد. كان يتوجّب على الجنرال أن يرسل السينيور V، ليعيد المرأة الصحافية الشابة إلى پاناما بالطوافة، وستحلّق برفقته الحزينة فوق الأماكن كلها التي كان من المتوقع زيارتها مع

شوشو في «على طريق العودة».

خلال الشهرين اللاحقين، كتبت الصفحتين الأولين من هذا الكتاب المحكوم عليه سلفاً. تصل ماري ـ كلير، الصحافية الفرنسية، كما وصلت أنا، في أول لقاء لي مع الجنرال.

«إنها الآن في الباحة الصغيرة لمنزل متواضع في الضاحية مطلي باللون الأبيض، تحيط بها بعض الوجوه الخلاسيَّة. يحمل الرجال جميعهم مسدسات في أحزمتهم. يمسك أحدهم بجهاز للإرسال، يشدّه على أذنه، وكأنه يستمع، بخشوع كاهن، إلى كلام أحد آلهة الهنود. هؤلاء الرجال هم غرباء، بالنسبة لي، تصوَّرت في باطنها، كما بدا الهنود لكريستوف كولومبس منذ خمسة أجيال. تشبه أزياؤهم المموَّهة رسوماً ملوَّنة على الجلد العاري».

كنت عند هذه النقطة من قصتيَّ عندما رنَّ جرس الهاتف ذات مساء في أنتيب في لحظة توجُّهي إلى الفراش. كان صوت شوشو، يطلبني من باناما:

«متى ستأتي؟

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ يريد الجنرال أن يعرف متى ستأتي.

ـ لكني...

ـ بطاقة سفرك بانتظارك في شركة ك. ل. م.»

أخيراً، فكَّرت، وبنوع من الفرح، انني سوف أرى مجدّداً باناما.

ركبت الطائرة، في تلك المناسبة، من باريس باتجاه أمستردام لكي أتمكَّن من اللحاق برحلتي في ك. ل. م. وشربت في اليوم التالي «البولز»، ونحن نحلّق فوق الكاريبي. سجَّلت في مفكرتي: «٢١ آب. تجمعات من الغيوم

فوق ترينيداد (Trinidad). الشاطىء الجبلي الرائع في كولومبيا، ثم الأدغال الكثّة في داريان. شوشو ينتظرني في المطار».

كان ذلك كما لو أنني لم أغادر أبداً. تأقلمت دون أية صعوبة مع وتيرة الحياة في پاناما. قيلولة. مزارعون فاشلون برفقة شوشو في الهوليدي إن. عودة إلى الفندق لتناول الويسكي التقليدي. طعام غداء جيّد شهيّ حضرهُ صاحب المطعم الباسكيّ في ماريسكو. إلاّ أن هناك بعض التغييرات الهامة قد حدثت، قام شوشو بمهمّة إشعال مصباحي. فحياته لم تبقَ في نقطة المراوحة. هجرت زوجته المعبودة السابقة زوجها الأميركي؛ لكنها لا ترغب في العودة إليه (بالأحرى إلى تعزية هذا الأخير) لأنها لا تشعر معه بالحرّية. «تحاول أن تكون شيئاً ما مئة بالمئة، كان ذلك تعليق شوشو، في حين أن ما تريده في الواقع هو أن تكون خمسين بالمئة ـ نصف حرَّة، نصف ذكيّة، نصف. . .» وهو لا يزال مع اللاجئة الأرجنتينية، لكنها كانت تواجهه هذه الأيام بالغيرة.

والجنرال؟ كيف حال الجنرال؟ إنه، حسب قول شوشو، غير مسرور من نصوص المعاهدة التي وافق أخيراً عليها؛ فهو لا ينام جيداً، وامتنع عن الشراب في عطلات نهاية الأسبوع، وهذا مؤشر سيّء. يناضل شوشو بحماس لكي يدفع بالطلاب إلى التظاهر ضدَّ القطاع قبل أن يصدّق مجلس الشيوخ الأميركي على نصوص المعاهدة. يريد أن يظهر لهم فقط أن پاناما لن تقبل، بأي ثمن، بالتعديلات التي يريديون ادخالها فيها. لكنَّ همَّ شوشو الكبير كان في معرفة ما إذا كان الجنرال سوف ينزلق قليلاً باتجاه اليمين.

كنت قد نشرت سابقاً مقالاً في مجلّة «**نيويورك ريڤيو أوف بوكس**»، عن «البلاد ذات الحدود الخمس»، أشرت فيه إلى امتيازات بعض كبار الضباط في الحرس الوطني، في مجال السكن، مثلاً ـ «إن لم أدفع أنا لهم، فستدفع وكالة الاستخبارات الأميركية». وصفت فيه أيضاً الكولونيل فلوريس جالساً

يعلك في اجتماع إلشوريللو. وقبل نشر ترجمة لمقالي في صحيفة بانامية، سأل شوشو الجنرال ما إذا كان يتوجّب حذف المقطع المتعلّق بضباط الحرس الوطني. «كلّا. لن تغيّر كلمة واحدة فيه». أجاب الجنرال. فمن أجل علاقاتي المقبلة مع رئيس هيئة الأركان، تمنّيت ألّا يحصل انقلاب أثناء وجودي هناك.

طرح شوشو المسألة أمامي على الشكل التالي: «طبعاً، هناك رشوة في صفوف كبار الضباط. أنت تعرف قصّة الرجل الذي أراد أن يفتح مكاتبه بإحدى لصقات الكاوتشوك. وصل رجل آخر وقال له: «لن نستطيع فتحها هكذا، يجب أن تضع يديك في البراز ثم تدفع بها». فالجنرال، إذاً، مضطر أن يضع يديه في البراز».

أرسل توريخوس طائرته، في صباح اليوم التالي، لتأتي بنا. كان ينتظرنا على الغداء في منزله في فارالون (Farallon) على شاطىء المحيط الهادىء. «ضع بعض حاجياتك في حقيبة، نصحني شوشو، أشعر اننا لن نصل هذا المساء».

كان على حق. حطّت طوّافة قرب المنزل وتركنا فيها حقائبنا.

فوجئت بعد تعليقات شوشو إذ وجدت توريخوس منشرحاً شاباً وسعيداً جداً. استقبلني مقبّلاً إياي. وناداني باسمي الشخصيّ. قمت بنفس الحركة. وابتداءً من تلك اللحظة أصبح بالنسبة لي «عُمَر». قال لي إن مقالي أعجبه. «وصفتني كشخص واقعي، وليس ككومبيوتر». كانت المفاوضات حول المعاهدة قاسية ومرهقة. جاء الأميركيون بقصد عدم تقديم أيّ تنازل. قيل كل شيء الآن. والمخرج بين أيدي الآلهة ـ أو مجلس الشيوخ. شاهد، قبل بضعة ليالي، حلماً مؤثراً جداً: بدأت حرب العصابات التي كانت إحدى امنياته. وجد نفسه في الأدغال عاري القدمين. شعر بإذلال كبير لأن ذلك يعني الأسر المؤكد منذ بداية المعارك.

بعد تناول طعام الغداء، وفيما كانت الطوّافة مستعدة للإقلاع، أصعدنا الجنرال إلى سيارته وجلس وراء المقود. اتخذ هذا القرار في اللحظة الأخيرة لدوافع امنية ـ فهمت اليوم أن فكرة الاغتيال، المحتملة دائماً، لم تغادره أبداً. كنّا خمسة في السيارة: الجنرال، وسكرتيرة، وأنا، وشوشو، وامرأة شابّة يدلّ وجهها على وجود دم صيني فيها. في هذا اللقاء الأول، بدت لي مدَّعية نوعاً ما، تظهر بمظهر المثقفة ـ كانت تدرس علم الاجتماع في الولايات المتحدة؛ فرع ملؤه السخافات والمجردات المبتذلة. لكنني أخطأت. فهي ذكية وشجاعة وحنونة وصريحة، إنها ممتازة بالنسبة لعُمر.

كان علينا أن نقضي الليل في سانتياغو على ما يبدو. ثم تلتحق بنا في الصباح التالي طوّافة تنقلنا إلى ديڤيد، ثم إلى مزرعة موز بانامية ـ منفردة بين مزارع أخرى يمتلكها جميعها أناس أميركيون.

سانتياغو هي مسقط رأس الجنرال. أخبرني ونحن في الطريق، انه حاول وهو في السادسة عشرة من العمر أن يهرب مع فتاة بعد أن يسرق سيارة أخيها الأكبر. «حالفني الحظّ. فقد اعتقلتني الشرطة في طريق الخروج من سانتياغو. ما زلت أصادف الفتاة في الشارع إنها امرأة اليوم، وقد أصبحت ضخمة».

نزلنا في ضواحي سانتياغو، عند صديق قديم لعمر، يملك مؤسّسة شاحنات. اكتشف مؤخراً عقوداً من الذهب في مقبرة قام بتفتيشها سراً. ويزعم أن العقود تعود إلى أربعة آلاف سنة. «خبِّئها جيداً، قال له الجنرال، سوف أسعى لكي تعطيك الحكومة سعراً جيداً». ثم دخلنا إلى سانتياغو، أشار الجنرال إلى المنزل الذي عاش فيه والده، منزل خشبي صغير ـ كان والده معلّم المدرسة ـ وجدّه أيضاً. شعر بنفسه سعيداً ومرتاحاً في مسقط رأسه. هنا، ما من حاجة «للإستعراض».

قمنا بزيارة أحد رفاقه القدامى في المدرسة، وهو الآن صاحب كاراج. جلسنا فوق أرائك أمام المنزل نستقبل الجيران الذين انضمّوا إلينا ليتقاسموا

معنا الويسكي التي قدّمها عمر سراً. أخبرني عمر في الطريق، انه أهان، في زيارة سابقة له، هذا الصديق الذي كان سكراناً. «هذا لأنني لم أذهب لاستقبالك في المطار، أجاب صاحب الكاراج. لست ممّن يتزلّفون، ومن منّا هو الأكثر سعادة؟ أنا، استطيع أن أشرب طوال النهار إذا شئت، ولا يهتمّ أحد بي». وفي لحظة حيث لم يكن بوسع صديقه أن يسمعنا، قال لي عمر: «لو بقيت هنا لما تجاوز أفقي هذا الرواق». شعرت ببعض الانزعاج في صوته كما لو أنه يشعر بالذنب لأنه هرب.

بعد هذه الثرثرات حول الماضي، وصل النقاش حتماً إلى المعاهدة. لا يشارك صاحب الكارج خيبة أمل الجنرال فيما يتعلق بنصوص المعاهدة.

وصلت مدرِّسة مع بعض تلامذتها الكبار. تحدَّث معهم الجنرال على قدم المساواة دون تعجرف. كتبت في مفكرتي، ذلك المساء.

لم أشاهده أبداً يتكلم بشكل متعالٍ مع أحد - حتى مع ابن خمس سنين. يمزح بابتذال مع الفلاحين، لكنه يفعل ذلك أيضاً معنا. سألت التلميذة الأكبر سناً، وهي فتاة يجب أن تكون في السابعة عشرة من العمر، ماذا يتوجّب فعله إذا لم تصدِّق المعاهدة. أجابتني بدون تردّد: «أيّ شيء لا يجعلنا نرى مجدداً الدماء تسيل في الشوارع».

اتخّذ النقاش منحىً أكثر تفاهة بعد الغداء. كان يوم اثنين، لكن عمر لم يحترم التقاليد وتابع السكر. تحدَّثنا عن الجنس. لست أدري أيّ مظهر من العواطف والتفضيلات النسائية، تكلّمت عنه، إلاّ أنني أتذكرُ بأيّ حماس عبّر عمر عن عدم موافقته. ساندت عشيقته الشابة وجهة نظري فاشتكى الجنرال مبتسماً: «سوف تعكرّ السلام في منزلي». كانت سهرة مرح وسكر لم تعكّرها شكوك المعاهدة.

٢

استقبل الجنرال بعد تناول الفطور زائرين من المدينة، شاباً وأمّه.

استمع بأناة ولطافة إلى قصّتها التي لا نهاية لها. قصة محزنة وشائعة: مات الزوج حديثاً والابن بدون عمل. إن حلّ مشكلاتها هو أسهل بكثير من حلّ مشكلات السيّد بونكر. سلّمها عمر رسالتين ـ واحدة إلى المجلس البلدي يطلب منه تخفيضاً لإيجار الأم، والثانية إلى مدير معمل السكر يطلب منه تأمين عمل للفتى. رأيت هنا مثالاً واضحاً على «الديمقراطية المباشرة» التي مارسها توريخوس، وهي أسلوب جعل أعداءه ينعتونه بـ «الشعبي». وتعبير «الشعبي» هذا، يُستخدم بشكل سيء اليوم، وبشكل هجائي محقّر. (ان قاموسي، طبعة أكسفورد، المؤرخ ١٩٦٩، يعطي تحديدين لهذه الكلمة: «عضو في حزب سياسي أميركي يهدف إلى إجراء الرقابة العامة على سكك الحديد. . . إلخ» و«عضو في حزب سياسي روسيّ يدعو إلى الجماعية في السيطرة على وسائل الإنتاج».)

وصلت الطوّافة تحمل حقائبنا في الوقت المناسب. تركنا السيارة لنركب الطائرة حتى ديڤيد، حيث بدأنا، بعد محطّة قصيرة، بالبحث عن مزرعة الموز التي يتعذّر العثور عليها. كان من الصعب تمييزها من الطوّافة لأنها محاطة بمزارع اليونيتد براندس (اسم جديد تستخدمه اليونيتد فرويت لتتخلّص من ماضيها المشبوه) مما أدّى بنا إلى النزول في مزرعتين أميركيتين.

في الأولى، زعم عمر انه حطّ عمداً وطلب ان يصطحبوه إلى المدرسة حيث استقبله المعلّم برهبة، والتلامذة بحماس. تحدّث قليلاً مع الأولاد، وتفحص كتبهم. تجمّع الفلاحون أمام الباب. سألت أحدهم عمّا يجب فعله إذا لم يوافق على المعاهدة: «القتال، طبعاً» أجاب، ووافق رفيقه على ذلك ببعض التمتمات. يبدو أن الناس في هذه القرية القائمة على ملكية أميركية قد كافحوا طويلاً للحصول على المدرسة. كان كل فرد يقوم بحملة لصالح المدرسة، يعتبره الأميركيون شيوعياً، وقد أرسلوا عدداً كبيراً من بين هؤلاء إلى السجون في الولايات المتحدة، بشكل غير شرعي كلياً، لأن المزرعة ليست داخل القطاع. طلبوا، ذات يوم، من نقيب في الشرطة أن

يضرب بعض القرويين فرفض. والآن، أصبحت لديهم مدرستهم، لكن الروح القتالية لا تزال موجودة فيهم.

طرح الناس على الجنرال عدداً من الأسئلة الذكية المتعلقة بالمستقبل؛ وبالفعل، فإن المعاهدة تنصّ على أن قسماً كبيراً من القطاع الأميركي يعود مباشرة إلى پاناما، باستثناء القواعد العسكرية. أكدّ لهم الجنرال أنه لن يسمح بإقامة أي بناء خاص. وزاوية القطاع المُجاورة للحيّ الأفقر في العاصمة، المسمّى هوليوود للسخرية منه، ستصبح حديقة عامة. هناك أيضاً مشاريع لتشييد ميتم... ثمَّ أعلن: «لن نتبادل ملاّكين بيض بملاكين خلاسيين». وتقبّل الجنرال بطيبة خاطر أسئلة شعبه المباشرة، لكنه أجاب بمضض على أسئلة بعض الصحافيين. فقد أجاب أحد الذين سألوه ما إذا كان ماركسياً، «المقابلة الصحافية ليست اعترافاً. ليس من واجبي أن أطلعك على أفكاري. هل سألتك أنا إذا كنت أنت لوطياً؟» إذا كان توريخوس شعبياً، فكرَّت، فإنني أفضّل النظرية الشعبية لپاناما بدلاً من الماركسية، والنظرية المحافظة أو الليبرالية.

عودة إلى الطوافة ثم محاولة جديدة. ونزلنا مرّة أخرى في مزرعة أميركية. عندئذ فقد الجنرال الأمل من إمكانيات النزول في المكان المناسب، فقرَّر طلب سيارة بواسطة الهاتف. كان الطقس حاراً، وانتظرنا طويلاً. عندما وصلت السيارة، اندفعت نحوها جمهرة من الأولاد وارتطموا بشوشو في طريقهم متوجهين نحو الجنرال، شغوفين بالكلام معه وبلمس ذراعيه.

مشينا طويلاً في المزرعة الپانامية بين صفوف شجر الموز. قال لي أحد المزارعين في جامايكا، ذات يوم، أن زراعة الموز تحتاج إلى هندسة خاصة لكنني كنت تعباً جداً فلم استطع ملاحظة ذلك. ثم دعينا إلى مأدبة، قدَّموا لنا فيها الماء فقط، راح خلالها أحد المدرّسين السود يذكرّ الجنرال بطفولته: عندما كان في الرابعة عشرة من عمره، سُرقت درّاجته، ذهب إلى عمر، كان لا يزال رائداً في الحرس الوطني. قال له عمر إن في دائرة الشرطة

عدداً من الدراجات لا يطالب أحد بها. أعطاه رسالة ليسلّمها إلى الشرطة تسمح له باختيار أفضل درّاجة. أنهى المدرّس قصّته: «واليوم سمحت لي الظروف أن أشكرك». هل كان الرائد الشاب يومها شعبياً أم رجلاً طيّب القلب يحبّ الأولاد؟

رجعنا إلى ديڤيد على متن الطوافة صامتين مرهقين. ذهب عمر إلى الشقّة التي يملكها في إحدى أبنية المدينة، بينما ذهبت أنا وشوشو إلى الفندق. فقد نلنا قسطنا من الزيارات المبرمجة. وقرّرنا الذهاب في الصباح التالي وحدنا بالسيارة.

أتاحت لنا العودة إلى العاصمة مجال زيارة البيت المسكون. لم يكن اليوم يوم أحد. ومع ذلك، جاء صاحب البيت بينما كنا نشرب كأساً في المقهى. كان محنيّ الظهر له عين ذات حاجب متدلٍ تفرض عليه النظر دائماً نحو الأرض. أدعى أنه لا يستطيع أن يدخلنا إلى المنزل لأنه لا يحمل المفاتيح. على كل حال، لا يوجد شيء للرؤية. شبح؟ يخترع الناس دائماً هذا النوع من الأخبار حول البيوت الفارغة.

أردت أن أسأله: «ولأيّ سبب بقي مهجوراً طوال أربعين عاماً؟» لكنني كنت لا أزال آمل أن يسمح لنا بالدخول.

«لا بأس، نرغب مع ذلك أن نلقي نظرة إلى الداخل. قلت. متى يمكن ذلك؟

ـ متى ستمرّون من هنا؟

ـ بوسعنا المجيء في الوقت الذي يناسبك. لماذا لا يكون ذلك يوم الأحد.

ـ موافق.

ـ في أية ساعة من يوم الأحد؟

ـ في الساعة الثالثة.

ـ اتفقنا.

لكنني لا أضمن شيئاً».

قناعة منّا أنه لا ينوي المجيء نهار الأحد المقبل، قررّنا أن نعود دون إنذار في اليوم التالي في الساعة الخامسة.

ذهبنا في طريق عودتنا إلى المدينة، إلى السينيوريال لنشرب البونش الممتاز الذي تحضرّه فلور التي لا تزال نزاهتها وذكاؤها يخيفان شوشو.

كانت، حياة شوشو العاطفية في حالة سيئة. صديقته ـ لم أعد أعرف أية صديقة ـ حامل ولم يبقَ أمامها سوى ثلاثة أسابيع كي تلد. «الآن، بدأت تكرهني» قال شوشو. قلت: إن ممارسة الحبّ في مثل هذه المرحلة المتقدمة من الحمل يعتبر متأخراً نوعاً ما. لكنه رفض قطعاً هذه الفكرة. «لا. لا. إنها ماهرة جداً وتعرف كيف تتدبّر أمورها جيداً».

ذهبت مع شوشو قبل تناول العشاء لنصطحب شاباً وفتاة شيليين، وصفهما لي أنهما من اليساريين المتطرفين. للشاب شارب متدلٍ سموح يوحي بأنه من جماعة اليسار. كما أن الشارب القصير على الطريقة العسكرية يميز رجل اليمين. جاء شوشو لمساعدته عندما اتّهم الشاب الشيلي وهو برفقة زعيم ديمقراطي مسيحي، بأنه ضرب وجرح بعض الناس. انها تهمة ملفّقة من قبل الشرطة الخاصة. اختبأ الشاب، وعرض شوشو قضيته أمام الجنرال فأصدر هذا الأخير حكماً يليق بسليمان الحكيم. وُضع الرجل أمام خيار مغادرة البلاد إلى كوستاريكا بواسطة سيارة الجنرال الخاصة لكي يضمن سلامته أو الذهاب إلى دائرة الشرطة برفقة شوشو لكي لا يتعرض إلى معاملة سيئة. فقرّر الاستسلام، وحُكم عليه بالسجن لمدة شهر، ليس في زنزانة وإنما في شقّة يقيم فيها بعض اللاجئين الذين يهتم بهم شوشو، أي الماخور. وطوال فترة تناول الطعام في ماريسكو، حاولت زوجته أن

تقنعني أنهما ليسا من المتطرفين. لقد هربا من الشيلي في فترة انقلاب بينوشيت.

وبصدفة غريبة، كان رئيس الشرطة الخاصة يتناول الغداء في الوقت نفسه في قاعة خاصة في ماريسكو. أراد شوشو أن يعرِّفني إليه، لكن الفكرة أخافت الزوجين. «في مناسبة أخرى، قال الشاب ذو الشارب المتدلي؛ ليس وأنتم برفقتنا».

في ذلك المساء، وصف لي شوشو اعتداء في وضح النهار كان فيه شاهد عيان. فقد تعرَّض سائحان للضرب في أحد شوارع المدينة القديمة بينما كان يمرّ بسيارته. توقَّف بهدف إطلاق الرصاص في الهواء، فهرب الناس عندما رأوا مسدّسه. «لماذا لم تطلق النار بين أرجلهم؟ سألته.

- ولماذا أصيبهم بالجراح؟ لا يريدون سوى المال. إنهم فقراء».

هذه هي باناما.

في صباح اليوم التالي، توجَّهنا نحو بونتا شان (Punta Chane) مشروع فاشل من الدرجة الأولى، حصل على مساعدة من بنك أوف بوسطن. أنشئت شبكة معقدة من الطرقات، ومراكز لإنارة تقاطع الطرقات، ولوحات تشير إلى مواقع الفنادق القريبة والبنوك، لكنهم لم يضعوا بعد الحجر الأول لكل هذه المشاريع، فالطرقات، وتقاطع الطرقات، لا تؤدي إلّا إلى كوخ أو كوخين على شاطىء المحيط؛ وما من شيء يشير إلى أن الأعمال قد بدأت فعلاً. وصلنا أخيراً إلى تلال إل فالي (El Valle) التي حسب كتاب دليل أميركا الجنوبية، توجد فيها أشجار ذات جذوع مربَّعة وضفادع مذهبة. كانت نزهة جميلة، لكنها أرهقتنا من الجوع: لا أثر لأشجار مربعة ولا ضفادع مذهَّبة.

لم أرَ عمر أبداً في تلك الرحلة. تصوَّرت أنه تركني لوحدي عمداً لكي أتمكن من رؤية ما أرغب فيه. وأن أتعلَّم كيف اتعرف إلى باناما على

طريقتي الخاصة، دون تأثير أحد، وأن أقيم علاقاتي الخاصة مع الساندينيين واللاجئين الآخرين القادمين بحثاً عن الأمن في پاناما.

حصل أول لقاء لي مع الساندينيين بعد عودتي من إل ڤاللي. دعانا كميلو، وهو طبيب شاب من نيكاراغوا، أنا وشوشو لتناول العشاء، كان أخوه قد قُتل على يد جماعة سوموزا. كان شقيقه قائد حرب العصابات، يُلقَّب بالقائد رقم صفر، وانتقل هذا اللقب إلى خلفه. أخبرني شوشو، في الطريق، أن سوموزا أقسم بأن يشرب دم القائد رقم صفر، وأن كميلو يعيش الآن مع رفيقة شقيقه الپاناميَّة ماريا ايزابيل. ووعدته بألاَّ أظهر بأنني على علم بهذه العلاقة. وقال لي شوشو، إنني سأرى على الحائط صورة الشقيق الميت.

كانت الصورة هناك، لكن العلاقة بين الاثنين لم تكن تحمل أيّ سرّ. الفتاة جميلة جداً، تتمتع بذكاء حاد؛ ومع ذلك هناك تناحر، لست أدري ما سببه، بينها وبين شوشو. ربّما كان شوشو غيوراً، نوعاً ما، من الصداقة بين الفتاة والشاب الساندينى. بالإضافة إلى ذلك، وُلد شوشو في پاناما، وكان جدّ ماريا إيزابيل رئيساً لپاناما: هل أن دمه «المايا» يتجنّب الدم الأسباني الصافي؟ لم يكن شوشو على حق في التشكيك بولاء هذه الفتاة للقضية الساندينية، ربّما كانت له أسبابه لكي لا يثق بجذرها. كان على طاولة الغداء معنا، شاب سانديني آخر، يدعى روجيليو، أخصائي في الرياضيات مثل شوشو، ومتزوج من فتاة إيطالية تسمّى ليديا. وستتعقّد حياة شوشو العاطفية أكثر بسبب صداقتها لأنه سوف يتزوج فيما بعد سيلڤانا شقيقة ليديا، ويؤسس عائلة أخرى.

لم يكن هؤلاء الساندينيون لاجئينْ من قوات المقاومة ـ انهم جزء منهم. هناك مركز للساندينيين قد أنشيء في وقت سابق. والطبيب الشاب يظهر فجأة بثيابه الجديدة وربطة عنقه، ثم يسافر إلى المكسيك بمهمات سرّية. صادفته مرة في مطار پاناما. وعندما مازحته حول مظهره أجابني بجدّية

تامة: «عندما يكون مظهرك لائقاً لا يدققون بجواز سفرك».

بعد هذا اللقاء مع كميلو ورفيقته شعرت وكأنني أسير الساندينيين. وكذلك شوشو سيطر عليه الإطار العام. وفي الحقيقة، توارى عن الأنظار لمدة يومين. وعندما أعدت قراءة مفكرتي شعرت بنفسي أنني سئمت رؤية الأشخاص أنفسهم. كميلو وماريا إيزابيل، عالم الرياضيات وزوجته ليديا، والزوجان اليساريان موجودان دائماً. أين ذهب شوشو؟ ساورني الشك بأنه موجود الآن في نيكاراغوا، أو على حدود كوستاريكا يفرغ الأسلحة من طائرته الصغيرة الخاصة. كل شيء يجري وكأنني أُدفع إلى حدود ليست لي أية رغبة في اجتيازها، باسم قضية أجهلها كلياً لدرجة أنني لا استطيع أن التزم بها. لقد حذّرني عمر نفسه من هذا الموضوع. لن يكون صعباً على سوموزا أن يحمّل الساندينيين مسؤولية موتي.

هناك أسباب تجعلني شاكراً لهم، لأنني اكتشفت بفضل رفقة ماريا إيزابيل الضفادع المذهبة في إل ڤالي ـ وحتى شجرة مربّعة ـ خلال رحلة طويلة في الغابة حيث لسعتني حشرة سامة. وأدخلتني إلى البيت المكسون، وهذا أمر مهمّ بالنسبة لي. كان ذلك يوم أحد، قررنا فيه الذهاب إلى جزر سان بلاس، وبدلاً من ذلك، توجّهنا نحو المقهى المجاور للبيت المسكون، كان مفتوح الأبواب، وبعد بضعة دقائق، وصل الرجل العجوز وأوقف سيارته أمام المدخل.

«دعني أكلّمه»، قالت ماريا إيزابيل. كان يحمل المفاتيح في يده، لا يستطيع اختلاق الذرائع. ما من مخرج، خاصة وأن ماريا إيزابيل امرأة رائعة الجمال. قالت له إنني إنجليزي نزلت في پاناما مؤقتاً في طريق عودتي من مؤتمر للعلماء الروحانيين في اوستراليا. وقد وصلت إليّ أصداء تتعلّق بهذا البيت.

«ـ سخافات كثيرة...

- مع ذلك. . . »

وافق على مضض بأن ندخل إلى «قسم من البيت». أنزل مصراعاً من الفولاذ وفتح الباب الحديدي الثقيل. وها نحن داخل البيت في عتمة شبه كاملة. استخدمنا ولاّعة لكي نتمكّن من تمييز الأشياء، فلا وجود لأية إضاءة. ربّما لا يوجد أيّ شبح، إنما البيت، بالتأكيد، مسكون بالذكريات. واجهات مليئة بالپورسلين مصفوفة على طول الحائط، تتوسطها لوحات تعود إلى العهد الڤيكتوري لنساء تضع الحجابات الشفافّة الشرقيّة، تشبه نسخات ليتون (Leighton). تسرقت النظر عبر باب نصف مفتوح فاكتشفت غرفة صغيرة فيها سرير معدني، شراشفه مبعثرة، كما لو أنّ من كان فيه خرج منه لتوّه. ثم هرب منها وطواط واحد.

أشار الرجل العجوز إلى أرض البهو وسألني: «هل تعرف ماذا يوجد هنا؟».

لم أتجرأ على إجابته: «هيكل عظميّ لامرأة».

أصبح الرجل أكثر لطفاً عندما خرجنا بأمان من البيت. أخبرنا أن الأشباح كثيرة في المنطقة، لأننا كنا على طريق الذهب باتجاه بورتو بيللو. لقد دفن الأسبان الكثير من الذهب هنا، ودفنوا معه الهنود الذين حملوه. وتقاتل أرواح أولئك الهنود ضدّ كل من يحاول نبش الذهب.

لدى مغادرتنا، أشرت إليه بعلامة بالأصابع بدت وكأنها ماسونية. أجاب داعياً إيّاي يا أخي. «أنا أيضاً أناجي الأرواح لكنني مناجٍ واعٍ. انت غير واعٍ». «اعتقدت في البدء أنه يتهمني بمناجٍ للأرواح بدون ضمير، لكن ماريا إيزابيل أوضحت لي الموضوع. أراد أن يقول إنه، بعكسي، يتذكرّ كل ما يحدث له أثناء إثارة الاعصاب.

لاحظ فجأة أنه ترك باب الفولاذ نصف مفتوح فهرع لإقفاله بإحكام.

تكفّل الساندينيون، بغياب شوشو، بتنظيم زيارة لي إلى هوليوود، ذلك

الحيّ القذر من الأكواخ، الواقع على حدود القطاع الأميركي. والزيارة بدون رفقة أحد السكان تحمل الكثير من المخاطرة، لكن أحد أعضاء المجموعة يعرف من يستطيع أن يضمن سلامتنا.

إن هوليوود هي في الحقيقة تجمّع رهيب من المنازل الخشبية المتداخلة التي تعوم فوق الماء كمثل سفن غارقة. وتفوح من بيوت الخلاء المشتركة رائحة قوية تصل إلى حدود السماء، وتصب أوساخها في المياه المجاورة. وفي زاوية تخبأة امرأة عجوز تبيع الماريجوانا. ومُدمن يتتبَّع خطانا من مكان آلى آخر، يطرح علينا أسئلة لم نجب عليها، ويقترح علينا الذهاب إلى أمكنة لا يستطيع مرافقنا ولا يرغب في الذهاب إليها.

حلمت، بنوع من التعجّب والدهشة، بالمروج الخضراء المرتبَّة وساحات الغولف وبالـ ٣٥٠ كنيسة الموجودة على بُعد أقلّ من كيلومتر واحد وراء الحدود غير المرئية. فكرَّ عمر بإزالة هوليوود كلياً، وبتشييد شقق سكنيَّة مكانها، (يوجد بناء شامخ واحد على الأقل يشهد على ذلك: اجتزنا بخطى سريعة ممرّاته دون أن نصادف أحداً). لكن الجنرال تخلَّى عن مشروعه. فسكان هوليوود يتمسكون بمساكنهم التي تنضح ماءً، إنهم في منازلهم، هناك أبصر النور آباؤهم وأجدادهم. يكتفي عمر بالكلام عن «الإصلاح»، إذا ما تمَّ توقيع المعاهدة يوماً من الأيام: تجهيزات صحيَّة، مياه جارية، وكهرباء. بدا لي كل ذلك غير قابل للتحقيق؛ يكفي أن تلمس جداراً، أو تحاول أن ترمم سقفاً لكي ينهار البناء بكامله في المستنقع الموجود أمام المنزل.

قضيت ليلة مزعجة بعد تلك الزيارة لهوليوود، يلازمني شعور بالذنب. حلمت أنني تشاجرت مع المرأة التي كنت أحبها، ثم وجدت نفسي في المترو، في طريقي إلى مكاتب التايمز القديمة، شارع كوين فيكتوريا، لكي أستقيل من التحرير - أيّ حق لي لأقدم استقالتي، أما تغيَّبت بضعة أشهر إن لم يكن سنوات، وأنا مدفوع الأجر بكامله؟

٣

رجعت، في صباح اليوم التالي، إلى كولون برفقة الطبيب السانديني الشاب الذي أراد أن يزور مستشفى المدينة. فقد عكّر مزاجه حلم مزعج أيضاً في تلك الليلة، رأى شقيقه الذي قتله رجال سوموزا في الحلم، لم يوافق شقيقه على نشاطات كميلو (Camilo). يعاني الشاب هو أيضاً من شعور بالذنب، ليس أكثر جذريّة من شعوري، لأنه في مأمن والحرب الأهلية مستعرة في نيكاراغوا، لكنه يعمل وفقاً للأوامر في خدمة القضيّة.

حدّثني كميلو عن هذا الشقيق الأوسط الذي درس الهندسة في سيمنس (Siemens) في ماناغوا. حصل في السابعة عشرة من العمر على منحة وسافر إلى ألمانيا. لم يره أهله لبضعة سنوات إلى أن جاءت الشرطة للتحقق من جثة القائد رقم صفر. لم يكن لديهم أي شك أن ولدهم هو القائد رقم صفر الشهير الذي وجّه أول ضربة جدّية ضدّ استبداد سوموزا وذلك عندما خطف دفعة واحدة مجموعة من السفراء والوزراء لدى خروجهم من حفلة استقبال. وتمّ تحرير ١٤ سجيناً سياسياً أرسلوا بأمان إلى كوبا.

لم يعرف صديقي الجديد شيئاً، خلال سنوات، عن هذا الشقيق الذي غادر وهو فتيّ إلى ألمانيا. وذات يوم، صادفه فجأة في مكسيكو. وألحقه شقيقه بجهاز الدعاية في الحركة الساندينية. علم بنبأ موته من إذاعة باناما.

كنت سعيداً عندما علمت بعد وصولي إلى العاصمة أن شوشو قد عاد ـ ولم أعرف أبداً أين كان. «المزعج في شوشو، قال لي كميلو، أنه يمزج السياسة بالجنس». أصحيح ذلك أم لا، فشوشو قد تعرّف إلى صديقة جديدة، زوجة أحد قطاع الطرق وقد وُجد في المستشفى إثر عملية تصفية حساب ـ علاقة تبدو خطرة. ثم، وخلال أمسيّة غامضة مع أصدقائنا الساندينيين، ظهرت فتاة حامل ـ هل هي صديقة شوشو؟ لكنها لا تبدو مرتبطة بأحد من الحاضرين. جرى تبادل بعض النكات حول أبوّة الولد.

«ـ قتل في حرب ڤيتنام، قالت الفتاة.

ـ إذاً، انت حامل منذ سنتين.

ـ أردت أن أقول في كوريا.

ـ وهذا أقدم بكثير».

أشارت عندئذ إلى أستاذ الرياضيات روجيليو. «من يدري؟ قال ضاحكاً. هذا ممكن جداً».

تمنّيت على شوشو أن يكون صبوراً في تلك الليلة.

«بالطبع، قال لي، أنا لا أمزج أبداً السياسة مع الشرب والجنس».

٤

تتوزّع جزر سان بلاس التي لا يقل عددها عن ٣٦٥ جزيرة في المحيط الأطلسي على امتداد شاطىء داريان. يسكنها فقط هنود الكوناس الذين يعيشون في استقلال شبه تام. لا يدفعون الضرائب. يرسلون الممثلين إلى الجمعية الوطنية، وقد فاوضوا حتى على معاهدتهم التجاريّة الخاصة مع كولومبيا. يُسمح للسوّاح قضاء ليلة واحدة من اثنتين في الجزر، والأيام الباقية من السنة ـ ٣٦٣ يوماً ـ لا تُفتح أمامهم إلاّ في النهار. يتحدّثون في پاناما بإعجاب كبير عن سرطان البحر في سان بلاس؛ رغم أن ما اصطادوه لي كان قاسياً وتافهاً بدون نكهة.

إنَّ ما هو أخّاذ للغاية، وأهمّ من سرطان البحر، هنَّ النساء. فقد أثار فضول ونهم المغامرين الإسبان: كل أنف مزيّن بحلقة من الذهب وكذلك كل إذن. لم يستطع أحد أن يقول لي من أين هذا الذهب، فلا وجود لمناجم الذهب في پاناما. حتى في زمن الإسبان حيث كانت قوافل الذهب تسير عبر پاناما إلى بورتوبيللو، كان الذهب يُنقل من البيرو على طول شاطىء المحيط الهادىء.

بالإضافة إلى هذه الوفرة من حلقات الذهب، وطريقتهم في ارتداء الملابس التي تذكّر بمصر القديمة، كان من الممتع جداً مشاهدة النساء. فالفتيات ذوات الشعر القصير هنّ متزوجات، وذوات الشعر الطويل لم يتزوّجن بعد. والفارق القائم بينهن يُعبّر عنه في استخدام الآلات الموسيقية أيضاً، عندما تقوم بعض المتزوجات بالرقص لنا، بسعر محدود ومعتدل جداً، تنفخ غير المتزوجات في المزامير. وتساهمن في اقتصاد الكوناس (Cunas) بتطريز مربعات من القماش تُسمّى مولاس (Molas) لتزيين مقدّمات الصداريّات. كنت ذلك اليوم برفقة كميلو وليديا زوجة روجيليو. اختارت ليديا التي كان عيد مولدها قطعة من قماش مولاس (Molas) أهديتها إيّاها. سُرقت منها بعد أيّام معدودة في ظروف غريبة ونموذجية في الحياة البانامية.

زارني شوشو عند المساء. أخبرني أن الجنرال عمر يريد إرسالي إلى واشنطن بعد خمسة أيام في عداد الوفد البانامي للتوقيع على المعاهدة التي انتهوا من تحديد بنودها بعد هذه السنوات العديدة. زعمت الميامي هيرالد الصباحيّة أنّ هذه البنود لا تختلف بشيء عن بنود الصيغة الأولى التي وضعت عام ١٩٦٧، قبل أن يستلّم توريخوس السلطة. لكن ذلك خطأ بالمطلق ربّما كان ذلك محاولة من الأميركيين لإثارة تحريض داخلي معادٍ للجنرال. وتقضي المعاهدة الجديدة بانتقال مباشر إلى الجمهورية البانامية، لجزء من الأرض أكبر بخمسين مرة من ذلك الذي كان ينصّ عليه المشروع الأولي. صحيح أن القواعد العسكرية الأميركية ستبقى حتى عام ٢٠٠٠: فقط في هذا التاريخ، تصبح القناة بكاملها ملكاً لپاناما. لكن القطاع يزول مباشرة باستثناء هذه القواعد.

لم أشعر أبداً بالرغبة في السفر إلى واشنطن. حجزت بطاقتي للعودة. فقد حان الوقت بالنسبة لي للرجوع إلى فرنسا، واستعادة عملي الطبيعي الحقيقي. قلت لشوشو أن ليس لديّ تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة ـ

ـذبة بـارّة، لأن ذلك ليس السبب الحقيقي. «لا اهميـة لذلـك، ستحصل لى جواز سفر ديبلوماسي پانامي.

ـ لا أريـد أن أكون مـرغماً عـلى العودة إلى هنـا لكي استقلّ الـطائرة إلى مستردام.

ـ لن يكون ذلك ضرورياً. سيحجز لـك الجنرال مقعـداً في الطيران من اشنطن إلى باريس عـلى متن طـائـرة الكـونكـورد». أخـبرني أن الجنـرال يتعـرّض لبعض الهجمات لأنّ المعاهدة لا تستجيب لكل الآمـال. فقد تـوجّه عمر إلى الطلاب قائلاً: «إنني أحـاول التقدم بقـدر المستطاع، فـإن لم يكن لديّ دعم التقدميين فماذا يمكنني أن أفعل أكثر من ذلك؟»

وافقت. «إذا كان الجنرال مصرّاً على ذلك حقاً.

ـ إنّه مصرّ فعلاً».

ذهبت، ذلـك المسـاء، إلى المسكن المؤقّت لامـرأة، هـي كـاتبـة نيكـاراغويـة، عانت من التعـذيب الشديـد على أيـدي حراس سـومـوزا. كانت قد أنجبت طفلاً في المساء الفائت، دون مشكلة. متحفّظة في كلامها خـوفاً من انعكـاس نتائـج ذلك عـلى عائلتهـا، ويمكن أن نقرأ عـلى وجهها المعذّب المضطرب إلى أيّ حدّ ترغب في نسيان الماضي. لكن أناساً آخـرين كـانوا في الغـرفة، وقـد عانـوا أيضـاً من التعـذيب، بـدوا أكـثر استعـداداً للكـلام. روت لاجئة أرجنتينيـة قصّة التعذيب الذي تعرّضت لـه بواسـطة الكهرباء. وأخبرت فتاة أخرى قادمة من الأرجنتين أيضاً كيف أدخلوا حربةً في مهبلهـا. وتحدّث آخـر من البيرو عن طـريقـة طـرده من البـلاد، وروى شخص من نيكـاراغوا كيف تخلّص من كمـين نصبته لـه الشرطة. كـم من الناس القادمين من بلدانٍ أميركية ـ لاتينية ـ كالأرجنتين والشيلي ونيكاراغـوا والسلڤـادور ـ أصبحت پانـاما، بفضـل الجنرال، ملجـأً أميناً لهم؟ لم يكن الوضع نفسه أبداً في ظل حكم عائلة أرياس.

٥

عانيت جداً من نتائج تفتيشي عن شجرة مربّعة في غابات إل ڤاللي، منعني الحكاك في كاحلي عن النوم كل تلك الليالي. ثم ذهبت، بناءً على نصيحة شوشو، لاستشارة طبيب أسود شاب في ثكنة الحرس الوطني. أعطاني سائلاً ومرهماً وبعض الحبوب، وقال لي إنني تعرَّضت للسعة حشرة صغيرة تسمّى شيترا. تعرفها الخنازير المتوحشة جيداً. ذهبت، بعد ذلك، مع شوشو إلى المطار لاستقبال أحد المكسيكيين الذي كان يسعى لإنتاج فيلم مشترك معادٍ للعسكرة. تلقّى عروضاً للمشاركة من المكسيك وكولومبيا وفرنسا وكوبا، لكنَّ پاناما وحدها كانت مستعدة لتقديم بعض فرق الجيش لفيلمه.

اعتقد أن حيويَّة شوشو المفرطة شغلت بال المخرج. لم يكن معتاداً على المفاوضة مع حارس هو شاعر وبروفسور في الوقت نفسه. بدا ساذجاً نوعاً ما ومحيَّراً.

كان كميلو أيضاً في المطار مرتدياً أفضل ثيابه، وفي دوره الكامل كطبيب شاب. سيذهب لتنفيذ مهمة سرِّية ساندينية في المكسيك. أعطاني، قبل بضعة أيام، رسالة تحمل عنواناً باريسياً طلب مني إرسالها بالبريد لدى عودتي إلى فرنسا. اضطرب عندما عرف أنني سأمرّ عن طريق واشنطن. «يجب ألاّ تضعها في أيّ حقيبة. سيفتشون حقائبك حكماً في واشنطن. عدني بأنك ستحتفظ بها دائماً في جيبك، حتى أثناء الليل». فوعدته بذلك.

وصل رجل يفتش عن المخرج المكسيكي الذي كان يستمع إلى حديثنا بدهشة كبيرة. والرجل برفقة امرأة رهيبة ذات شعر مصبوغ باللون الأشقر.

استطعنا التخلّص، في ذلك اليوم؛ لكن الناس في پاناما لا يكتفون بالظهور مرة واحدة. فكما يحصل في مسرحية تلعب فيها مجموعة صغيرة، كان الممثلون أنفسهم لا يتوقفون عن الظهور في أدوار مختلفة. يتوجَّب عليَّ

أن ألتقي، في تلك السهرة الغامضة، بلاجىء من البيرو، لكن الموعد ألغي في اللحظة الأخيرة، واقترحت على شوشو أن يدعو إلى العشاء زوجة كميلو لأنها ربّما تشعر بنفسها وحيدة. ولسبب ما، لم يتمكن شوشو من العثور على منزل كميلو حيث سبق وذهبنا مراراً معاً؛ ولسبب أكثر غموضاً أيضاً، كان مقتنعاً أن ماريا إيزابيل ستتصل بنا هاتفياً إلى منزل سفير پاناما في فنزويلا - إلاّ إذا كان العكس، سفير فنزويلا في پاناما؟ وأكدّ شوشو أن السفير سيحضر لنا وليمة فنزويلية نموذجية، مهما يمكن أن يعني ذلك. لم تتصل ماريا إيزابيل طبعاً،وجاءت الفنزويلية الرهيبة (هل توقّع شوشو ذلك؟) ولم يستضفنا السفير على العشاء. اعتقد أنه تساءل ماذا نفعل عنده. غادرنا المنزل، فالتقينا على المدخل بالمخرج المكسيكي الذي بدا مفاجأً جداً برؤيتنا. وأخيراً، تناولنا طعام العشاء، أنا وشوشو، في الفندق الذي أقيم فيه، وكان حساءً من الدجاج.

مرّت هذه الأيام الأخيرة في پاناما بسرعة، وفي غموض متزايد دائماً. لم أرَ عمر منذ بضعة أيام - جرى كل شيء كما لو أنه قاد مسبقاً سير الأحداث، وأن الفوضى الحالية، مع المخرج المكسيكي، والفنزويليّة الرهيبة، والخلل في ذاكرة شوشو، وُجدت بسبب غيابه. كان عليَّ أن استيقظ باكراً في اليوم التالي، لأن عمر أراد أن يرسلني بالطائرة لزيارة مزرعة كبيرة لتربية الجواميس (شيء غريب في پاناما) في قرية كوكليزيتو (Coclesito) الجاثمة على سفح الجبل. أسّس عمر نفسه هذه الاستثمارة على أثر هبوط اضطراري في الطوافة، هبوط سمح له برؤية مدى عزلة وفقر سكان كوكليزيتو. فقد جرف فيضان قويّ ملكياتهم الصغيرة، وقُتل ابن زعيمهم. لم أفهم أبداً ما الذي أثار فكرة تربية الجواميس في رأس الجنرال.

وصلت ماريا إيزابيل تبحث عني. اشتكت بمرارة من شوشو الذي أفشل موعدي مع اللاجىء من البيرو، نهار أمس. بالله لماذا ذهبنا إلى منزل السفير الفنزويلي؟ هل أن شوشو أراد أن يرى مرّة أخرى تلك المرأة الرهيبة؟

كان شوشو ينتظر في المطار وصول الطائرة العسكرية التي طلبها، وبرفقته مجموعة من الطلاب وأساتذة من غواتيمالا، والإكوادور، وكوستاريكا. عرفت أن رحلتنا إلى المزرعة هي محض تربوية. انتظرنا طويلاً لكن الطائرة لم تصل. يبدو أن الطيار، وهو ضابط في سلاح الجو، لم يرق له تلقّي الأوامر من رقيب بسيط. وبعد ساعتين أرسلنا برقية إلى سكرتير الجنرال. يصبح الوقت متأخراً بالنسبة للجواميس، فعادت المجموعة بكاملها إلى وزارة الثقافة حيث انضمّ إلينا الزوجان المتطرفان وروجيليو، وعالم الرياضيات السانديني. اضطررنا لمشاهدة شريط ڤيديو للرقص الفولكلوري اليانامي. وأنا أكره الرقص الفولكلوري منذ نعومة أظفاري، حيث شاهدت موريس دانس (Morris dances)يقوم بها الرجال كل اثنين معاً. (لسبب غامض وغريب أن هذه الرقصات تروق، بشكل خاص، لزوجاتهم المرتديات فساتين الحرير الصقيل المشتراة من مخزن ليبرتي).

وعلى سبيل الاستدلال، استدعي شوشو لمهمة عاجلة. يبدو أن أستاذاً غواتيمالياً لديه توصية من عميد جامعته (نفس الشخص الذي شرب حتى السكر مع شوشو في ديڤيد) قد اعتقلته الشرطة قبل بضعة أيام، بتهمة ترويج دولارت مزوّرة في فندق كونتيننتال.

بعد الاجتماع، دعانا السنيور إنغرام (Ingram)، وزير الثقافة، لتناول الغداء، أنا والزوجان اليساريّان المتطرفان وماريا إيزابيل. وفيما نحن نشرب الكوكتيل، وصل شوشو برفقة مدير جامعة پاناما والأستاذ الغواتيمالي الذي خرج لتوه من السجن: رجل جميل طويل القامة، أشقر الشعر، أصله مزيج أميركي ـ ألماني، يبدو أن الأحداث قد تجاوزته. لم يتوقع أن ينتقل مباشرة من الزنزانة إلى الحفلات، وتناول طعام شهيّ في أفخم مطاعم پاناما ـ كما أنه لم يفهم معنى وجود كاتب إنجليزي في هذه الأماكن: يبدو أنه قرأ بعضاً من كتبي وهو حذر تجاهي. أخبرنا أن الشرطة قد هدّدته باستخدام العنف. كان في الزنزانة مع سبعة سجناء آخرين، من بينهم

واحد قتل أبيه، واثنان من مرتكبي جرائم اغتصاب ـ أحدهما قتل الفتاة بعد اغتصابها. إلاّ أنهم كانوا لطفاء معه ووضعوا كل تجربتهم المهنية في خدمته لإيصال رسالة إلى الخارج تحمل توصيةً من عميد جامعة غواتيمالا. قرّر الجنرال بعد قراءتها أن هناك مؤامرة تحيكها الشرطة الغواتيمالية ضدّ أستاذ معروف بآرائه اليسارية. فأمر بإطلاق سراحه مباشرة، لكن بشكل سرّي بواسطة شوشو، ورأى من الحكمة إعادة الأستاذ إلى غواتيمالا بعد أيام معدودة من الراحة. لكن سلوكه فيما بعد جعلني أشك ببراءته إلى الحدّ الذي يزعم.

استمر النهار على الوتيرة نفسها فكان أكثر الأيام التي قضيتها في پاناما فوضوية. لا شيء يسير أبداً كما كان متوقّع. ولم ألبث أن شعرت بنفسي تائهاً كمثل الأستاذ الغواتيمالي والمخرج المكسيكي. قرّرت وشوشو أن نتناول طعام غداء أفضل من شوربة الدجاج. «هل يزعجك إن اصطحبت معي الفتاة النحيلة (زوجة قاطع الطرق)؟ سأل شوشو. أريد أن أضاجعها هذه الليلة». وذهب إلى الهاتف. سمعته يقول لها إننا سنكون أمام المبنى الذي تسكن فيه بعد خمس دقائق.

قمنا ببضعة دورات حول المبنى ولم يأتِ أحد. دخلنا إلى أحد المقاهي حيث كانت مجموعة من الرجعيّين يشربون الخمر وينتقدون الجنرال. تدخّلت معهم لأواجه تهجماتهم بينما ذهب شوشو إلى الهاتف. وعاد مسدَل الأذنين. أجابه صوت امرأة مجهولة أن الفتاة نائمة، لكنه لم يتمالك نفسه عن السؤال مع من.

ذهبنا، بعد ذلك، لتناول طعام العشاء مع روجيليو وليديا، ولم يتأخر الأستاذ الغواتيمالي عن المجيء مجدداً ـ وافق الساندينيون على إقامته معهم، بعد أن رفض السكن وحده، خوفاً من رجال الشرطة. وهو ينوي العودة إلى غواتيمالا بعد يومين ويتوقع حضور أكبر عدد من الناس في استقباله على

المطار، في حال «اختفى» دون معرفة أحد. سألته إذا كان العميد سيكون هناك. يعتقد أنه سيكون هناك.

التقتيت في المصعد الذي يصل بي إلى غرفتي، بأحد ضباط الحرس الوطني، فألقى التحية عليّ بشكل ودّي. أخبرت شوشو فيما بعد لأنه حذر تجاه بعض الضباط.

«عرَّف نفسه بالكولونيل دياز (Diaz) » قلت لشوشو الذي طمأنني: «إنه الأفضل بعد الجنرال».

مضت خمس سنوات لم أرَ فيها دياز. أصبح الآن مسؤولاً عن الأمن، وقد مات الجنرال.

٦

حلَّقت بنا الطائرة في اليوم التالي إلى كوكليزيتو، وهي تحمل بعض الطلاب، والأساتذة. كان المدرج بالكاد كافياً لتحطّ الطائرة فيه. والطقس حار جداً. لم يكن من الممتع رؤية الجواميس، كما هي عادة. وقد بلغت الوحول في القرية حتى كواحلنا. والغابة الغضّة تحيط بنا من كل صوب. استحمَّ الطلاب والأساتذة في النهر، وكذلك بعض الجواميس. بدا النهر مجدداً على وشك الخروج من مجراه. قدَّمت لنا المزرعة طعام غداء شهيّاً، ولكن، لا وجود إلّا للماء لإرواء عطشنا.

ألقيت نظرة خاطفة على كنيسة القرية. بناء مدمرٌ، تحوَّلت قبَّته إلى خمّ للدجاج. استحضرتني العبارة التي قالها الجنرال بصدد المقابر المهملة ـ هنا، كانت توجد كنيسة مهملة، وراودتني أفكار غير مستحبَّة بالنسبة للأسقف ماك غرات في پاناما. هل كان يتحمل مسؤولية مثل هذا العدد من الكنائس على أراضي الجمهورية التي لم يخصص زيارة واحدة لقرية بنى فيها الجنرال بيتاً صغيراً؟ لم يأتِ أيّ كاهن طوال السنة الماضية. فتوجَّه الناس نحو الجنرال وليس نحو الكنيسة لكي يحصلوا على بعض المساعدات.

سـألت عن عدد أيـام المطر سنـوياً. «لا يسـأل المرء عن عـدد أيـام المـطر، أجابني بعضهم، بل عن عدد الأيام غير الممطرة. والجواب أربعة أيام».

تناولنا العشاء، ذلك المسـاء، بعد عـودتنا إلى العـاصمة، في شقّـة أحد اللاجئين البرازيليين. تأكدت شكوكي جزئياً فيما يتعلق بشوشو، لأنه وصل برفقة الفنزويلية الرهيبة - هل وقع، مرة أخرى، ضحيّة قلبه؟ كـان من بين المـدعـوين أيضـاً جنـرال منفيّ من البـيرو، الـرئيس السـابق للحـزب الاشتراكي. أخبرني أنه كان تحت إمرته، في البيرو، مئة دبّابة هجوميّة، وكان باستطاعته القيام بانقلاب بسهولة: فضّل التخلّي والذهاب إلى المنفى بـاسم «الشرف العسكـري». سررت لأن «الشرف العسكـري» لم يـوقف عمـر في عام ١٩٦٨ - وإلاّ لما بقي الكثير من أمثال هؤلاء اللاجئين.

مضى الوقت بسرعة. وكمثل السنة السـابقة، كـان يتنازعني الشـوق إلى العودة وحزن السفر. حجز لي عمر، كما وعد، على متن طـائرة الكـونكورد بـطاقـة سفـر، واشـنطن - بـاريس، واهتمّ بجـواز سفـري الـديبلومـاسي البانامي. وحتى الساعة، لا يزال متعذراً الوصول إليه لأنه منعـزل في منزل روري غونزاليس يكتب خطاب توقيع المعاهدة.

التقيت به أقلّ ممّا في إقامتي السابقة، لكن حبّي لـه ازداد كثيراً. بـدأت أقـدّر ما أنجـزه، والمخاطـر التي واجهها لكي يحيي حلمـه بأمـيركا وسـطى ستكون اشتراكيـة دون أن تكون مـاركسية، مستقلة عن الـولايات المتحـدة دون أن تشكل تهديداً لها. إن مشاعري تجاهه هي مشاعـر تجاه معلّم وليس تجاه صديق. تعرّفت من خلالـه، وحتى أثناء غيـابه، إلى بعض مشكـلات أميركا الوسطى.

ذهبت أنا وشوشو، عشيّة سفرنا، لاستقبـال غبرييـل غارسيـا ماركيـز في المـطار، وهو العضـو الأجنبي الآخر في الـوفد البـانامي. كـان المطر حبـالاً مشدودة ذلك اليوم فتأخرت طائرته كثيراً. تركنا له رسـالة نعلمـه فيها أننـا

بانتظاره في المطعم البيروني پيز دي أورو (Pez de Oro) وما كدنا نجلس أمام كأسين من بيسكو سورز(*)، الشراب الذي أحببته في الشيلي (في أيام الليندي)، حتى رنَّ جرس الهاتف. الجنرال يطلبني بسرعة.

وجدته في غرفة صغيرة في منزل غونزاليس منكباً على مخطوطة هي خطابه في واشنطن. ما من حاجة هنا لاستخدام موظف. أصبح خطّ الجنرال غير مقروء، كمثل خطّي، بسبب كثرة التصحيح الذي أضفناه. «إنني متوتّر الأعصاب، اعترف الجنرال، لكن كارتر هو أيضاً كذلك، وهذا ما يعزّيني نوعاً ما». وأخبرني قصة جنرال بوليفي (لماذا بوليفي؟) في لحظة ذهابه إلى المعركة؛ رأى نفسه يسير بخطى مرتجفة متردِّدة، فتوجَّه إلى رجليه قائلاً: «انتظرا قليلاً، يا ابنتا الزانية، هذا ليس شيئاً بعد بالمقارنة مع ما ستشعران به بعد قليل».

تأسَّف جداً لأنّ كارتر دعا ديكتاتوريي أميركا الجنوبية لحضور جلسة توقيع المعاهدة ـ الأرجنتيني ڤيديلا، والشيلي بينوشيت، والبوليڤي بانزر، والبارغواني ستروسنر، ورئيس غواتيمالا. كان يفضلّ حضور رؤساء الدول المعتدلة فقط الذين ساندوه في مساوماته الطويلة: رؤساء كولومبيا وفنزويلا والبيرو. أصرَّ كارتر على دعوة كل الزمرة باستثناء كاسترو الذي كان يسرّ عمر أن يلتقي به بسبب نصائحه الحكيمة بالتروّي على الأقل ـ المغيظة في الحقيقة، لكنها انتهت بأن أدَّت إلى المعاهدة. اعتذر النيكاراغوي سوموزا بسبب الحرب الأهلية في بلاده، وستكون هاييتي ممثَّلة بسفيرها هناك.

قرأ لي عمر خطابه. وطرح بعض الأسئلة حول القسم الأول كما يريده ويتصوَّره. شجعته لكنني لم أكن أكيداً أنه سيتمسك بهذا النصّ الرائع بعد وصوله إلى واشنطن. أضفت، حتى جملة مني، لكني نسيت مع الأسف حول ماذا كانت تلك المساهمة الشخصية في التاريخ. كان باستطاعتي أن

(*) شراب مسكر معروف في الشيلي والبيرو.

أشير إلى المكان الأفضل لإدخال فكـرة جيدة لم يعـرف أين موقعهـا المناسب فتخلّى عنها.

إنني أتصوّره بدقّة منكمشاً على نفسه، منهمكاً وتنقصه الثقة. إنها الصور التي لا أنساها عن عمـر: الشاب المبتـدىء في فنّ الكتابـة مكتشفاً صعـوبة اختيار الكلمات، ابن البلاد عائداً إلى القرية يتـأرجح في كـرسي هزّاز أمـام مدخل الكاراج عند ميكانيكي من سانتياغو كـان رفيقه في الـدراسة؛ بقيت صورة أخرى أيضاً في ذاكرتي، بعـد ثلاث سنـوات، صورة رجـل متعب، ثمل بعض الشيء، ينام على كتف عشيقته الشابة التي أنجبت له ولداً.

انتهت إقامتي في بانـاما. تنـاولت الغداء مـع شوشـو وروجيليو وليـديا. غادر البروفسور الغواتيمالي إلى بلاده ومعه القطعة المطرزة التي قـدَّمتُها هـديّة إلى ليديا في جزيرة سان بلاس، وقصة مقابلة الضيافة التي توفرت له بسرقة حقيرة.

٧

في اليوم التالي، وبينما كنّا نحلّق فوق كوبا، أرسل عمـر برقيـة بواسـطة الراديو إلى كاسترو الذي رفض كارتر أن يدعوه إلى واشنطن. وعمـر مخلص لأصدقائه حتى وإن لم يكن يشاركهم كلياً خياراتهم السياسيَّة.

حطت الطائرة في المطار العسكري في واشنطن في الساعة الثامنة في ليـل مظلم جداً: حـرس الشرف التابـع للمارينز، أضـواء التلفزيـون، سكرتـير الدولة ڤانس الذي ينتظر عمر على طرف بساط أحمر ضيّق طويل، النشيدان الـوطنيان اللذان لا ينتهيـان، فيما بقينـا نحن أعضاء الـوفد مسمَّـريـن على البساط ـ لم أتصوَّر نفسي أبداً داخلاً، بهذا الشكل، إلى الولايات المتحـدة، لأنهم لم يمنحوني، ولفترة طويلة، سوى تأشيرة دخول لثلاثة أسابيع فقط.

نـزلت في الشيراتـون، في شقّة فخمـة، بـ ٩٠ دولاراً يوميـاً، مع غـرفة

استقبال فسيحة وفوق المكتب ملصق من رسم شاغال يمثّل سايروس ڤانس مع مدينة تشابه شقتي في أنتيب. ذكّرني منظر اللوحة بعزلتي وجعلني أتحرّق شوقاً للعودة إلى فرنسا. كان عمر وشوشو بعيدين، في سفارة باناما. تساءلت ما إذا كنت سأراهم، إلاّ من بعيد، في القاعة التي سيجري فيها توقيع المعاهدة. نزلت لكي أسرّع قليلاً نقل حقائبي، وبدا لي غريباً ألاّ أسمع من حولي سوى من يتكلّم الأميركية فيما اعتدت على الأصوات الأسبانية. نمت، في ذلك المساء، تعيساً، دون أن أنسى رسالة كميلو التي وضعتها في جيب ثياب النوم. حاولت الاستماع إلى الراديو ـ كان الحديث عن موضوع الاجهاض. انتقلت إلى محطة أخرى: كان هناك نقاش حول تغيير المجارير. من الأفضل أن أنام.

سارت الأمور، بشكل أفضل، في اليوم التالي. غداء مع غارسيا ماركيز في السفارة البانامية ومع وجوه مألوفة. وكان عمر يتمتع بمزاج جيد جداً، بعد نقاش مع كارتر. سأله كارتر كيف يتعامل مع كل هؤلاء الديكتاتوريين القادمين إلى واشنطن؛ أجاب عمر: «يكفي أن ترفض اعطاءهم السلاح».

هل على إثر ذلك اللقاء، انهار عمر وبكى بين ذراعي زوجته ـ كذا وصف كارتر المشهد في مذكراته ـ أما في اليوم التالي، بعد احتفال التوقيع مباشرة حيث بدا على أحسن ما يرام؟ لم أستغرب عندما قرأت أن عينيه اغرورقتا بالدمع في اللحظة التي رأى فيها حلمه المزمن على وشك أن يتحقّق. كنّا نكتشف دائماً لديه حساسيّة مستمرة مع الحزم، تجاه صديق وضع فيه ثقته (كارتر واحد من بينهم)، أو بمساعدة عدد كاف من كؤوس الويسكي بلاك ليبل. عندئذ تنفجر حساسيته للحظة عابرة للكشف عن نفسه دون تحفّظ ـ هكذا عندما سألته ما هو حلمه الأكثر إلحاحاً، أجابني دون تردّد: «الموت». اعترف لي شوشو بعد عدة سنوات انه رأى الجنرال يبكي في أكثر من مرّة، وربّما يكون أحد الأسباب التي جعلتني أحبّه هو الغياب الكامل عنده للماشو («Macho») اللاتيني.

قال لي عمر إنه متفاهم كلياً مع جوردان، مستشار الرئيس، وكذلك مع نائب الرئيس مونديل الذي يملك ملعباً للبيسبول مُهدى من قبل لاعب بانامي شهير أثناء مروره في الولايات المتحدة. وأعلن منديل، على سبيل المزاح، أنه فكّر بتقديمه هديّة للجنرال، لكنه اعتبر أن ليس من الحكمة حمله إلى البيت الأبيض، خوفاً من اتهامه أنه يريد اللجوء إلى سياسة الهراوة.

كانت تلك المرحلة الثالية لإنهاء المعاهدة التي سيتم التوقيع عليها في اليوم التالي. جرى عرض الصياغة النهائية على مجلس الممثلين، ولم يقدّر الجنرال الطريقة التي سيشوّه بها مجلس الشيوخ النصّ بعد التوقيع عليه. بالنسبة إليه كما بالنسبة إلى سائر الپاناميين، سيضع التوقيعان في أسفل الوثيقة حداً نهائياً لكل المسألة. لكن اعادات النظر الهامة التي قام بها مجلس الشيوخ فيما بعد أخذت طابع الخيانة. إننا نفهم بصعوبة، بالواقع، حتى في أوروبا، كيف يتمكّن زعيما دولتين من الاجتماع بشكل علنيّ لكي يوقّعا على معاهدة حصلت على موافقة المجلس، ثم يجدان أن المجلس قد غيرها فيما بعد ـ وكل هذا الموكب، من الديكتاتوريين والوفود، لم يقم بشيء حاسم ونهائي؟

وجرت مظاهرتان، ذلك المساء، في شوارع واشنطن، الأولى ضدّ المعاهدة، والثانية ضدّ حضور بينوشيت. اقترح عليّ غارسيا ماركيز أن أرافقه إلى المظاهرة المعادية لبينوشيت، لكنني اضطررت لرفض اقتراحه، على مضض، لأنني لا أثق بالأميركيين للتمييز بين جنرال من أميركا اللاتينية وجنرال آخر.

أقيم حفل استقبال ضخم، أثناء المساء، في صالات استقبال منظمة الدول الأميركية، على شرف رؤساء الدول والوفود، كانت هناك طاولة متعددة الأصناف تكفي لألوف المدعوين. الطابق الأول والطابق الأرضي مليئان بالحضور، اقتادتني الفتاة البانامية الجذابة التي أوكلت إليها مهمة

مرافقتي إلى الطابق الثاني حيث لا وجود للآكل والمكان فسيح للسير. فقد كان الحظّ أوفر هناك للتلاقي على الأقل مع واحد من الديكتاتوريين: لن يجهد هؤلاء أنفسهم للوصول إلى طاولة الطعام. حضرتُ ما سأقوله لبينوشيت إذا ما تسنّى لي اللقاء به: «إنّ بيننا، على ما أعتقد، علاقة مشتركة... الدكتور ألليندي».

لم أرَ بينوشيت أبداً، لكنّ ڤيديلا كان في القاعة، وكذلك رئيس غواتيمالا، الإثنان باللباس المدنيّ لإضفاء الطابع الديمقراطي عليهما. وقفت على مسافة بضعة أمتار من ستروسنر، رئيس غواتيمالا، الذي يرتدي هو أيضاً ثياباً مدنيّة. رأيته، لآخر مرة، في عام ١٩٦٨ في الأسونسيون، يوم العيد الوطني. كان بزيّ الجنرال واقفاً على المنصّة لكي يحيّي الجرحى الذين نجوا من الحرب التافهة مع بوليڤيا. يمرّون أمامه على مقاعد مزوّدة بدواليب، بينما الكولونيلات يقفون في عرباتهم مستقيمين يشبهون أوتاد لعبة البولينغ. أما الآن، وهو بدون زيّه العسكري، فيذكّر، أكثر من أيّ وقت مضى، بمدير بيير ستوب (Bierstube) الأحمر الوجه. وهو محاط بمجموعة صغيرة متذلّلة تبدو وكأنها متعلّقة بشفاهه، لكن ذلك ربّما لم يكن سوى تمثيلية هزليّة، وهم في الحقيقة الحراس المكلفون بحمايته. فكرت لو أني كنت مسلّحاً، ومن طبع انتحاري، فما من شيء أسهل من تخليص العالم من أحد طغاته.

مرَّ بالقرب منّا رجل كان يتّجه نحو ستروسنر فاستوقفته رفيقتي وراحت تعرفنا إلى بعضنا: «إنه أحد وزراء الجنرال ستروسنر، هل استطيع أن أقدّم لك ـ مدَّ كل منّا يده بتهذيب ـ السيد غراهام غرين». تراجعت يد الوزير تاركة يدي تتجه نحوه في الفراغ. «لقد رأيت الباراغواي، ذات مرّة»، قال بصوتٍ غاضب قبل أن يلتحق بجنراله. لم أتمالك نفسي عن إبداء بعض الاعتزاز الذي شعرت به يوم نشرت في هاييتي مذكرة للدكتور

دوفالييه تحمل هذا العنوان باللغتين الإنجليزية والفرنسية: «سقط القناع عن غراهام غرين».

إن جميع الناس الذين توفّرت لي مناسبة مصادفتهم، في هذا الاجتماع الهائل لدول أميركا اللاتينية، باستثناء وزير ستروينسر، كانوا لطفاء وودودين بصورة غريبة. إن كاتباً يسافر خارج بلاده لا يتوقع مظاهر تعاطف. فعمله يثير أناساً أكثر من الذين يرضيهم. وإن كاتباً يتدخل في كتابة ملاحظات عن بلد لا يملك سوى معرفة تقريبية عنه، لديه الكثير مما لا يرضي الذين ولدوا فيه. كنت سعيداً، ذلك المساء، إذ التقيت بأناس مكسيكيين أعجبهم كتابي «السلطة والمجد»، وببعض الأرجنتينيين الذين أعجبهم «القنصل الفخري».

في صباح اليوم التالي، تلقيّت مخابرة من أسقف پاناما. اتفقنا مع المونسنيور ماك غراث أن نذهب سوية إلى توقيع المعاهدة. حدّثني في السيارة، عن صلاة كتبها خصيصاً للمناسبة، في حال طلب منه افتتاح الاحتفال. وصل إلى حدّ تلاوتها على مسمعي، ولم أستطع إلاّ أن أفكر بتلك الدجاجات، في قبّة الكنيسة المهدّمة، التي لم يكلف نفسه عناء زيارتها. وبالواقع، لم يطلب أحد منه تلاوة أية صلاة. عندئذ بدا لي الأسقف كمثل رجال الكنيسة أولئك اللطفاء الذين لا يتغيّر صوتهم أبداً، والذين يعرفون كيف يوازنون مسبقاً الرسالة التي ينوون نقلها. وكنيسة كوكليزيتو تابعة لنفس بلد الأسقف ولكنها ليست من العالم نفسه. كان برفقة الأسقف رجل علماني ينسجم مظهره الجسدي مع اسمه: كويغلي. هذا اسم استطيع أن استخدمه، يوماً ما، في قصة لا يعرفها إلاّ الله.

٨

كانت لإبرام المعاهدة مظاهر إنتاج ضخم. فقد توزّعنا في كتل قومية. پاناما إلى جانب تجمع مجلس شيوخ الولايات المتحدة، وفنزويلا في الطرف

الآخـر. كان الـوفد البـانامي يتـألف من مزيـج يثـير الفضـول، لست أنـا وغارسيا ماركيز عضوين فيه فقط، إنما وبشكل مبرّر أكثر، والدة طالب قتله المارينز في الانتفاضات الواسعة التي جرت في عام ١٩٦٤.

لم أرَ مثـل هذا الملصق منـذ «جولـة العالم في ثـمانين يـوماً». فكـل هـذه القـرى جعلتها مـألوفـة، أعداد مصـورّي التلفزيـون الوفـيرة، والصفحات الأولى العـديدة في الجـرائد، وكـل هؤلاء الممثلين ـ لم يكن ينقص الحضـور سـوى اليزابيت تـايلور. قبل أن تتخـذ الوفـود أمكنتهـا المعـدّة لهـا، رأينـا كيسينجـر ينتقل من مجمـوعة إلى أخـرى في القاعـة الكبيرة التابعـة لمنـظمـة الـدول الأمـيركيـة، وعـلى شفتيـه بسمتـه الشهـيرة عـالميـاً. وفـي الصف الخـامس أمامي، رأيت نلسـون روكفلر يبدي حـركات صـداقـة لليـديـبرد (Ladybird) كـما لـو أنهما في حفلة راقصـة، ويتبـادلان الحـديث بـين كـل رقصتين. كان الرئيس السابق فورد في الصف نفسه، أشقر أكثر ممّا تصوّرته عندما شاهدته على شاشة التلفزيون ـ إلاّ إذا كـان خارجـاً مباشرة من لـدى حلاّقه؟ كان هناك أيضاً السيد والسيدة مونديل، والسيـدة كارتـر. . . وعلى بُعد صفّين مني، يجلس إندي يونغ مليء بالحيويـة والنشاط. حـاول الجميع الظهور بمظهر اللامبالاة كمثل العديدين من ابطال «جولة العالم في ثمانـين يـوماً» الـذين وافقوا عـلى لعب أدوارهم بلقطات قصـيرة. لم يكن أيّ منهم هنـاك للقيام بـدور ما، بـل لكي يراهم النـاس فقط، على طـريقـة أسيـاد المجتمع الذين يقضون سهرة في المدينة مسرورين باللقاء مـع بعضهم بعضاً بين شخصيات معروفة ـ «كيف هذا، أنت، هنا؟»:

الممثلون الرئيسيون الإضافيون هم على المنصة ـ لوحة غـير لطيفـة، لكن لها تأثيراً أقوى من النجوم الموجودين في القاعـة: هناك الجنـرال ستروسنـر من البـاراغواي، والجنـرال ڤيديـلا من الأرجنتـين، بـوجهـه الشبيـه بحـدّ السكين، والهزيل بحيث يكاد لا يتّسع لعينيه المحتالتين، والجنرال بانزر من

بوليفيا، قصير القامة، مذعور، له شاربان مضطربان ـ خطأ في التوزيع، وخطأ في اللباس.

ثم هناك الدور الأكبر الثاني: الجنرال بينوشيت شخصياً، الرجل الذي تحب أن تكرهه. كمثل بوريس كارلوف، تستطيع التعرّف إليه فوراً؛ كان الوحيد الذي يستطيع أن يراقب باحتقار مضحك «الظلال» الهوليوودية التافهة، المدفوع لها أكثر مما تستحق، والجالسة تحت نظره. يغرق ذقنه في قبّة قميصه فيبدو وكأنه بدون عنق؛ له نظر خادع ملؤه الدعابة ويتظاهر بالسذاجة المزيّفة كأنه يقول: يجب ألاّ تأخذوا على محمل الجدّ كل هذه الروايات، عن القتل والتعذيب، القادمة من أميركا الجنوبية. كان من الصعب عليّ أن أصدّق أن لاجئة أرجنتينية انهارت أمام عينيّ، قبل أسبوع تقريباً، وهي تروي كيف غرزوا حربةً في مهبلها. كان بانكر العجوز، هذا البراد، يحوم حول الديكتاتوريين، وهو يراقب بقلق مُعاهدته، ويعضّ على شفتيه الناشفتين. يشبه لقلقاً مسنّاً جداً، أعطيت له سمات بشريّة لألبوم خاص بالأطفال ـ رأسه المندفع إلى الأمام يسبق جسمه بمسافة طويلة.

أنا على ثقة بأن بينوشيت كان يعرف إلى أية درجة يسيطر على المشهد ـ ضدّه هو فقط، كان الناس يتظاهرون في شوارع واشنطن حاملين اليافطات: ربّما لا يعرفون تهجئة اسم سترويسنر، ولا يتذكرون اسم بانزر. أظهر بينوشيت عن لباقة: لم يحيّي حليفه كيسينجر بالنظر إليه من أعلى إلى أسفل، ولم يوجه كيسينجر نظره أبداً نحوه. ثم وقف الجميع للاستماع إلى النشيدين، الوطنيين، بينما دخل كارتر والجنرال توريخوس لتوقيع المعاهدة، وثيقة زال رونقها لكثرة ما جرى فيها من تعديل وتصحيح خلال ثلاث عشرة سنة. كنت متأكداً أنني لست الوحيد الذي لم يزحزح نظره عن بينوشيت. كمثل كارلوف، لم يكن بحاجة إلى نصّ، ولا إلى القيام بأية همهمة.

بدا كارتر تعيساً وفي غاية البشاعة. ألقى خطاباً مقتضباً وسخيفاً، بالكاد سمعه الجالسون على الصفّ الخامس رغم كل مكبرات الصوت. لكنني

كمواطن بانامي مؤقت، كنت فخورا بعمر توريخوس الذي تكلّم بصوت مختلف كلياً عن صوت كارتر، صوت نفّاذ يخترق الصمت. ألقى الخطاب كما قرأه عليَّ في باناما، بشكل قاسٍ ويدون صيغٍ تقليدية: «أيها السيد الرئيس، معالي السادة... إلخ» بحيث أن نجوم الأوركسترا بدأوا بالاستماع إليه، يمكن الاعتقاد للحظة أنه يهاجم المعاهدة التي كان على وشك التوقيع عليها.

«المعاهدة مرضية إلى أقصى الحدود ومربحة للولايات المتحدة، وعلينا أن نعترف، أنها أقلّ بكثير بالنسبة لباناما».

ساد السكوت، ثم تابع الجنرال: «سكرتير الدولة هاي، ١٩٠٣».

كانت لعبة ممتازة ضدَّ الشيوخ الموجودين بأعداد كبيرة، لكنها كانت أكثر من ذلك بكثير. فتوريخوس يوقّع المعاهدة مرغماً، حسبما قال لي ذات يوم فيما بعد، وذلك بهدف واحد هو «إنقاذ حياة أربعين ألف شاب بانامي». هناك بندان في المعاهدة، لم يتمكن من استيعابهما: البند الذي يؤجّل إلى العام ٢٠٠٠ استعادة السيطرة الكاملة لباناما على القناة، والبند الثاني الذي يسمح للولايات المتحدة بالتدخل، حتى بعد هذا التاريخ، إذا ما جرى مساس بحياد القناة. يبدو لي أن عمر لن يكون تعيساً كلياً إذا ما رفض مجلس الشيوخ إبرام المعاهدة؛ سيجد نفسه أمام اللجوء إلى العنف الذي طالما راود أفكاره، فالرغبة تدفع به للتخوّف كما في لحظة لقاء جنسيّ.

من حظّ الولايات المتحدة أنها تتعامل مع عمر توريخوس، وطنيّ مثالي دون إيديولوجية محدّدة، إلاّ أن لديه التفضيل الذي يحمل طابعاً عاماً لليسار، ويحتقر البيروقراطيين. كان موقفه صعباً: منعزل بدون برنامج حزب سياسي، بينما تستمر التشكيلات التقليدية في ظلّه: فالديمقراطيون المسيحيون يجمعون حولهم البرجوازية التي تحمل له في عمقها الحقد والبغضاء؛ والشيوعيون الذين يدعمونه مؤقتاً تكتيكياً؛ ومجموعات اليسار

المتطرف الذين يعارضون المعاهدة (ليس بدون وقاحة، لأسباب شبيهة بأسباب الجنرال). يستطيع الاعتماد على الضباط الشباب في الحرس الوطني، وعلى فرقة الخنازير المتوحشة؛ هذا كل شيء تقريباً. أما فيما يتعلق بضباط الحرس الوطني القدماء، فعليه أن يكون حذراً تجاههم. إذا لم تُبرم المعاهدة فستكون بانما بحاجة للجنرال: موقعه، وشعبيَّته، يصبحان مضمونين. وفي الوضع المعاكس، فإن مستقبل بانما، وكذلك مستقبل الجنرال يصبحان على كفّ عفريت، وقد أظهرت ذلك الأحداث التي تلت.

سيؤدي إبرام المعاهدة إلى استعادة مباشرة لأكثر من ٤٨٠ كيلومتراً مربعاً من الأراضي بالإضافة إلى كمية كبيرة من النقد. فهناك عدد كبير من الجيوب تنتظر المناسبة. لا يهتم ملّاكوها بمشاريع الجنرال، مثل نصف القسط المدرسي المجاني، وتوزيع الحليب على كل الأطفال، وإزالة الأكواخ القذرة في كولون وبانما، وإنشاء دار للأيتام، وحديقة ترفيهية للفقراء المحكوم عليهم حتى الآن بقضاء أوقات فراغهم في أمكنة غير ملائمة مثل حيّ هوليوود. إن مالكي رؤوس الأموال ـ الذين يضمّون بعض الضباط من ذوي الرتب العليا ـ لديهم أفكار أخرى في رؤوسهم. ففي حال تمّ إبرام المعاهدة، تصبح حياة الجنرال مسألة سيئة بالنسبة لشركة التأمين، لأنه ليس الرجل الذي يمكن طرده إلى ميامي كأيّ سياسيّ آخر. وليس من المستغرب أن تكون لديه أحلام كثيرة بالموت، وبالإمكان قراءتها في نظراته.

كان على المنصة ثمانية جنرالات من نصف الكرة الجنوبية ينظرون إلى توريخوس وهو يوقع اتفاقية لا يحبها، واعتقد أن عدداً من المتظاهرين في واشنطن لا يفرقون فيما بينهم ـ كلّهم جنرالات، كلّهم ديكتاتوريون، بهذا الشكل أو ذاك، وأية مظاهرة ضدَّ بينوشيت تُعتبر مظاهرة ضدَّ الزمرة كلها. كان عمر مدركاً للخطر تماماً. فقد تمنّى، كما سبق وأشرت، حضور الزعماء الأكثر احتراماً فقط، لكن كارتر أصرَّ على دعوة كل أعضاء منظمة الدول

الأميركية. شكلَّ هذا الإصرار نوعاً من النصر لبينوشيت، وإحراجاً لتوريخوس.

بعد التوقيع، توجَّه كل من كارتر وتوريخوس إلى جانبي المنصة لكي يلقيا التحية على رؤساء الدول. العناق هو الشكل العادي للتحية الصديقة في أميركا اللاتينية، ولكني لاحظت أن توريخوس لم يضمّ سوى قادة فنزويلا وكولومبيا والبيرو، مكتفياً بمصافحة البوليفي والأرجنتيني، وهو يقترب من بينوشيت. تنبّه لذلك هذا الأخير، وراحت عيناه تلمعان بفرح خبيث. وعندما وصل دوره، أمسك باليد الممدودة، لكنه طوّق كتفيّ توريخوس بذراعه. ولو أن مصوِّراً التقط هذه اللحظة الدقيقة، لبدا وكأن توريخوس يعانق بينوشيت.

في اليوم التالي وقبل أن استقلّ الكونكورد إلى باريس، كان لي ما فكّرت أن أقوم به مرة أخرى، أي محادثة أخيرة مع شوشو. كان مستاءً من المعاهدة. نصوصها غير مرضية، ويبقى مجلس الشيوخ... تحدَّث شوشو عن استقالته من الحرس الوطني والعودة إلى الجامعة.

استحلفته أن يبقى ستة أشهر بعد. «لأنَّ الخطر الأكبر على عمر هو بعد توقيع المعاهدة. إنه بحاجة إليك. ما من أحد غيرك يضع فيه كامل ثقته». بقي شوشو. لكنه لم يستطيع إنقاذ عمر. وكما قال لي في الفندق: «المسدَّس ليس وسيلة للدفاع».

أثناء الطيران، أرسلت آخر وداع - اعتقدت ذلك على الأقل - إلى هذه الفترة الاعتراضية في حياتي. أراد عمر خلال هاتين السنتين وجود مراقب صديق أثناء كفاحه في سبيل المعاهدة. والآن، تمَّ توقيع المعاهدة. وانتهت الفائدة منيّ. لم يعد هناك، لا عمر ولا شوشو، قلت في نفسي وأنا على متن الكونكورد، وازعاج الطائرة يتوافق مع مزاجي الكئيب. وبينما نحن نطير

باتجاه باريس بأسرع من الصوت، لم يكن باستطاعة المضيف أن يقدم قطعة من الجبنة - «إلاّ بطلب خاص فقط.

- إنه طلب خاص».

ذهبوا لجلب مثلّث صغير من جبنة الكاممبير العفنة.

ولا تزال رسالة كميلو ترقد في جيبي بأمان.

القسم الثالث

١٩٧٨

١

كنت بعيداً جداً، هناك في أنتيب، أتابع الحرب الأهلية في نيكاراغوا من خلال الصحف فقط. لم يمضِ يوم واحد تقريباً دون أن يذكّرني مقطع على الأقل بأصدقائي الساندينيين في پاناما. ثم، ودون سابق إنذار، تجلّت پاناما ونيكاراغوا في أنتيب، بشخص عالم الرياضيات الشاب روجيليو. كان في طريقه إلى إيطاليا واتصلُ من محطة نيس (Nice). وهو بحاجة إلى تأشيرة دخول إلى ايطاليا، لكن الأمر لا يقلقه جداً. فزوجته ايطالية الجنسية في نهاية الأمر. أمور كمثل «الڤيزا» يمكن ترتيبها دائماً، قال، ولديه رغبة بالتوقف قليلاً كي يجري نقاشاً معي.

حجزت له غرفة لقضاء الليل وتناولنا العشاء معاً. أخبرني أن كميلو قد قُتل مع مجموعة ساندينية تسللت عبر الحدود الكوستاريكية. لم تكن العملية ناجحة. هوجموا من الجوّ، ولا يملك الكومندوس أسلحة مضادة للطيران. وتقضي مهمة روجيليو الآن بجمع الأموال لشراء الأسلحة. أعطاني إسماً في پاناما ورقم حساب، لأستخدمها في حال أراد أحد الأصدقاء الأغنياء مساعدتنا. ثم قال، لا مشكلة بالنسبة للسلاح الخفيف. يمكنهم أن يحصلوا على كل ما هم بحاجة إليه من حرّاس سوموزا الوطنيين. إنهم بحاجة إلى مدافع مضادة للطيران. مع الأسف، لا استطيع أن أخدمهم إلاّ بإرسال

«شيك» شخصي يشترون به بعض الطلقات ـ ربما تكون من بينها الرصاصة التي ستقضي على سوموزا.

٢

مرَّت بضعة أسابيع، ثم سمعت أيضاً صوتاً مألوفاً آخر على الهاتف.

«أين أنت يا شوشو؟

ـ في باناما، طبعاً. أين تريدني أن أكون. متى ستصل؟ يريد الجنرال معرفة ذلك. بطاقتك في شركة الطيران «ك. ل. م».

فوجئت جداً بالعودة. أجريت حساباتي بسرعة. «في الساعة التاسعة والنصف من صباح ١٩ آب. هل هذا التاريخ مناسب؟».

لكنني كدت أن أفقد الطائرة.

في الصباح الباكر من الثامن عشر من شهر آب، أخذت طريقي باتجاه امستردام. ونزلت في ريتز (Ritz) لندن ـ الفندق الذي كانت تجري فيه الأمور معاكسة في تلك الفترة. وذلك واحد من الأسباب التي جذبتني إليه. فالكتابة هي، في معظم الأوقات، نشاط خائب. على المرء أن يرتبط بطاولة، وكرسيّ، وكدسة من الورق. وحده الانضباط الصارم يمكنه أن يجعلني أصمد. وهكذا تلقّيت بطيبة خاطر المفاجآت التي يقدّمها الريتز دائماً ـ يمكن أن يكون سمك السلمون المدخّن الذي يقدمونه في وجبة الفطور بدلاً من البيض؛ عصفورٌ أسير يضرب بجانحيه، طوال النهار، على حجارة المدخنة؛ نافذة يستحيل فتحها أو اغلاقها؛ الخادم المصري الذي يتفحَّص البطارية ويحاول تقبيل الفتاة في الغرفة المجاورة وهو يحمل إليها طعام الفطور. هكذا كانت تسير الأمور في سالف الزمان، قبل أن تشتري الفندق شركة ترافلغار لتعلّق اللوحات البشعة على جدران ممرّاته،

وتجعل الخدمة فيه ممكنة بشكل محزن. مع ذلك، بدت الأمور في صباح ١٨ آب وكأنها تذهب إلى أبعد من ذلك.

استيقظت على سعال حادّ، وأشعلت الضوء، لكنني لم أتسطع أن أرى حائط غرفتي من خلال دخان مثير للقيء يضغط على حنجرتي. نظرت من النافذة التي أغلقتها بسرعة، وبصعوبة كالعادة. كان سطح البلاستيك الذي يغطي ورشة البناء المجاور للفندق يشتعل. رأيت الاطفائيين بقبعاتهم الحديدية وأقنعة الغاز والمصابيح الكهربائية. من حسن حظّي أن أصواتهم قد أيقظتني. فتحت باب المدخل لأبعد الدخان، فرأيت موظف الاستعلامات يصل إلى الممر برفقة أحد الأطفائيين. اقترح عليَّ أن أغير غرفتي، لكن الدخان تبدَّد، وكانت حقائبي مقفلة ففضلت البقاء حيث أنا مستمراً في السعال. لازمني السعال طوال الأسبوعين التاليين، أي حتى عودتي إلى أوروبا.

ركبت طائرتي، بعد فترة وجيزة، معتقداً أنني مسافر إلى أمستردام ـ كانت المرة الأولى في حياتي التي أخطىء فيها بالطائرة؛ إن ذلك لمفخرة نظراً للمراقبة المتكررة لبطاقات السفر ولبطاقات الاقلاع. لم أكتشف غلطتي إلاّ عندما أعلن المضيف أننا سنحطّ في روتيردام في الساعة المحدّدة. ربما لم يدخل الدخان فقط إلى حنجرتي؛ لقد صعد قليلاً إلى الدماغ. بدأت أقول في نفسي إن الآلهة اتخذت موقفاً ضدَّ پاناما. طائرة امستردام تقلع بعد ساعة تقريباً.

مررت بسرعة عبر الجمارك والأمن العام، واستقليت سيارة «تاكسي» بسرعة. لا أحمل في جيبي «فلورينات»، لكنني لم أقل ذلك إلاَّ بعد أن انطلقت السيارة. قبل السائق الأمر بشكل واقعي. «ماذا لديك من العملات الأجنبية؟

ـ عملة فرنسية، وقليل من النقد الإنجليزي، وبعض الدولارات».

وافق على قبض الدولارات. قلت انني سأخسر كثيراً في التبديل، - ولكن لا، فقداتصل بمكتب الصرف الأجنبي، بواسطة الراديو، وسأل عن السعر، وتأكدّ منه بدقّة.

لم تعد الآلهة معادية لي. لحقت بطائرتي قبل إقلاعها بلحظات - لا وقت للتمتع في صالة الاستقبال بلوحات ثان غوغ - وفي الساعة التاسعة صباحاً حسب توقيت باناما، (نصف ساعة قبل). استقبلني شوشو في المطار الدولي الجديد الذي نزلت فيه للمرة الأولى. ترك سيارته في المطار الوطني، واستقلّ طائرته الخاصة الصغيرة (عمرها ١٣ سنة) لكي نعود على متنها. وبصفته شاعراً وأستاذاً، لم يوحِ لي أنه طيَّار جيِّد - ربَّما لا تزال عند الآلهة ورقة تريد التخلّص منها. أخبرني شوشو أن برنارد دييدريش ينتظرني في الفندق. يريد الجنرال اللقاء بنا في صباح الغد في منزله في فارالون على شاطىء الهادىء. «سأكون طيَّارك الخاص. تتسع الطائرة لشخصين بكل ارتياح.

- ألا يمكننا الذهاب عن طريق البر؟

- مستحيل. يريدك الجنرال عنده في الساعة التاسعة».

لا أعتقد أن دييدريش كان مرتاحاً أكثر منّي، إلى السفر في صباح اليوم التالي. فالطقس في باناما معرّض للمفاجآت، وفصل الشتاء على الأبواب. ثم راح شوشو يقود بمزاج فلسفي. «إذا كان البراز يساوي مالاً، قال فجأة، فسيولد الفقراء بدون مؤخرة».

كان عمر في السرير، عندما وصلنا، يعاني من الحمَّى لكنه ما لبث أن انضمَّ إلينا. جلس في خيمته، كما يحبّ عادة، وكان منشرحاً ولديه رغبة في الكلام. تمكّنت من الاحتفاظ بتعليقاته بفضل دييدريش الذي سجَّل الحديث.

بعد توقيع المعاهدة، سمح للرئيس السابق أرياس بالعودة إلى أملاكه في

مقاطعة شيريكي بالقرب من حدود كوستاريكا. فمنذ شهرين، ولدى وصوله إلى العاصمة، ألقى كلمة أمام عدد غفير من الناس، جاؤوا بدافع الفضول أكثر ممّا بدافع التأييد له، ليستمعوا إليه. قام بهجوم عنيف ضدّ توريخوس، مؤكداً، على الأقل، أن حرِّية الكلام مضمونة في پاناما.

عندما رأيت عمر في خيمته، تذكرت خطاب أرياس هذا، الذي قرأته، مساء أمس، في الطائرة. أعطى أرياس صورة عن توريخوس تصفه بالطاغية الذي يرمي بأعدائه من الطائرة ويعذّب سجناءه. لم يُنشر، في أي مكان، أيّ اسم عن شخص «مختفٍ». لا وجود في شوارع پاناما لصفوف من الأرامل، كما هو الحال في بوينس أيرس، طالما أنه لا وجود لمفقودين. فأيّ منشق في پاناما، يكفي أن يجتاز الشارع إلى الرصيف الآخر لكي يصبح بمأمن. ورغم كونه بمأمنٍ في ميامي، كوَّن أرياس لوحته عن پاناما بالاستناد إلى تقارير تتعلّق بأرجنتين ڤيديلا، وشيلي بينوشيت. ووصف عمر في خطابه وكأنه «مضطرب العقل يجب وضعه في مأوى». وفي هذه اللحظة بالذات، يجلس «مضطرب العقل» في خيمته يناقش بفرح مستقبله معنا.

«احتفظ بمفاجأة للسياسيين، فأنا أشكلّ نظاماً ـ حزباً سياسياً ـ يسمح لي بالانسحاب. يعتقدون أنني أضع نظاماً لكي أبقى في موقعي. إنهم يصوّبون بندقيتهم باتجاه الهدف الخطأ. سوف يبددون ذخيرتهم ثم يقولون: لكنّ ابن العاهرة تتعذّر معرفته». ثم تأرجحت على شفتيه ابتسامة خبيثة. «كل ما أطلبه هو بيت، وبعض قناني الروم، وفتاة».

«كما لو أن الخزي والعار لهذا الخائن الأكبر ليسا كافيين ـ واستعدت في ذاكرتي خطاب أرياس ـ لقد باع الوطن ببعض الدراهم مثلما باع يهوذا سيدنا يسوع المسيح، وكمثل يهوذا أيضاً، يحاول الهروب من ضميره باللجوء إلى الكحول (ربّما كان عليه أن يضيف «البلاك ليبل في عطلة نهاية الأسبوع عامة) والمخدّرات». (إنه يقصد، دون شك، كمية سيجار هاڤانا

التي كان يرسلها إليه فيديل). لا تتعجَّبوا عندما ستجدونه مشنوقاً على شجرة في ساحة بيته الخلفيّة».

راح عمر يتأرجح في خيمته مرتكزاً على رجل واحدة. «لست أدري إن كان ما قد تصرَّفت به، فيما قمت به، عملاً جيداً أم لا. قال. كمثل من يذهب إلى محطة الوقود ليملأ خزّان سيارته. يدفع، ويعود العدّاد إلى الصفر. في كل مرة استيقظ أعود إلى الصفر».

مرَّة أخرى، كنت أستعيد خطاب أرياس: «عشنا مدّة تقارب العشر سنوات في المنفى ونظرنا متجه نحو الجنوب، نحو وطننا الحبيب پاناما. نفكر، ونتأمل، وفي صدرنا أمل واحد، صلاة واحدة...».

سألت عمر عن رأيه بأرياس. «سياسياً، انه نموذج أثري. نلقي عليه نظرة أثناء زيارة للمتحف، لكننا لا نتوقف أمامه مرة أخرى».

وتابع يقول: «لدينا فراغ سياسي. ترك النضال من أجل المعاهدة انطباعاً أننا في فراغ. ولكي نعوّض عن ذلك، يجب أن نتجّه نحو مشكلاتنا الداخلية. علينا أن نشكّل حزباً سياسياً للانتخابات القادمة. أنا مع الاشتراكية ـ الديمقراطية. تحدَّثت عن ذلك مع فيليب غونزاليس في اسبانيا، ومع بعض المسؤولين من كولومبيا وجمهورية الدومنيكان. أصبت بهذا الزكام المشؤوم بينما كنت أشارك في عملية تسلّم غوزمان لمهامّه. طبعاً، إذا عاد أرياس وطغمته إلى السلطة، فستكون لدينا بعض المتاعب». وراح يضحك. «لقد خالفنا كل قوانين الدستور، دستورهم».

سيطلق على حزبه الجديد اسم: الحزب الديمقراطي الثوري. سيعلن عن تأسيسه رسمياً في الحادي عشر من تشرين الأول، في الذكرى العاشرة للانقلاب العسكري. وبعدها سيرُفع الحظر عن الأحزاب الأحرى. لم يكن هذا الحظر كاملاً أبداً: كان يعني فقط أن كل مرشح للانتخابات، محافظاً

كان أم اشتراكياً أو ليبرالياً أو شيوعياً، عليه أن يخوض المعركة كفرد بدون صبغة حزبيّة.

«أشعر بنفسي عجوزاً لكي اتحدَّث عن المستقبل، تابع عمر، (لم يكن قد بلغ الخمسين من عمره بعد). المستقبل للشباب. والحزب هو ضروري بالنسبة لي الآن، لأنني تعبت، ولأن السياسة ـ السياسة الداخلية ـ تثير فيَّ الضجر. أترى كيف عندما يجد الناس رئيساً لهم، يستخدمونه حتى الموت، كما يفعل الفلاح بالثور الجيّد. يتكلم الفلاحون معي بصدق، ويعرف الفلاح عندما تراوغ معه، حتى ولو بقيت في خيمتك، أو أختبأت تحت أغطية سريرك».

دفعت به للحديث عن المعاهدة. كنت أعرف أن تعديلات مجلس الشيوخ قد صدمته بمرارة، وهو يتعرَّض الآن لانتقادات اليسار. «إن رأيي باليسار المتطرّف، قال، هو التالي: يقفون أمام استحالة تحقيق ثورتهم، ويختبئون بجبن وراء تصوّرهم لثورة مقبلة لن تصبح واقعاً ملموساً أبداً. في بلادنا هذه، لا يبلغ عدد السكان المليونين. ليس هناك أيّ سبب لكي ندفع غالياً ثمن تغيير المجتمع. إن لم يكن ذلك من الضروري فلمَ القيام به؟ في هذا البلد الصغير، أنا لست مع موقف جذريّ».

وتناول في حديثه موضوع المخاوف الأميركية من الشيوعية في أنغولا. «قلت لأندرو يونغ، إنّ أفريقيا تمثّل تهديداً أكبر لكبريائكم ممَّا هو لأمنكم. لا وجود لأي خطر في أفريقيا. فهي قارة لم تجد شخصيتها بعد. وبعد خمسين سنة، سيسير الناس على الطرقات الواسعة بسياراتهم الفولكسفاغن الصغيرة بسرور، وسيتأملون جمال الأدغال متناسين الجرافات التي ابتلعتها هذه الأدغال».

أظهر خيبة أمله من المعاهدة وصولاً إلى حدّ التقليل من أهميتها. «سيعطوننا بعد ١٤ شهراً ثلثي أرض القطاع، وسنقبض ٣٠ سنتاً ـ زيادة

دقيقة وواضحة، على كل مركب يجتاز القناة، حتى عام ٢٠٠٠ حيث نستعيد السيطرة. لكن ما هو أهمّ من القناة هو استثمار النحاس. لم نصدّر حتى الآن سوى الموز، وسيادتنا». (بهذا التعبير، ألمح إلى الراية البانامية، وإلى تهرّب الشركات المتعددة الجنسية من الضرائب). «سنصدّر النحاس ابتداء من عام ١٩٨٣ ـ لن تتحقق النبوءة ـ ثم هناك قدرتنا الكهربيّة ـ المائية. وسيصبح إنتاجنا عمّا قريب حوالى كيلواط واحد لكل فرد».

عاد إلى مسألة القناة: «باشرت القناة عملها بـ ١٤ ألف عامل، ولا يزال هذا العدد حتى اليوم. لا يوجد عندنا مرفأ، مما يضطرنا أن ندفع ١٤ دولاراً على الطن الواحد لكي نصدّر منتجاتنا. عندما تصبح القناة لنا، يصير بإمكاننا أن نصدِّر كميات أكبر. نملك مصنعاً جديداً للإسمنت يجد نفسه مهملاً بسبب مسألة التصدير هذه. من المستحيل زيادة حقوق المرور بعد: علينا إذاً أن نتطوَّر على ضفتيّ القناة».

عادت بي الذاكرة إلى ما قاله للتلامذة في السنة الماضية: لن يبادل ملاّكين بيض اللون بملاّكين من لون القهوة. سألته ما إذا كانت ستهب هجمة على الأراضي.

«لا. لا. سنأخذ بعين الاعتبار موارد القطاع. لا يمكننا أبداً أن نغيِّر الأرض. فالغابات تجذب المياه الضرورية لتغذية القناة».

عندما رجعت إلى غرفتي في باناما، عدت إلى قراءة خطاب أرياس: «الحادي عشر من تشرين الأول يوم مشؤوم شهد الخيانة الشيطانية المستوحاة من العهر والطمع والحسد، التي اجتاحت أرضنا الغالية، ونشرت فيها الذعر والألم والدم...».

تصوَّرت «الوحش»، «يهوذا» في خيمته، وكذلك الصيّاد الذي يذهب إلى البحر في كل عطلة نهاية الأسبوع، أمام الحرس، يوجّه شتائم سكّير إلى عمر الجالس على شرفة منزله. ولدى عودته، بعد أن تتبخَّر السكرة، يمرّ

دون ان ينبس ببنت شفة. كان هـذا المشهد المتكـرر، كل أسبـوع، يعجب عمـر، خاصـة إذا ما حـدث بحضور ضيـوف خطرين وذوي شـأن كمثـل السيِّد بونكر وأعضاء البعثـة الأميركيـة. وتساءلت كيف كـان يمكن للرئيس أرياس أن يتصرَّف عندما كان هو في السلطة.

٣

ذهبت، في المساء، إلى عشاء نيكاراغوي سيِّء مع أصدقائي الساندينيين، التقيت، للمـرة الأولى، بالكـاهن أرنستو كـاردينال، شـاعر، ووزيـر حالي للثقافة في نيكاراغوا. وجـدته متصنِّـع اللياقـة: لحية شعـرها أشيـب، شعـر طـويـل أبيض تعلوه قبَّعـة زرقـاء اللون. يبـدو أنـه مـدرك جـداً لصـورتـه الـرومانسيـة ككاهن، وكشيـوعي ولاجىء، دمَّر سـوموزا ديـره الموجـود في جزيرة نيكاراغوا. ثم التقينا، مرة أخرى، في مساء اليوم التالي، عند كميلو وماريا إيزابيل، حيث كانوا يحتفلون بيوم ميلاد أحد قادة حرب العصابـات الساندينيين، بومـاريس الـذي أنقـذ عمـر حيـاتـه. ألقي القبض عليـه في هنـدوراس، وكان علـى وشك أن يُسلَّم إلى نيكـاراغوا، وإلى مـوت محتَّم، عندما تدخَّل الجنرال.

كان طابع العيد فتويّاً لا ينسجم مـع فكرة قـائد في حـرب العصابـات. قدَّموا الحلوى، وغنَّى الجميع «ميلاد سعيد». أعرف الآن كل تلك الوجـوه كـما لو أنهم من أفـراد عائلتي. الكـاهن كاردينـال، يلعب دور البطريـرك، يشعّ في مؤخرة الجمع. وقائد الفدائيـين يطفىء الشمـوع مرَّتـين، ويطفئها كلَّهـا بنفخـة واحـدة. لاحـظت أنـه منـزعـج، بعض الشيء، من الحلوى والشموع. يبدو أنه مقاتل حقيقي يحيط به بعض الهـواة. بعد بضعـة أيام، سافر إلى نيكـاراغوا وقُتـل في المعركـة. ورئاسـة أركان سـوموزا القـديمة في ماناغوا، «البونكر»، تحمل اليوم اسمه.

حاول الكاهن كاردينال اقناعي بالذهاب إلى نيكاراغوا. لكنني لم استطع

إلاّ أن أفكر بأن موتي هناك سيكون هديّة ثمينة للدعاية. فبوسع كل معسكر أن يتهم الآخر. إن موتي هو أفضل خدمة يمكن أن أقدّمها وهناك خطر إذا قدَّمتها للمعسكر السيّء. على كل حال، كنت أعرف أن الجنرال سيعارض مثل هذا السفر. فهو يعرف أن الحرب الأهلية قد بلغت مرحلة حرجة. فقررَّت عندئذ، أن أكون سائحاً. وسافرت في اليوم التالي على متن طوافة إلى مدينة أحلامي الأسطوريَّة، نومبر دي ديوس: فسحة صغيرة كافية لتحطَّ عليها الطائرة، وقرية هنديَّة تتألف من بضعة خيم. لم يبقَ أيّ أثر لجدار مدمَّر يشير إلى موقع ما، كان فيما مضى، مرفأ أهمَّ من ڤيرا كروز ـ أطلق عليه كريستوف كولومبس اسم بورتو دي باستيمنتوس، أي مرفأ التموين، وقد دمرَّه فرنسيس دريك كلياً، تاركاً فيه، خطأً، كمية ضخمة من السبائك الذهبيَّة.

اكتشفت، لدى عودتي إلى پاناما، أن توقعات الجنرال حول احتدام الحرب في نيكاراغوا، قد تأكدت إلى حدّ ما. حصل تمرّد في ماناغوا. جرى احتلال القصر الوطني من قبل مجموعة كوموندوس تتألف من ١٢ ساندينياً: احتجزوا ألف نائب وشخصية رسميّة كرهائن، مطالبين بإطلاق سراح رفاق لهم في السجون.

رأيت حلماً تلك الليلة أرهقني لدرجة أنني استيقظت مضطرباً ومتوتر الأعصاب. أردت أن أعود إلى أوروبا دون معرفة السبب. وكان عليّ أن أنجز عملاً ما قبل العودة: السفر المؤجَّل دائماً إلى بوكاس ديل تورو، التي يصفها دليلي السياحي بشكل مشوِّق. وعدني شوشو أن يرافقني صبيحة اليوم التالي. لكن الأمور لم تجرِ كما توقّعنا. تغيرّت كل مشاريعنا، وكذلك معنوياتنا المرتفعة من قبل عمر الذي اقتفى أثرنا حتى المطعم الايطالي الذي كنا نتناول فيه العشاء للمرة الأولى. وطلب شوشو على الهاتف.

عاد مضطرباً، ومثلي أنا، ثملاً بعض الشيء. في الصباح الباكر ـ ربّما في الساعة الخامسة ـ أرسل الجنرال طائرة عسكرية إلى ماناغوا لتنقل

الكوموندوس السانديني والسجناء المحرّرين وبعض الرهائن. سنكون على متن هذه الطائرة. والموعد في الساعة الرابعة في المطار. أصبحت الحياة مجدّداً مثيرة للاهتمام.

كنّا جاهزين في الموعد المحدّد، صبيحة اليوم التالي، لكن الطائرة كانت قد أقلعت قبل ساعة. لم يفهم شوشو جيداً، أو أن الهاتف لم ينقل بدقة رسالة الجنرال الذي طلب منّا قضاء الليل في المطار. كان شوشو في حالة سيئة. طلب إليه بحزم أن يبقى دائماً في حالة «التأهب» - ممّا يعني أن يبقى في منزله إلى جانب الهاتف؛ إنه نوع من الحجز. أمّا أنا، فحاولت من جهتي، أن أقتل ذلك النهار بالقراءة والنوم إلى أن جاء شوشو، وهو متعب أكثر مني، لينضمّ إليّ. واستدعانا الجنرال إلى منزل روري.

رأينا من المفضّل أن نذهب أولاً إلى مقهى سينيوريال لنشرب كأساً من «البيونش»، من تحضير فلور، لأننا كنا نتوقّع تأنيباً. لم يحدث شيء. كان مزاج عمر ممتازاً. قرّر إرسالي للقيام بمهمّة مع شوشو إلى بيليز (Belize) لكي نقابل جورج بريس رئيس الوزراء. تعود هذه البادرة إلى رغبته في أن يكون معلّمي في مسائل أميركا الوسطى وليس فقط پاناما. كان عمر معجباً ببريس ـ صداقة متميِّزة، لأنه لا يمكن تصوّر شخصين أكثر تناقضاً، إلاّ بالسياسة؛ فالإثنان اشتراكيان معتدلان. بدأت هذه الصداقة عندما ساندت پاناما بيليز في الأمم المتحدة ضدّ عدوّها، الغواتيمالا؛ وأقنعت فنزويلا أن تحذو حذوها - البلدان الوحيدان في أميركا اللاتينية اللذان عارضا غواتيمالا.

كان وزير الخارجية هناك مع عمر. عرض علينا لوحة عامة عن الوضع في بيليز حيث رفضت المعارضة المحافظة الاستقلال الذي يطالب به بريس. يعتبر المحافظون أن هذا الشأن يهدّد بأن يؤدي إلى انسحاب الألف والستمئة رجل من القوات البريطانية الذين يشكلون حاجز إنذار في حال حصول غزو غواتيمالي. كان بريس يتمنّى أن يبقى في الكومنولث، لكنه يفضل أن تحلّ وحدات من مجمل الكومنولث محلّ القوات البريطانية. يمكن

أن تكتفي غواتيمالا بقسم صغير من الأرض، يشكلّ منفذاً لها إلى البحر؛ لكن المكسيك، الجار الشمالي، ألا يطالب بنفس الطموحات؟ ماذا يبقى من بيليز في هذه الحال؟

«إن بريس يعجبك، قال لي الجنرال عمر، إنه رجل كمثل قلبي. أراد أن يكون كاهناً وليس رئيساً للوزراء».

في الصباح، قبل أن تطبق الفوضى العادية البانامية على سفرنا، ذهبت لزيارة الكومندوس السانديني والسجناء المحرَّرين - واحد من بينهم، يدعى توماس بورج، أصبح صديقاً ممتازاً. كانوا في قاعدة وحدةٍ تسمّى النمور. قائد الكومندوس، المدعو إيدن باستورا، صاحب وجه بهيّ يشبه وجه نجم سينمائي. أجريت معه مقابلة للتلفزيون الأميركي من قبل صحافي سخيف جداً. «هل صحيح أن كارتر قد كتب إليك رسالة؟ متى ستعود إلى نيكاراغوا؟» الأضواء تلمع وآلات التصوير تدور. ربّما في هذه اللحظة، عندما أدرك أنه يتوجّه إلى ملايين الناس، بدأت رشوة باستورا: فقد أدَّت به بعد أربع سنوات إلى الوقوف ضدّ رفاقه الساندينيين.

بعد انتصارهم، أوكلوا إليه قيادة الشرطة التي تضمّ القرويين الذين شكلّوا الدفاع الفعَّال - نوع من حرس المنازل - ولكن ليس قيادة الجيش. أصبح باستورا نائباً لوزير الدفاع، وليس وزيراً، إلاَّ أن انجازه لاحتلال القصر بحفنة من الرجال، جعله أوسع شهرة في الخارج من أورتيغا قائد الجيش، أو توماس بورج وزير الداخلية الحالي.

كان لا بدَّ بعد النصر، من وجود طموحات جريحة: الحالتان اللتان جلبتا أكبر ضرر للقضية الساندينيّة، هما حالة باستورا، وحالة الأسقف أوبندو (بعد أن فاوض في مسألة تحرير الرهائن مع سوموزا، استقلّ الأسقف الطائرة مع باستورا لكي يضمن أمن الكومندوس حتى باناما).

كما توقّعت تقريباً، بدأت مسألة إعداد سفرنا إلى بيليز تسير بعكس ما

كان مخططاً لها. اتصل بي كميلو هاتفياً، عند المساء، ليخبرني أن شوشو لن يستطيع مرافقتي. سيحل محله فرنسيّ لا أعرفه. فتملكني الغضب، (شككت خطأ بتدخل سانديني). بلّغت كميلو انني أفضلّ العودة إلى أوروبا. لقد غبت عنها زمناً طويلاً. بدا كميلو موافقاً معي، وقال لي إنه سيصطحبني في الصباح إلى شركة ك. ل. م. لاستلام بطاقتي. لكن شوشو هو من اتصل بي ذلك الصباح.

«ماذا حدث نهار أمس حتى تغيّرت مشاريعنا؟»

أجاب أنه سكر قليلاً ولا يتذكّر ماذا حصل.

«وذلك الفرنسيّ الذي يريدون إرساله معي؟»

أيّ فرنسيّ؟ لم يكن على علم بذلك.

اقترح الجنرال إرسالي في اليوم نفسه على متن طائرة خاصة برفقة امرأة كانت قنصلاً في الولايات المتحدة. التقيت بها أثناء الغداء المضجر في مزرعة اليوكا عام ١٩٧٦. بدت لي مزعجة بشكل غريب.

«لن أسافر إلى بيليز برفقتها. سأعود إلى أوروبا.

ـ سيخيّب أمل الجنرال. فهو مصرّ على أن تذهب إلى بيليز».

«جيّد. سنذهب إذاً بالطيران العادي، لكنه فات الأوان اليوم، ويجب أن التقي بغارسيا ماركيز في المطار».

اصطحبنا غارسيا ماركيز معنا لكي يتذوق شراب «اليونش» الذي تعدّه فلور. اتصل ماركيز من السينيوريال بالسفير الكوبي الذي دعانا جميعاً لتناول طعام الغداء في پيز دي أورو ـ خيار غريب بالنسبة لسفير شيوعي، ومع ذلك لم يأتِ هو. بعد أن انتظرنا أكثر من ساعة، راهنت أنا وماركيز على الغداء بلعبة «الوجه أم القفا». ربحت أنا. أثناء ذلك، ذهب شوشو ليتصل بالجنرال ـ كنت أتصورّ ياناما أحياناً كمثل ركام واسع من الخطوط الهاتفية، أو مزيج من الأصوات المتناقضة. وحسب الجنرال، فإن بريس

بانتظارنا، ذلك اليوم، في بيليز.

«وتلك المرأة، القنصل السابق؟

ـ لم يتكلّم عنها. على كل حال، أصبح الوقت متأخراً للقيام بأيّ عمل اليوم».

رأيت في طريق العودة جندياً يقود نمراً ـ أهو من نوع الفهد؟ أو تميمة للنمور؟

أُلغي السفر في اليوم التالي لأنه كان عليّ أن التقي ببعض طلاب المعارضة في أحد المقاهي. لم يصلوا في الموعد المحدَّد كمثل السفير الكوبي. إنهم حذرون مني دون شك لأنني صديق لعمر. وحده اليساري ذو الشاربين المسترخيين، جوان، وصل فجأة برفقة زوجته الفائقة الجمال. لم يتأخر شوشو عن اللحاق بنا. علمت أن جوان، كمثل روجيليو وشوشو، أستاذ في الرياضيات. وجدت نفسي محاطاً بالرياضيين. تناولنا غداء رديئاً في مطعم صيني، ثم شربنا كأساً من البونش السيء في الهوليداي إن حيث كان ضابط من البحريّة الأميركية يحتفل وحده بكأس كونه أصبح والد ـ الجدّ. ترتّب سفرنا إلى بيليز، حسب قول شوشو، لكن علينا أن نسافر باكراً. تذكرت الطائرة التي اخطأناها إلى ماناغوا، وطلبت وعداً من زوجة اليساري بأن توقظ شوشو.

وفت بوعدها. وفي تمام الساعة الخامسة والربع صباحاً رافقتنا إلى المطار أنا وشوشو. كانت رحلة طويلة وبطيئة إلى بيليز، تخلّلتها محطات في سان ـ جوزي، وسان سلفادور حيث كان المطار يغصّ بطائرات الصيد. لم أكن على ما يرام. لأن شوشو لاحظ، قبل سفرنا بالضبط، أن جواز سفره قد انتهت تأشيرته منذ سنتين: ليس لديه تأشيرة دخول إلى بيليز. وأخيراً، نحن في مهمة لحساب الجنرال، وسيترتب كل شيء.

كان هناك شخص لاستقبالنا لكي يرافقنا إلى المدينة التي تملك رغم

فقرها نوعاً من الاغراء المثير؛ بيوتها الخشبيَّة الجاثمة على أوتاد يزيد ارتفاعها على المترين فوق شوارع غارقة بالمياه، تحيط بها أشجار المنغروف الاستوائية. قد يكون مصدر هذا الاغراء شعور بالمؤقت، بالآنيّ، بإدراك العيش على حافة الدمار. إن مصدر الخطر على هذا البلد ليست غواتيمالا فحسب إنما المحيط أيضاً، الذي يبدو متغلغلاً بهدوء، لكن بانتظام، كمثل الأنصار الذين يتقدّمون، وسيحتلّون المدينة، ذات يوم، كما حصل في عام ١٩٦١ عندما ضرب إعصار «هاتيّ» بأمواجه العملاقة التي زاد ارتفاعها على الثلاثة أمتار.

كان موسم الأعاصير يقترب. نرى على الجدران ملصقات تذكرٍّ ببليتز في لندن، أو بأوبرا كورت ويل، عظمة وانحطاط مدينة ماهاغوني.

احتياطات في حال هبوب اعصار، ١٩٧٨

تنبيه إلى سكان
مدينة بيليز
المرحلة الأولى
١ ـ القسم الأحمر
تنبيه أوَّلي
المرحلة الثانية (أحمر ١)
١ ـ القسم الأحمر ذو الوسط الأسود
اقتراب الإعصار
المرحلة الثالثة (أحمر ٢)
قسمان باللون الأحمر ذو الوسط الأسود
سيصل الإعصار إلى الشاطىء في غضون ساعات
المرحلة الرابعة

القسم الأخضر
نهاية الاستنفار. مرّ الإعصار
مباشرة عمليات البحث والإنقاذ

توجد لائحة طويلة من الأسماء لفصل الأعاصير. كان معظمها بشعاً ـ من يهتمّ باختيارها؟ هذه السنة كانت اسماء أميليا، بيس، كورا، ديبرا، إيلّا، فلوسيّ، غريتا، هوب، إيرما، جوليت، كيندرا، لويز، مارتا، نورين، أورا، پولا، روزالي، سوزان، تانيا، ڤانيسّا، واندا؛ كنت أتمنّى لو أبقى بعض الوقت. وحده إعصار أميليا كاد ينغّص إقامتي؛ لن يكون بوسعي انتظار فانيسا وواندا كي ينهيا الخراب.

بدأت أدرك، أو بدا لي ذلك على الأقل، لماذا عمر يكنّ هذا العطف لجورج پريس ولمدينته المهدّدة. كان كل شيء يجري كما لو أنّ بيليز هي جزء أساسي من العالم الذي قرّر أن يعيش فيه عمر توريخوس، عالم صنع من مجابهات مع دول عظمى، من مخاطر وعدم ثقة بالغد: في وضع بيليز، خطر اجتياح غواتيمالي، أو عاصفة قادمة من الأطلسي. الشيء الوحيد الأكيد، بين يوم وآخر، هو أن يحتوي طبق الطعام على سلطة القريدس، الغذاء الوحيد الصالح للأكل الذي استطعنا اكتشافه في بيليز.

بعد تناول القريدس، نقلونا إلى بيلموپان (Belmopan) العاصمة الإدارية الجديدة المبنيّة خارج منطقة الأعاصير. ذكرّتني المدينة ببرازيليا صغيرة، مدانة، كمثل برازيليا، بأن تكون جامدة كواشنطن ولكن ليس بالجمال ذاته.

أوحى لي پريس في مكتبه بالرجل الخجول المتحفظ مع سمة التواضع التي نجدها غالباً عند الكهنة، كما لو أنهم يشكوّن دائماً بصدقهم. إلاّ أنه خلال النزهة الطويلة التي قمنا بها فيما بعد في سيارته اللاندروفر القديمة (السيارة الوحيدة التي يملكها) راح يناقش بحماس كمثل رجل حُرم لمدة

طويلة من إمكانية التعبير عمّا يريد. شاركني اهتمامي بتيلارد دي شاردن الذي أسكنته كنيستنا، وبهنز كونغ، وبإعجابي بتوماس مان. واتفقنا أيضاً على أن نصنّف من شارلوت إلى ويمر (Charlotte à Weimar) قبل «الجبل السحري».

قادنا بريس إلى الحدود الغواتيمالية، إلى ما بعد المجموعات (Mennonites) المنّونية، حيث تثنّت لنا رؤية وجوه توتونيّة قاسية التقاسيم، منطوية على ذاتها، ـ لا حريّة للنساء عندهم. ولا زواج خارجيّ. توقّفنا أمام الدمار الكبير لقبيلة مايا في خونتونيش حيث حاول شوشو، دون جدوى هذه المرة، إقامة الصلة بأجداده. تركناه وحيداً، للحظة، يصدر أصواتاً غريبة أمام الحجارة الضخمة التي لم تتجاوب معه وبقيت معدومة الإحساس.

«كتبت لك منذ بضعة سنوات»، قال لي بريس.

حاولت أن أتذكرّ لأيّ سبب أراد رئيس وزراء بيليز إقامة علاقة معي، لكن ذاكرتي بقيت خرساء مثل هياكل المايا.

«سألتك عن محتوى كتاب حقيبة الليل».

حقيبة الليل كان عنوان حكاية كتبتها منذ سنوات. خجلت من عدد الرسائل المتشابهة التي انتهت إلى سلّة المهملات. وانفرجت أساريري عندما تابع بريس: «سررت جداً لاستلامي جواباً منك.

ـ ماذا قلت لك فيه؟

ـ قلت لي أن الحقيبة لا تحتوي على أيّ شيء».

أتصوّر انه كان العنوان الغريب جداً في بيليز الذي دفع بي للإجابة على الرسالة، لأن اسم جورج بريس، في تلك المرحلة، لم يكن يعني شيئاً بالنسبة لي. مضت أكثر من عشر سنوات قبل أن أبدأ بالتدخّل بواسطة عمر بمسائل أميركا الوسطى. من الغريب أن نتصوّر أنّ مثل هذا الجواب

السخيف يمكن أن يكسبني صديقاً ـ وأنا مقتنع أنني كسبت صداقة جورج پريس خلال تلك الرحلة ذهاباً وإياباً إلى الحدود الغواتيمالية.

أقدّر هذه الصداقة جداً، لأنَّ پريس هو أحد القادة السياسيين الجديرين بالاهتمام في العالم اليوم؛ فهو مسؤول عن رعيَّة يقارب عددها ٤٠ ألف شخص تقريباً، من بينهم: مولَّدون بيض، وألمان، ومايا، وكاريبيون سود، وعرب، وصينيُّون، ولاجئون غواتيماليون يتكلمون الأسبانية.

استخدمت تعبير رعيَّة لأنني أعتقد أن پريس يتصوَّر بيليز على هذا الشكل. فهو كاثوليكي روماني من حيث الديانة، واشتراكي من حيث السياسة ـ مجال لا يرغب الخوض فيه أبداً. أراد أن يكون كاهناً. فدخل بعد خروجه من المدرسة، إلى مدرسة إكليريكية، غادرها لأن وفاة والده جعلته يتحمَّل مسؤولية إعالة عائلة كبيرة. ولا يزال يعيش ككاهن نوعاً ما، أعزب، يقيم في أحد البيوت الصغيرة العائمة على موتدة بيليز سيتي. يعود إليه كل مساء من بلموپان (Belmopan)، ويأوي إلى فراشه في الساعة التاسعة مساء كحدّ أقصى، لأنه يستيقظ في الخامسة صباحاً ليحضر القداس ويتناول القربان المقدّس. وفي الثامنة والنصف يكون في مكتبه في العاصمة الجديدة. وقد أطلعني على حلم سبق وأخبره إلى ف. س. نايپول عندما زار هذا الأخير بيليز: كان أثناء نومه ينظر باحتقار وغيرة إلى كاهن، يعرف أنه غير مرغوب فيه، يتلو القداس ويبارك القربان ـ طقس لا يحق له أن يمارسه.

خلال تلك الجولة الطويلة عبر بيليز، لم أتوقَّف عن تخيُّل هذا الكاهن الذي يعيش في قلب پريس. تشبه طريقة السلام عنده البركة إلى حدٍّ كبير. يوقف سيارته، في كل مرة يوقفه فيها أحد الهنود أو رجل أسود على رصيف الطريق. فهو النقيض الحقيقي للمزارعين المنونيين الذين نظروا إلينا أثناء مرورنا نظرة مفجعة التعبير تدين أساليبنا الكافرة.

على الحدود ملصق يعلن، بشكل عدائي، عن استقلال بيليز ـ يواجهه

ملصق غواتيمالي باللغة الإنجليزية: بيليز هي غواتيمالا. سُرَّ بريس جداً باجتياز الحدود برفقتي للذهاب إلى مركز الجمارك الغواتيمالي، لكي يناقش مع المعنيّين الذين استقبلوه كصديق قديم.

مررنا في طريق العودة بأورونج دولك تاون، التي هي بالكاد أكبر من قرية، لكن فيها قاعة للسينما وأكثر من فندق. كان بريس ينوي إقامة مهرجان للسينما فيها، لأن المكان موجود خارج منطقة الأعاصير. أخبرني أن بنيّته دعوة بعض النجوم ذوي الشهرة العالمية، لكنني أشك بأن يتحقق حلمه يوماً من الأيام. فوجئت بتصوّر النجوم جالسين كالأمراء حول طاولة القريدس قبل الذهاب إلى مشاهدة حفلة في صالة للسينما لا يزيد عدد مقاعدها على المئتين.

استوقفنا أحد الفلاحين في الطريق ليشرح لنا أن جهاز الراديو خاصته معطّل. سجّل بريس الشكوى. وأخذ الكثير من الملاحظات المتشابهة. وفي هذه الأثناء، كنّا نتابع الحديث عن آراء هانز كونغ حول عصمة ونظرة غوتيه إلى توماس مان.

تناولت مع شوشو، في ذلك المساء، طعام عشاء سيء من القريدس في مطعم صغير في أحد شوارع بيليز سيتي، واستمعنا إلى صراخ خطيب أسود في الشارع المقابل. اعتقدنا في البدء، أن هناك مهرجاناً للمعارضة المحافظة - تجوّل مناضلوها في المدينة على متن سيارات جيب كتب عليها «أونيون جاك» - لكن ذلك لم يكن صحيحاً. فقد كان تجمعاً دينياً. كان الخطيب يطرح نظرياته حول الأخلاق العائلية، ويوبِّخ الأزواج المتقلِّبين، طوفان بيليز الغضب. كان يبدو وعلى بُعد قارة من السفسطة اليانامية.

انتشر الخبر في الصحافة، في اليوم التالي: جرت محاولة انقلاب في نيكاراغوا؛ تمَّ توقيف ١٢ ضابطاً من الحرس الوطني وأكثر من مئة مدنيّ. سوموزا يهدّد بإطلاق النار على المضربين. صحيفة المعارضة في بيليز التي نقلت الخبر مع إشارة إلى «كاتب يُسمَّى غرين» أُرسل بمهمّة من قبل

الشيوعي توريخوس إلى رفيق دربه بريس لأسباب غير معروفة، ولا تبشّر بالخير طبعاً.

قرأت الخبر عن مهمّتنا، أنا وشوشو، في طريق عودتنا من كوروزال المدينة الصغيرة الواقعة في الشمال على الحدود المكسيكية. أخبرني بريس أن الدكتور أوين، وزير الخارجية الإنجليزي يومذاك، والمفوض السامي البريطاني في بيليز، يرغبان بحماس مناقشة اتفاق مع غواتيمالا، غير مقترحين اقتطاع شريط من الأرض الساحلية. «كيف يمكن لبلد صغير لا يزيد عدد سكّانه على ١٤٠ ألف نسمة أن يفاوض؟ تساءل بريس. إمّا أن نقاتل إمّا أن نستسلم». إذا ما قدّمنا غواتيمالا على طبق من فضة، كقطعة حلوى، فلن تتأخر المكسيك عن المطالبة بحصتّها، من جهة كوروزال، ولن يبقى ساعتئذٍ إلّا القليل من بيليز. ومعظم الإشاعات الكاذبة عن وجود مخزون من البترول على امتداد الشاطىء لن تؤدي إلّا إلى ازدياد الخطر.

كان علينا أن نذهب، أنا وشوشو، في اليوم التالي إلى كوستاريكا، حيث كان شوشو على موعد مع أحد القادة الساندينيين. استمعنا قبل سفرنا إلى الاستشارة الأسبوعية لرئيس الوزراء في بيليز سيتي. استمعنا إليه يعالج مشكلات ناخبية. تذمّرت إحدى الفلاحات العجائز من وجود فجوات في مسكنها يتعذّر إصلاحها. وعدها بريس بترميم فوريّ. صفقّت المرأة بيديها وأعلنت أنها ستقيم احتفالاً في منزلها المجدّد لتحتفل بالحدث.

تناولنا، قبل الذهاب إلى المطار، طعاماً بيليزياً نموذجياً ـ لا خيار إلّا بين القريدس أو الهمبرغر. إنّ الشيطان أو الإهمال، وليس المشروب، حسب قول شوشو، هو ما يجعلنا نركب الطائرة المشؤومة للمرة الثانية في حياتي. أصبنا بعطل لبضع ساعات في سان سلفادور بانتظار تغيير الرحلة. قاسينا المحنة مسلحين بصبرٍ منهك ـ ما من شيء يمكن أن يقنعنا بمغادرة مركز أمن المطار. تضرّعت لكي لا يعرف أحد من الناس المحيطين بنا وجه شوشو وعلاقاته مع الساندينيين.

كان شوشو يحتقر كوستاريكا، الدولة الوحيدة التي لا تملك جيشاً في أميركا الوسطى، مع أن البلاد تسهِّل بطبيعتها نشاطات رفيقي السريَّة: استغلَّ طائرته مراراً عديدة لينقل بواسطتها أسلحة إلى الساندينيين على الحدود مع نيكاراغوا. اعتقد أن سهولة العملية ذاتها كانت تثير أعصابه. أراد، على الأقلّ، أن يعرّفني إلى كوستاريكا، منذ زمن طويل، لكي استطيع أن أفهم احتقاره لها وأشاركه إيّاه.

من المؤكد أن سان جوزي بدت لي تحت وطأة الأمطار الغزيرة مدينة حزينة كئيبة. وقد أثارني أحد اتصالات شوشو المشبوهة، الذي أصرَّ على انتقالنا من الفندق إلى مطعم اختاره شخصياً، في الطرف الآخر من المدينة. بلَّلت الأمطار ثيابنا، وكان الأكل رديئاً مثلما هو في أيّ مكان آخر في بيليز. وهم يطلقون على كوستاريكا لقب سويسرا أميركا الوسطى ـ وهذا تشويه لإسم سويسرا طبعاً.

اتصل شوشو، في اليوم التالي، وكنّا في أحد المقاهي، برجل طويل القامة، سكوت، ومهيب، جاء برفقة فتاة مغرية جداً، بدا لي أنني التقيت بها في السنة السابقة في ذلك الماخور مع بعض اللاجئين الآخرين. تجاذبنا أطراف الحديث معاً، ونحن جالسين حول طاولة بعيدة، بعض الشيء، عن شوشو ورفيقه لكي لا استمع إلى أية كلمة من حديثهما. والتقيت بالزوجين بعد أربع سنوات في ماناغوا، وعرفت أنهّما دانيال أورتيغا رئيس المجلس السياسي النيكاراغوي، وزوجته روزاريو.

رجعنا بعد الظهر إلى باناما. وبعد يومين، بعد أن قدَّمت تقريري إلى عمر عن زيارتنا إلى بيليز، ودَّعت شوشو مرة أخرى على أرض المطار، قبل أن استقلَّ طائرة الـ ك. ل. م. إلى أمستردام. لم يكن لديَّ شيء خاص أقوله للجنرال في آخر لقاء لنا ـ عدا استلطافي لبريس وحقدي على أعدائه المحافظين، مع اتهاماتهم المسعورة ومناهضتهم العنيفة للاستقلال، وصراحتهم الخادعة تجاه «الأنيون جاك».

كانت إحدى صفات عمر التي تزيد من تعلقك به، هي رغبته في معرفة ما يفكّر به الآخرون بالأشخاص الذين يتعامل معهم. لم يكن مستاءً مني تجاه حذري من رئيس هيئة أركانه الكولونيل فلوريس (Flores)؛ كان يسجّل ذلك فقط.

بالواقع، كان يكنّ احتراماً مبالغاً فيه لتلك الرؤية الغريزيّة للأخلاق الإنسانية التي تلازم ربّما الكاتب الخيالي. يشعر بالاطمئنان عندما يلاحظ أن ماركيز وأنا، لنا الميل ذاته الذي يكنّه تجاه نفس الرجل أو المرأة. «ما رأيكما «بأونيتل»؟» سؤال كان يطرحه علينا ـ بمنتهى البساطة. وهو مخلص لأصدقائه ـ كان يرى في تينو صورة أبوّية، ويرى في فيديل كاسترو الذي خاض المعركة نفسها التي يحلم هو بها، صديقاً حميماً. لا شيء مما كان بالإمكان قوله يستطيع أن يغيّر في رأيه، لكنه يشعر بالارتياح إذا ما توافق رأينا مع رأيه. كان سعيداً بأن جورج بريس قد أعجبني: وربما أرسلنا إلى بيليز بهذا الهدف الوحيد ـ لكي يلتقي صديق له بصديق آخر.

القسم الرابع

١٩٧٩ ■ ١٩٨٠

١

في عام ١٩٧٩، أشرفت الحرب الأهلية في نيكاراغوا على نهايتها. هرب سوموزا المهزوم، وتسلَّم الساندينيون السلطة. لم يعد لديَّ أيّ أمل بالعودة إلى باناما.

ولو أنني تلقيت بمرارة خسارة صديقيَّ عمر وشوشو، هناك أسباب جديَّة هامّة تبقيني في فرنسا: أجريت لي، في شهر آذار، عملية جراحية في الأمعاء. وبعدها مباشرة، دفعت بي بعض الأحداث إلى كتابة مقالي النقدي، إنني أتّهم، فأثرت على حياتي الخاصة وحياة أقاربي.

إن ساحة المعركة اليوم، هي بالنسبة لي، في فرنسا، وليس في أميركا الوسطى. انخرطت في معركة قاسية للدفاع عن أمّ شابة، ابنة أحد أفضل أصدقائي، وولديها القاصرين. كان العنف يطرق على بابي، ليس بعيداً جداً من هنا، في الجهة الأخرى من الحدود. لم يكن لديَّ الوقت لأخصصه للسياسة الأميركية - الوسطى. فضلاً عن أنني بقيت لبضعة أشهر بعد العملية الجراحية رجلاً متعباً، يجب أن يوفر قواه. لم يكن بوسعي تحمّل مشقّة الرحلة الطويلة إلى باناما. لكن المرء، في النهاية، عندما يتخذ موقفاً يتمسك به مهما كانت النتيجة. لم يكن سهلاً عليّ التخلّص من التزامي. لم استطع الذهاب إلى باناما، إنما عادت باناما إليّ. فقد أيقظني الهاتف في

آخر يوم من شهـر نيسان في السـاعة الـواحدة فجـراً. إنه صـوت شوشـو:
«غراهام، اعتقدت انك غير موجود.

ـ كنت غارقاً في النوم، يا شوشو، أين أنت؟

ـ في باناما طبعاً. لديّ رسالة لك من الجنرال. لقد أرسـل لك شخصـاً ما. سيصل إلى أنتيب في الأيـام المقبلة. يعلّق الجنـرال أهمية كـبرى عـلى لقائك به.

ـ في أيّ يوم؟

ـ لست أدري. لقـد غادر بـانامـا. يجب أن يكـون في المكسيـك الآن. سألني الجنرال، البارحة، متى ستأتي إلى باناما.

ـ لا أستـطيع يـا شوشـو. ليس في هذه السنـة. كنت مريضـاً. عنـدي بعض المتاعب هنا. لا استطيع أن أتغيّب عن البلاد.

ـ لكنك سوف تلتقي بموفد الجنرال؟

ـ بكل تأكيد».

بعد يومين، وبينما كنت ذاهبـاً إلى الفراش، رنَّ جـرس الهاتف مجـدَّداً. أخبرني المتحدث أنه يحمل رسالة من الجنـرال. حددّت لـه موعـداً في اليوم التالي. عرفت فيـه، لدى وصـوله، شـابـاً سبق وشـاهدتـه ذات مرّة بـرفقة الجنرال. سألني إذا كنت قد قرأت في الصحف، منـذ حوالي الشهـر، قصة مصرفيينً إنجليزيين خطفهما الثوار في السلفادور.

«ـ نعم. أذكر ذلك.

ـ يخشى الجنـرال أن تكون حيـاتهما في خـطر. يبدو أن المصرف قـد فقـد الصلة مع الخاطفين. يطلب منـك أن تتصل بمـركزهم الاجتـماعي في لندن لتبلغهـم أن الخـاطفين مستعـدون للتخـلّي عن اثنـين من شروطهـم. الشرط الأول هو إطلاق سراح ستة من رفاقهم. فقـد تأكـدوا من موتهم. والشرط

الثاني يتعلق بنشر بيان في الصحـافة المحليـة والعالميـة. يبقى الشرط الثالث وهو ماليّ الطابع: يجب ألاّ تطلع المصرف على مصدر معلوماتك.

ـ لكن عن أيّ بنك تتحدّث؟

ـ بنك لندن!».

أعرف بنك إنجلترا. لم أسمع ببنك لندن.

«ـ هل أنت متأكد من الاسم؟

ـ نعم. نعم. المسألة مستعجلة جداً».

لم أشعـر بنفسي سعيـداً، يـومـاً من الأيـام، أكـثر من امتـلاكي لعـدد «ويتيكـرز ألمانـاك»: فقد سـاعدني عـلى تحديـد البنك المعنيّ، بنـك لندن، ومونريـال، وفرع من لـويدز انـترنشيونال ومركـزه في ناسّـو. على الأقـل، شعرت أنني متخلّف في عالم البنوك.

«أتريد أن تـرجع في السـاعة السـادسة والنصف لنتنـاول العشاء معـاً؟» سألت الشاب.

تذكّرت أن ابن أختي غـراهام، وهـو رجل إداريّ في دار نشر جوناثـان كيب (Jonathan Cape)، كـان على عـلاقة مـع الفرع المـالي التابـع لعائلة غـاينيس. اتصلت، بناءً عـلى نصيحته، بـالسيد «و» الـذي يتـابـع عملية الخطف. كان النقاش متردداً ومحرجاً.

«كيف عرفت ذلك؟

ـ لديّ مصدر خاص جداً، لا استطيع أن أقول لك أكثر من ذلك».

كـان الصمت على الـطرف الآخر من خطّ الهـاتف يخفي حـذراً طبيعيـاً جداً. فعنواني في أنتيب، ومهنتي كقصصي بَدَيا، بنظر السيّد «و»، بعيـدين عن مسألة خطف في السلڤادور.

حـاولت أن أظهـر مقنعـاً بقـدر مـا يمكن. «أمضيت، خـلال السنـوات

الثلاث الأخيرة، وقتاً طويلاً في أميركا الوسطى. لديّ عدد كبير من العلاقات.

ـ لماذا، حسب رأيك، قد تخلّوا عن هذين الشرطين؟

ـ أعتقد أنهم لا يريدون قتل الرجلين».

أجاب صوت السيد «و» الجاف: «هذا هو انطباعنا نحن أيضاً.

ـ أعتقد أنني فهمت أنكم فقدتم الصلة بالثوار.

ـ نعم.

ـ لقد أعطوني رقم هاتف في المكسيك. يجب أن تتصّل بهم...».

عندما رجع الشاب، في ذلك المساء، اخبرته بما دار بيننا من حديث. رفع يديه وقال بلهجة المسرور: «أنجزت المهمة.

ـ هل تحبّ أن تتصل ببانااما؟

ـ لا. أريد أن أتّصل بالمكسيك، إذا سمحت».

بعد لحظة قصيرة وضع السمّاعة وقال: «لقد اتصل البنك».

اقترحت، أثناء العشاء، أن نلتقي مرة ثانية في اليوم التالي قبل أن يغادر البلاد: سأريه أنتيب القديمة. وافق، لكنه لم يأتِ.

وعندما اتصلت بالفندق الذي يقيم فيه، كان قد ركب الطائرة باتجاه أميركا الوسطى. تمَّ اطلاق سراح المصرفيين بعد بضعة أسابيع. فقد تملّكني للحظة قصيرة أمل مرتزق، انني سأتلّقى مقابل اعطاء رقم الهاتف السرّي، صندوقاً من الويسكي من لويدز انترنشيونال، لكنني سرعان ما أصبت بالخيبة. اعتقد المدراء، كما أظنّ، أنني قبضت عمولة من الثوار على مبلغ الخمسة ملايين الذي دُفع حسب معلوماتي كفدية.

لست أدري كيف اكتشفت هوية المراسل في المكسيك ـ إنه صديقي

غبريال غارسيا ماركيز الذي كان يحاول يومها تأسيس منظمّة من نوع «أمنيستي انترناسيونال» لأميركا الوسطى.

شغلتني حربي الخاصة طيلة تلك السنة. أنهيت، مع ذلك، بصعوبة قصّة قصيرة بعنوان الدكتور فيشر من جنيف. كان قد حلّ فصل الصيف عندما اتصل شوشو، بواسطة الهاتف مرة أخرى، ليسألني متى سأصل («يريد الجنرال أن يعرف»)، لم استطع إلاّ أن أجيب: «ليس في هذه السنة، قلت لك أن ذلك غير ممكن. إنني أرغب بالمجيء طبعاً. ربّما في السنة القادمة...»

٢

ذات مساء من كانون الثاني عام ١٩٨٠، رنّ جرس الهاتف فيما كنت متوجهاً إلى الفراش. سمعت صوت امرأة يقول: «إن السيد شيرر يريد التحدث إليك». كنت نصف نائم. ذكرني ذلك الاسم بمخرج سينمائي تعرّفت إليه سابقاً لكن من تكلّم معي كان مجهولاً.

ـ «السيّد غرين؟

ـ نعم. أعذرني، من أنت أيها السيّد شيرر؟

ـ قائم بأعمال أفريقيا الجنوبية في باريس. اعتقدنا أنه بإمكانك مساعدتنا.

ـ أساعدكم؟

ـ ربّما قرأت في الصحف أن سفيرنا في السلفادور، السيّد دون، قد اختطف منذ بضعة أشهر. لم نتمكن من الاتصال بالخاطفين. نعتقد أن بوسعك أن تساعدنا».

ـ «أساعدكم»، ردّدت من بعده. تصوّرت فجأة أن أنتيب أصبحت

جزيرة صغيرة راسية على شواطىء أميركا الوسطى، ومتداخلة مع كل مشكلات المنطقة.

«هناك فعلياً صلة مفيدة مع المكسيك، لكنني لم أعد أملك رقم هاتفه. مزّقت الورقة. يمكنك الاتصال بالسيد «و» في لويدز أنترنشيونال. . . لقد أعطيته الرقم ذات يوم، ربّما لا يزال يحتفظ به». اتصل بي السيّد شيرر، بعد نصف ساعة، ليعطيني الرقم. لم يكن لمهمتي أن تتوقّف عند هذا الحدّ.

انتظرت بضعة أيام حتى تمكنت من الاتصال بغارسيا ماركيز. قال لي: «سفير أفريقي جنوبي؟ سيكون ذلك أمراً صعباً للغاية.

- إنها مسألة إنسانيّة، وليست سياسية. فهو رجل مريض، وزوجته تحتضر بسبب داء السرطان». (سبق أن أعطاني السيد شيرر هذه المعلومات).

«كان من الضروري معرفة أية من مجموعات الثوار الخمس المختلفة هي التي تحتجز السيد دون».

اتصل بي ماركيز بعد أيام معدودة قال: «يبدو أن جبهة التحرير الشعبي هي المعنيَّة. من المفيد أن تقوم عائلته بالصلة مباشرة - وليس حكومة أفريقيا الجنوبية، لأسباب واضحة».

أخبرني السيد شيرر أنه سينقل هذه المعلومات إلى بريتوريا. ثم أضاف: «لكن هذا الأمر يطرح بعض المشكلات؛ الزوجة على فراش الموت، والولد «هيبي»، والإبنة لا تزال صغيرة.

- ألا يمكن إيجاد أحد يطالب وكأنه أحد أفراد العائلة؟».

لم أعد أسمع شيئاً عن الموضوع، لفترة طويلة، لكنني رضخت لضغوط شوشو، وسافرت في ١٨ آب، مرة جديدة إلى پاناما في الساعة العاشرة

والنصف ليلاً، بعد أن أمضيت ٨ ساعات في قاعة فان غوغ في مطار أمستردام - في الحقيقة، بدأت أتأقلم. كتبت قبل سفري رسالة إلى السيد شيرر، أخبرته فيها انني قد أساعده خلال إقامتي هناك. قال لي إن القضية أصبحت منذ الآن بين أيدي واشنطن. تمّت الصلة مع الثوار. ومن الأفضل أن ألزم الحياد.

٣

كان شوشو ينتظرني، في صبيحة اليوم التالي، في المطار. أرخى لحيته فطالت، لكنه باستثناء ذلك لم يتغيّر فيه شيء خلال السنتين الماضيتين. يحمل لي أخباراً كثيرة. يريد الجنرال أن أسافر بعد يومين إلى نيكاراغوا، ممّا يناسب شوشو جداً، لأن اثنين من أولاده، أعرفهما جيداً، قد سافرا مع والدتهما ولا يزالان هناك. الفتاة تتابع دراستها، وتريد الانخراط في الجيش. وشقيقها الأصغر ينتمي إلى حرس توماس بورج. انطلقت رصاصة خطأً من سلاحه فأصاب فخذه.

انقلبت كالعادة رأساً على عقب كل برامجنا في پاناما بسبب المكالمات الهاتفية المتعددة التي تخلّلت جلسة كؤوس الپونش الباهظة الثمن والسيئة التحضير. فقد تحوّل، مع الأسف، السينيوريال، هو أيضاً إلى مصرف. حاولنا عبثاً العثور على فلور، خبيرتنا الشابة في تحضير البونش. تنمو البنوك في پاناما كالاعشاب في الحديقة بلغ عددها ١٣٠ بنكاً تقريباً، وهذا وضع مستغرب بالنسبة لبلد صغير يحكمه اشتراكي ديمقراطي. على كل حال، تأخرَّ موعد رحلتي إلى نيكاراغوا، لأن سلڤادور كايتانو زعيم جبهة التحرير الشعبيّة المعروف باسم مارسيال موجود في پاناما ويرغب في مقابلتي.

هناك أخبار شخصية أكثر: تزوَّج شوشو مرة أخرى، من شقيقة ليديا زوجة روجيليو السانديني. أنجب منها ولداً. ويقيم الجنرال مع الإمرأة الشابة التي التقيت بها منذ سنتين، والتي كان لديها هي أيضاً طفلها. وبعد

الولادة قال عمر لشوشو أن عليه هو أيضاً أن ينجب طفلاً، فأطاع شوشو الأمر ونفَّذه كحارس مخلص أمين.

وشوشو يقدّر فكرة خيالية أخرى لدى الجنرال، وهي اطلاق سراح السيدة بيرون من محلّ إقامتها الجبريَّة في الأرجنتين. عرَّفني إلى محامي السيدة إيزابيلا، القادم من بيونس أيرس. وشوشو لا يثق به أبداً.

ذهبنا معاً لمقابلة نائب الرئيس ريكاردو دي لا إسبيريللا الذي حرَّر لنا بدوره، على الفور، شيكاً بقيمة عشرين ألف دولار. صرفه شوشو في البنك وسلَّم المبلغ إلى المحامي قائلاً لي: «لن نرى هذا الرجل بعد اليوم». وحسب خطط الجنرال، سوف يستخدم هذا المبلغ لشراء حرس السيدة بيرون لكي يخففوا من رقابتهم عندما ستهرب إلى المطار حيث ستنتظرها طائرة بانامية. بعد بضعة أشهر أطلقت الزمرة الأرجنتينية سراحها بشكل طبيعي، وطارت إلى مدريد. وتؤكد هذه النهاية، على الأرجح، توقعات شوشو.

كان برنارد دييدريش قد رجع هو أيضاً إلى پاناما. وبما أن شوشو ينتظر، بالقرب من الهاتف، مكالمة من الجنرال، اقترضنا سيَّارته لنقوم بنزهة في ما كان يسمَّى منذ ثلاث سنوات بقطاع القناة. يبدو أن الأمور لم تتغيَّر. مع ذلك، يرفرف العلم الپانامي الآن فوق هضبة أنكون (Ancon)، ومكاتب شركة القناة. شربنا نوعاً ممتازاً من الپونش، وأكلنا أيريش ستيو معفّن في نادي «أميركان ليجيون»، برفقة صديق نيوزلندي صديق لدييدريش - رجل غامض جداً يتجنَّب الأجوبة على الأسئلة المباشرة. هل خاف من مراسل التايم، أم منّي أنا بالذات؟ لست أدري.

تناولنا طعام العشاء، ذلك المساء، مع الجنرال وصديقته. قدَّم لي عمر طفله باعتزاز - ابنة صغيرة. ثم قال لرفيقته مازحاً: «عندما أتمكّن من التعامل معها لن أعود بحاجة إليك». شربنا كثيراً في تلك السهرة. كان

معنا، هناك، بويد الوزير السابق للخارجية، وشاعر لم أعد أتذكر اسمه. لم يسبق لي أن شعرت بمقدار ما شعرت بأن عمر هو رجل وحيد، ودّي للغاية، متعلّق بالكتب وبالصداقة في الوقت نفسه، وبذات الحماس، كما لو أنه في الحالين لم يملك وقته الكافي. غضب، في لحظة ما، لأنني توجهت إليه وفقاً للأصول بحضور شخص غريب: «لا أحبّ أن تدعوني، الجنرال، أنا عمر بالنسبة لك». سألني رأيي في نائب الرئيس. «جيّد جداً». قلت. فبدا مرتاحاً. ربّما تذكرً رأيي بالكولونيل فلوريس.

كان علينا أنا وشوشو وديبدريش أن نسافر في اليوم التالي إلى نيكاراغوا بدعوة من توماس بورج، لكنه توجّب عليّ أن التقي أولاً بمارسيال زعيم جبهة التحرير الشعبية. أبلغني الجنرال أن مارسيال موجود في پاناما لحضور اجتماع مجموعات الثوار الخمس، الهادف إلى تحديد ما يعتقدونه الهجوم النهائي.

جاء مارسيال إلى فندقي برفقة ضابط شاب من الشرطة. كان رجلاً قصير القامة ناضج العمر، مع نظارتين؛ ويداه صغيرتان، ورجلاه قصيرتان. وإذا كان نظره يخفي شيئاً من عدم الثقة فذلك واضح جيداً ومفهوم ـ فوراءه تاريخ طويل من حياة السجن والتعذيب. اعترف فوراً، تقريباً، ان اسمه الحقيقي هو كايتانو، واقترح أن ندخل إلى غرفتي بمعزل عن رجل الشرطة. جلس على طرف سريري، وباشر بالموضوع فوراً: «علمت من المكسيك انك تهتم بمصير سفير أفريقيا الجنوبية».

قدرّت ضعف اللعبة التي أمسك بها. «لأسباب إنسانية بحتة. فزوجته على فراش الموت بسبب إصابتها بالسرطان». سبق ولعبت هذه الأوراق مراراً في المحادثات التلفونية مع المكسيك لأعود وأكررّها الآن. أصغى مارسيال إليّ بمنتهى التهذيب. تلا ذلك صمت طويل مزعج، بينما حاولت عبثاً أن أجد ورقة أخيرة استخدمها. شعرت بالارتياح عندما بدأ بالكلام. أكدّ لي أن كل شيء، حسب تعابيره الخاصة، يسير على ما يرام: لم يعد

هناك سوى بعض التفاصيل للمعالجة، كالفدية مثلاً. اقترحت اسمين لرجلين من أصحاب الملايين في أفريقيا الجنوبية، ربّما هما على استعداد لتقديم المساعدة. لم يسمع باسميهما من قبل. أصبح أكثر إنسانية، وراح يبتسم لي من وقت لآخر، وتصوّرت شعاع صداقة يلمع في عينيه، بدا لي في اللحظة الأولى بارداً. قال لي إن أربعة من أصدقائه ينتظرونه في الخارج - تذكّرت أن هناك خمس مجموعات من الثوار في السلفادور. هل يستطيع أن يدعوهم ليصعدوا؟ وافقت. وانضممنا إلى رجل الشرطة في قاعة الاستقبال.

الثوار الأربعة في ريعان الشباب. طلب كايتانو من أحدهم أن يتكلم معي بالإنجليزية. انطلق الرجل في محاضرة لا نهاية لها، ومرهقة، على سبيل الدعاية. عندما أنهى كلامه، سألتهم عن مقتل بعض الفلاحين. شرحت لهم أن هذه الاغتيالات التي تتحدّث عنها الصحافة تسيء إلى قضيّتهم في الغرب. أجاب كايتانو، «انه بالإضافة إلى ذلك، يجب وضع كلمة فلاح بين مزدوجين. إنهم جواسيس ووشاة».

فكرّت بالسفير المخطوف. حاولت أن أتصوّر وسيلة تساعده. إذا ما توصلت إلى اقناع هؤلاء الرجال فأستطيع أن أكون مفيداً لهم، عندئذٍ... بطريقة ينقصها الإقناع، أوحيت إليهم أنهم سيعانون من «التشويه الإعلامي» الذي يزوّد به اعداؤهم الصحف الأوروبية: إذا زوّدوني بالمعلومات الدقيقة فسأحاول نشرها. افترقنا على هذا الأساس. وبقيت بدون أخبار منهم. فشل الهجوم النهائي. وصل بعد بضعة أشهر نبأ تأكيد موت السفير إلى أوروبا. كان رجلاً مريضاً، رهينة تعيسة، جرى نقلها من مكان إلى مكان طوال أشهر. كتب لي السيّد شيرر من پريتوريا: «أن كل شيء مأخوذ بعين الاعتبار، ونحن نميل إلى الاعتقاد بأنه «لم يُعدم» كما ادعت المنظمة التي تضمّ المجموعات الخمس للثوار، لكن موته كان على الأرجح طبيعياً بقدر ما يمكن أن يكون في مثل هذه الظروف. ليس

هناك، بالطبع، أيّ دليل. لم يُعلن عن مكان وجود الجثة». مضت سنتان قبل أن أرى كايتانو ثانية، وجرى اللقاء الثاني في نيكاراغوا قبل وفاته بقليل، ذلك الموت الذي بقي لغزاً غامضاً.

٤

غداة اليوم التالي، نقلتنا طائرة الجنرال الشخصية، أنا وشوشو وديبيدريش، إلى ماناغوا. قرَّر عمر أن يتبع تعليماتي في السرّاء والضرّاء. وفي هذا المنظور حصل على دعوة من توماس بورج.

ماناغوا مدينة غير موجودة تقريباً. وسطها مدمَّر كلياً بسبب الهزَّة الأرضية، وقد أفاد منه سوموزا كثيراً، ولم يرمّم شيئاً. وبدل أن يستخدم أموال المساعدات العالمية التي أُرسلت إلى نيكاراغوا لإعادة بناء العاصمة، وضع سوموزا المبالغ في جيبه. لم يبقَ من وسط المدينة سوى الكاتدرائية وهي نصف مهدَّمة، وفندق الانترناسيونال، ومطعم مكسيكي صغير، والقصر الوطني الذي استولى عليه إيدن باستورا، و«البونكر» حيث قضى سوموزا بين النيران آخر أيام رئاسته. فاندفعت حياة ماناغوا كلها نحو الأطراف، على مسافة نصف ساعة في السيارة.

كانت ماناغوا تستعدّ يوم وصولنا لاستقبال حدث هام جداً. قررَّت الحكومة الساندينية قبل ستة أشهر، وفي إطار الجهد لخفض نسبة الأميَّة إلى ٥٠٪، أن ترسل إلى الأرياف خمسة آلاف تلميذ ليعيشوا ويعملوا مع الفلاحين، ويعلّمونهم في المساء القراءة والكتابة. فقد سجِّلت خسائر فادحة بين الأولاد خلال فترة الأشهر الستة هذه: مات خمسون من بينهم بسبب الأمراض. وقُتل سبعة على أيدي زمرة سوموزا المتجمعين في هندوراس حيث ينشطون بطمأنينة وأمان. مع ذلك، جاءت نتائج هذا العمل مذهلة:

انخفضت نسبة الأميَّة، حسب التأكيدات، من ٥٠ إلى ١٣٪. كان

سكان ماناغوا مستعدّين في ذلك اليوم لاستقبال الشباب العائدين بهتافات ليست أقلّ روعة. سيجري الاحتفال في مسرح فسيح في الهواء الطلق، وهو من بقايا الهزة الأرضية، يستوعب ٦٠٠ ألف مشاهد (وقوفاً طبعاً).

شرحوا لمجموعتنا الصغيرة أن فندق الانترناسيونال مليء بالزوّار القادمين للمناسبة، واصطحبونا إلى منزل مريح جداً، يقع خارج المدينة، حيث أحضروا خادمتين جميلتين تهتمان بنا. في المطار، استقبلتنا ماريا إيزابيلا، مما لم يرق لشوشو؛ فبعد أن انفصلت عن كميلو راحت تعمل مساعدة لتوماس بورج. تبدو بلباسها العسكري أجمل ممّا كانت عليه قبل سنتين. حضرت الخادمتان لنا طعام غداء بسيط وممتاز، لكنني كنت عكر المزاج. وجدت نفسي معزولاً عمّا اعتبرته خطأً قلب النشاطات. لن أقدُر إلى أية درجة كان وسط المدينة غير موجود. في الحقيقة، بدوت أنني مرتاب عن غير حقّ: اعتقاداً منّي أن هذا الإبعاد يخدم هدفاً محددا، وكنت على وشك أن أعتبره إقامة جبريّة فخمة. ولكي يهدىء من روعي، اتصل ديدريش هاتفياً بمدير فندق انترناسيونال، وهو يعرفه منذ أيام الحرب الأهلية، ورتّب انتقالنا إلى الفندق في اليوم التالي، بعد رحيل الزوّار الذين جاؤوا للمشاركة في الاحتفال الكبير. سررت لفكرة أننا سندفع نحن إيجار غرفنا، ولن نكون على حساب الساندينيين. واتجهنا بالسيارة، بعد تناول طعام الغداء، إلى ماناغوا.

حجزوا لنا مقاعد على المنصّة من الجهة المشمسة. يبدو أن الحرارة المرهقة لم تحطّ من عزيمة الجماهير الهائلة التي تجمعت في الباحة. بالكاد يمكن للمرء أن يتحرّك. جلس الوزراء على المنصّة، وكذلك أعضاء المجلس السياسي، ورئيس كوستاريكا. مشى التلامذة، كل مجموعة وراء يافطتها، أمام المنصة، وسط عاصفة من التصفيق. استمعنا بعدها إلى خطاب دام ثلاث ساعات. إن ثورة مكلّلة بالنصر تبدو مميّزة دائماً بخطابات طويلة، كما أن الحرب تتميّز دائماً بفترات انتظار طويلة.

كان أول المتكلمين رئيس كوستاريكا. فقدَّم كاشتراكي ديمقراطي جيد، دفاعاً مؤثراً لصالح الانتخابات القادمة. أصغى إليه الجالسون على المنبر بصمت مغمٍّ وباستهجان. ولم يظهر الحضور أيَّ حماس له. عندما يأتي النصر، في أميركا الوسطى، عن طريق الكفاح المسلَّح في ظروف بطولية، فالكلام عن «انتخابات مقبلة» لا يشكل شعاراً يحرِّك الجماهير. اعتلى أجنبي آخر المنبر، هو أسقف كويرناڤاكا، المعروف في المكسيك باسم «الأسقف الأحمر». لم ينجح أيضاً في إثارة الحماس. ثم جاء دور قائد الجيش، وزير الدفاع: أومبرتو أورتيغا. بدأ بالإعلان بوضوح أنه لن تكون هناك انتخابات قبل عام ١٩٨٥. قوبل هذا الكلام بحماس شديد من الجمهور، كما من الطبقات المتوسطة الموجودة على المنصَّة، فقد وجدوا في ذلك وسيلة لإظهار عدم تأييدهم للرئيس الكوستاريكي. كان كل شيء يجري كما لو أن الرجال الموجودين على المنصَّة أرادوا بتصفيقهم أن يؤكدوا ولاءهم للجماهير، بينما الجمهور بدوره ردَّ لهم بادرتهم بتصفيق حادّ وبهتاف: «لا انتخابات قبل عام ١٩٨٥» ـ هذا هو شعار ثوريّ يستطيعون فهمه.

بقيت محيَّراً قليلاً بطريقة ردَّة الفعل هذه، إلى أن استعدت في ذاكرتي معنى كلمة انتخابات في نيكاراغوا. لقد أجرى سوموزا، خلال فترة حكمه الطويلة، انتخابات عديدة: كان ينتصر دائماً بأكثرية ساحقة ممَّا يعطيه، بنظر الولايات المتحدة على الأقل، مظهر شرعية لديكتاتوريته. فبالنسبة لمعظم المشاركين تعني كلمة «انتخاب» مرادفاً «للتزوير». «لا انتخاب» يعني وعداً بأنه لن يكون هناك تزوير.

تكلَّم أورتيغا بإسهاب بعد أن سجَّل نجاحاً شعبياً في الافتتاح. دام خطابه أكثر من ساعة. وليس عند الخطيب ما عند فيديل كاسترو. فقد انتباه مستمعيه. بدا الجمهور يتململ بعصبيَّة. وصلت ضجة بعض الوشوشات إلى المنصَّة. وظهر الحضور في تناقض. حاول كثيرون الخروج للذهاب إلى بيوتهم. ثم قام توماس بورج، وهو ظلّ صغير، وبدأ بخطابه

بعد أورتيغا. تأهب الجمهور. واتجهت كل الأنظار مجدداً نحو المنبر، وتوقفت الوشوشات. لم يتكلم سوى خمس دقائق. لم تفت الجمهور كلمة واحدة.

كانت أشعة الشمس لا تُحتمل. ظهرت غيمة صغيرة مليئة بالمطر لفترة قصيرة ثم توارت. قررّنا الانصراف بعد كلمة الخطيب التالي. إنها امرأة فلأحة، ناضجة العمر، تستحق أن نستمع إليها. تعلَّمت القراءة والكتابة على أيدي التلامذة أثناء حملة محاربة الأميّة. راحت، أمام الجمهور الذي حبس أنفاسه، تتلو نصاً من تأليفها هو قصيدة رائعة. فخطرت في ذاكرتي جملة قالها شوشو: نيكاراغوا هي دولة شعراء.

التقينا بولدي شوشو أمام المنصَّة. لا يزال الصبي يعرج من جرّاء حادثة إطلاق النار بالصدفة؛ بينما أصرَّت الفتاة على اقناع والدها بأن يترك لها حرية مغادرة المدرسة والالتحاق بالجيش.

هناك أيضاً في الساحة العامة، شخص لم يصعد إلى المنصة، وهو من قادة الثورة. راح يتمشّى وحيداً. إنه إيدن باستورا بطل احتلال القصر الوطني، الذي عيِّن «القائد رقم صفر» بعد استشهاد شقيق كميلو. يوحي وجهه الجميل الذي يشبه وجه ممثل مسرحيّ، بالوحدة والحزن والخيبة. لم أتعجب، في السنة التالية، عندما علمت أنه انقلب ضدّ الساندينيين، ونفي إلى خارج البلاد. لقد قام بأهمّ مأثرة في الحرب الأهلية، وهو يجد نفسه الآن مكلفاً بتدريب الميليشيا المحلية: وهذا موقع مشرف، طبعاً؛ لكن الممثل الكوميدي الذي لعب دور هنري الخامس وسط تصفيق العالم بأسره، هل سيكتفي بعد ذلك بدور بيستول؟

بعد سنة، غادر إيدن باستورا إذاً البلاد معلناً انه لن يحمل السلاح ضدّ رفاقه القدامى. وراح يتنقّل دون راحة من المكسيك إلى پاناما، ومن المكسيك إلى كوستاريكا. من تُرى كان يسانده؟ بعض الشخصيات المنفية في ميامي، وفي لاڤالي دي ديشو، أم المخابرات المركزية الأميركية. عدَّل

باستورا قسمه فيما بعد: رفض النظام الساندي. لكنه أقسم ألاّ يقاتل أبداً إلى جانب السوموزيين ـ وأودُّ لو أصدق أنه سيتمسك بهذا الوعد. كان لا يزال يشمّ رائحة المجد ـ ذلك الشعور بأنه قاتل ضدَّ قوى أكبر بكثير، مع بعض الرفاق الذين اختارهم بنفسه. ساعة كتابة هذه الأسطر، كان قد شكلَّ، لكي يقضي على رفاقه القدماء، وحدة من خمسمئة رجل، وهو ينشط على حدود كوستاريكا، على أرض نيكاراغوا، يشكل فدائيوه، دون شك، تهديداً جدياً؟ لكنهم إذا ما انتصروا فسيكونوا وحدة صغيرة في مواجهة عدّو مشترك إلى جانب الولايات المتحدة، وألوية الموت السلڤادورية، ومنفيّي ميامي.

باستورا شخصية درامية. وجد نفسه بشجاعته ورسوليّته (صفة خطرة مذ يدركها صاحبها). فإذا ما هزم اليسار الماركسي، سوف يصطدم حكماً بالمحافظين والرأسماليين الذين يجدون فيه إفادة لهم الآن، لكنهم لن يكنّوا له فيما بعد سوى الاحتقار لسذاجته وحتى لبطولته. بقيت، حتى بعد مضي سنتين، متأثراً بمنظر هذا الرجل المستوحد، التائه أمام المنصَّة حيث كان جميع القادة يواجهون الجمهور الغفير القادم لكي يهتف لعمل ساهم فيه هو كأي شخص آخر(*).

(*) كاتب بطيء، اتابع بصعوبة التغيرات السريعة في أميركا الوسطى. ملاحظة كتبت عام ١٩٨٣، قد تكون قد زالت عند صدور الكتاب. تبين، بعد فترة من الزمن، أن باستورا هو أشدّ خطراً ممّا كنت أعتقد. بعد أن أقام مركزه في نيكاراغوا بالقرب من حدود كوستاريكا، توصّل إلى الحصول حتى على بعض الطائرات. سقطت احداها فوق ماناغوا عندما حاولت بإصرار قصف منزل وزير الخارجية الأب ديسكوتو. قصفت طائرة أخرى مرفأ كورنتو على شاطىء المحيط الهادىء. لكن باستورا، المتمسك بأعقاب قسمه الأخيرة، رفض طلبات المخابرات الأميركية التي أرادت، مقابل دعمها له، أن تفرض عليه الالتحاق بالمنظمة الرئيسية المعادية للثورة التي كانت تضمّ في صفوفها أعضاء من الحرس الوطني القديم التابع لسوموزا. انسحب باستورا ـ لأيّ فترة من الوقت؟ من مسرح العمليات.

بعـد المسيرة والخـطابات وحمـاس الجمهـور، سـاورني شعـور غـريب إذ وجـدت نفسي، في نفس المسـاء، أشرب الـويسكي في المنزل الـبرجـوازي الغنيّ الـذي يملكه أحـد أفراد عـائلة شامـورو، صاحب الجـريدة اليـوميـة المحافظة لاپرنسا. لن تتأخر لاپرنسا لتصبح جريدة قويّة معارضة للحكومـة السـانديـنيـة، لكن، كما يحصـل دائـماً في أيّ حـرب أهليـة، كـانت عـائلة شامورو منقسمة على ذاتها: كزافييه شامـورو، الذي أعـطاني تومـاس بورج موعـداً في منزله، يدير جريدة مؤيدة للساندينيين هي إلنويڤو دياريو.وليس أقلّ غرابـة لقاء القـائد المـاركسي الرئيسي في البـلاد في إطار مـاركسيّ ضيّق نـوعـاً مـا. ربّما لم يكن يشعـر بـارتيـاح أكـثر منّي، لكنـه يجب القـول إن الاستقـطاب الثنائي في تلك اللحـظة لم يكن قد تـركزّ كليـاً بعـد: صفّقت البلاد بأسرها، عملياً، لانتصار الساندينيين. ولم تظهر ملامح المستقبـل إلاّ في النظر الحزين للبطل المهمَل على أقدام المنصّة.

كانت زيارة قصيرة جداً وسيـاحية، إلى بلد يكـافح لكي يعـود إلى حياة عاديّة في نهايـة حرب أهليـة طويلة. ومـع ذلك، لم أرغـب في البقاء هنـاك طويلاً. كانت أعمالي في فرنسا تدعوني إلى العـودة سريعاً. بعـد انتقالنـا إلى فندق انترناسيونال، في اليوم التالي، ذهبنا بالسيارة إلى مدينة مـازايا التي كـانت مسرح إحدى أقسى المعارك، ولا تـزال تحمل آثـار الحرب، ثم إلى غـرانادا المـدينة الـرائعة والمحـافظة جـداً حيث حصلت مشادة شرسـة بين شـوشـو وصحافي هام من لاپرنسا.

نيكاراغوا مثـل پانـاما فيـما يتعلق بالتـأخر وعـدم احترام الـوقت. أوقفنا تـاريخ عـودتنا. لكنـه، لحسن الحظّ، جاءتنـا فكـرة طلب التـأكيـد، فقـد تعهدت ماريا إيزابيلا بأن تحجـز لنا مقـاعد عـلى متن رحلة وهميّة ـ ولم يكن لنا حظٌ أوفر على متن الطائرة التي أقلّتنا. إنها مسألة إضاعة للوقت، فـركبنا السيارة إلى ليون، وهي مدينة مسليّة لكنها لا تتساوى مع غراناذا من حيث الجمال. قمنا بـزيارة التـلال المجاورة حيث تـوجد القلعـة التي حوصر فيهـا

رجال سوموزا. أخبرنا أحد رجال الثوار الساندينيين كيف استطاع أن يخبىء في منزل تاجر صغير، أسلحة للحرس الوطني، مستخدماً قعر خزانة مزدوج.

بعد العودة إلى ماناغوا، وقع اختيارنا على مكان سيء لتناول طعام العشاء ـ مطعم يسمّى لوس رانشوس، يقدّم طعاماً رديئاً وباهظ الثمن في جوّ من الاناقة المزيّفة. فازداد، في مثل هذا الاطار، تأييدي للساندينيين لأنني شعرت بنفسي محاطاً بمعارضيهم، رجال بربطة العنق والصدريّة ارتدوا ملابسهم ليخرجوا إلى المدينة، وهم يتطلعون إلى قبّاتنا المفتوحة بارتياب يشاركهم في ذلك بعض الصبيان الذين استمروا علناً في خدمتهم. كنا في أرض عدوّة، وكنت سعيداً بمغادرة المكان ما أن استطعنا الحصول على فاتورة الحساب.

استيقظنا باكراً في اليوم التالي لأننا لم نكن متأكدين من إيجاد أمكنة على متن طائرة بانامية. نجحت ماريا إيزابيلا في مأثرة ثانية إذ حصلت على بطاقات، ولكن دون حجز. كانت الطائرة على أرض المطار، لكن الإقلاع تأجّل بدون ذكر السبب.

جاء توماس بورج ليودعنا ومعه موكب مسلّح. أردت الاحتفاظ ببعض الصور عن هذه المناسبة، لكن آلة التصوير خاصتي سُرقت في الفندق (لم يعد بإمكاني استخدامها ـ رغم أنني تأسّفت لفقدان بعض الصور الناجحة للعقبان التي صوّرتها في باناما.) إلّا أن توماس بورج كان يتمتع بالسلطة الضرورية لاقتراض آلة تصوير من أحد الحوانيت في السوق الحرّة: ما زلت احتفظ إذاً بتذكار عن وادعنا الحار.

نجحنا أخيراً بركوب الطائرة التي راحت تسير على المدرج. وفجأة لم نعد نرى سوى الدخان من النوافذ. توقفت الطائرة بعنف، وأنزلونا منها. أعلنوا أن الطائرة لن تقلع اليوم، الأمر الذي تبيّن أنه غير صحيح. كانت

الساعة العاشرة صباحاً. والسفر الوحيد الآخر في ذات اليوم، على خط سلفادوري، لن يكون قبل السادسة مساءً. نقلنا حجزنا إلى تلك الرحلة. ذهبت، بدون حماس، لأفتش عن آلة التصوير، لكنني رجعت بخفيّ حنين. بعد تناول طعام الغداء في الفندق، ذهبنا لنزور البركان الذي يشرف على ماناغوا، والذي رمى فيه سوموزا، كما يقال، أجسام بعض معارضيه. كان خيط رفيع من الدخان يخرج من فرن لحرق الجثث، يتململ باتجاهنا فيما نحن نتسلق المنحدر. بينما في الأسفل في قلب الفوهة عشرات البيغاوات تطير في كل الاتجاهات كطيارات من الورق الملون تحركها يد خفيّة. تخليت عنهم بصعوبة كبيرة لأذهب إلى المطار حيث كل شيء كان يبدو معكوساً. الساعة الرابعة والنصف، وطائرة السلفادور ستتأخر ٤٠ دقيقة. كان التقدير متفائلاً: لقد أعلنوا فيما بعد انها لم تغادر ميامي، وقد لا تصل أبداً.

يمكن أن تكون السياسة كرهاً للضجر، ودخلت السياسة إلى البهو بشخص رجل أسود ذي مظهر أنيق، بلباس ماوي، برفقة زوجته ـ أو سكرتيرته أو عشيقته؟ ـ وخادم. وصل دون تردّد وجلس إلى جانبنا تاركاً رفاقه وراءه على مقعدين أقلّ ارتياحاً. تبادلنا التحيات، ثم ساد صمت عميق. شعرت أننا مشتبه بنا ـ ربّما لأنني إنجليزي، استعماري سابق. كم من الوقت تساءلت هل نحن محكوم علينا بهذا الصمت الطويل العدواني؟

تذكرت عندئذ انني أحمل دائماً الويسكي في حقيبة السفر. بما اننا سننتظر وقتاً غير محدَّد، اقترحت أن نطلب قليلاً من الماء ونبدأ بشرب القنينة. وافق جارنا فيما يتعلق به، لكنه رفض بالنسبة لمن هم معه. ترك الويسكي تأثيراً مباشراً. وتلا الصمتَ فيض من الكلام. جاء الرجل في زيارة إلى نيكاراغوا كممثل للسيّد بيشوب ولحكومة غرينادا. رافق تاريخ حياته طوفان من الشعارات الماركسية. إنه محام، خرّيج كلية دبلن (من الصعب تصوره في نزهة على ضفاف الليفي (Liffey) أو جالساً في أحد النوادي

الإيرلندية). استدعوه فيما بعد إلى مكتب لندن. سأل عن اسمي ثم أخبرني انه قرأ بعض كتبي عندما كان في المدرسة. بعد الكأس الثاني، دعاني إلى زيارة غرينادا كضيف على حكومته، فاقترحت إرجاء الدعوة إلى مناسبة أخرى. كتبت فيما بعد رسالة إلى عمر أصف فيها محدِّثي: «آه. إنني أعرفه. إنه على يمين الرئيس وعلى يساري».

أخيراً، وصلت طائرتنا من ميامي. كان على متنها بطريرك پاناما الكندي. «لنتجنّبه». قلت لشوشو. لكن قلقي لم يكن في محلّه. فلما أن حطت الطائرة، حتى دخل إلى مخزن في السوق الحرة، مفتوح الأبواب للقادمين وللمغادرين. أمّا نحن فقد انصرفنا لنروي ظمأنا في مطعم جامايكي صغير، المونتيغو باي، الذي اعتدنا عليه. صاحبه عجوز أسود مرح، يحضرّ كؤوس البونش بمستوى كؤوس فلور تقريباً. أثناء الشراب، أعطيت الملاحظة التي أصبحت مألوفة عادية: «بفضل عمر، شاهدت القليل من نيكاراغوا، والزيارة الأولى هذه ستكون الأخيرة»، لكن الأحداث، كما هو الحال دوماً في أميركا الوسطى، سوف تكذبني.

بدأت أشك بالخرافة التي تقول أن الپاناميين لا يشربون إلّا في عطلة نهاية الأسبوع. ربّما أفسدت مرافقتي شوشو. لكننا عندما رجعنا من مونتيغو باي ووصلنا إلى منزل روري غونزاليس، المنزل الثاني لعمر، لم يكن العشاء قد بدأ بعد، لكن المشروب ملأ المكان. ربّما الفلاحون وحدهم، وبسبب فقرهم، يحترمون هذا القانون غير المنصوص. انتهى العشاء في ساعة متأخرة. انتقل شوشو، دون حذر، من احتساء الروم إلى الويسكي ثم إلى النبيذ. اقترح أحد حراس الجنرال أن يرافقني. واستدعى أحد المتنبهين زوجته، لأن سليڤانا ظهرت فجأة قرب السيارة. فاتهمها شوشو، الذي لم يعتد على هذا الزواج، بأنها تتصرّف كزوجة شرعية.

لم تتراجع سيلڤانا الرائعة. إنها في الرابعة والعشرين من العمر وهو في الثامنة والاربعين. كانت تعرف أن إصراره لن ينتصر بسبب الفرق بينهما؛

ومع ذلك، بقي متشبثاً بالمقود فترة غير قصيرة.

لم يترك المقود إلاّ لكي ينزل من السيارة، دون أن يتفوّه بكلمة، ويدخل إلى البيت، كما لو أنه لا يستطيع رؤية نتائج استسلامه. فقادت سليفانا السيارة والبسمة تعلو ثغرها. تعرف جيداً شوشو، وهي واثقة منه، وربما هذا هو أحد أسباب استياء شوشو.

وأنا في طريقي إلى الفندق، فكرت بتلك الرواية التي حكم عليها بألاّ تكتب «في طريق العودة». اعتقدت انني اكتشفت ما ليس ملائماً، ما الذي يمنعها من أن تنمو بحريّة في فكري. إطارها مرتبط بشكل وثيق بپاناما ـ كان يتوجّب نقل المشهد إلى دولة وهميّة في أميركا الوسطى. في النهاية، شاهدت القليل من نيكاراغوا، والقليل من بيليز. كان يجب ألاّ تذكر «في طريق العودة»، رحلة البطلة مع شوشو فقط، هذه «العودة» التي تمنيناها دون جدوى. يمكن أن يكون لهذا العنوان معنى سياسي أيضاً: فشل ثورة. وفكّرت بحفلات العشاء البرجوازية في ماناغوا، وبالخدم المتعجرفين الذين كانوا إلى جانب الأغنياء. بوسعهم القيام بدور ما. ربّما لم يكن شوشو هو الذي سيموت في النهاية بل الجنرال الذي كان يحلم دائماً بالموت. مع الأسف، لن يكون ذلك إلاّ صحيحاً في الواقع.

٥

في اليوم التالي، عندما جاء إلى الفندق لنذهب معاً في زيارة لعمر، كان شوشو طيّب المزاج، لكنه كان تعيساً لأنه فقد كلبه ـ حيوان تافه تذمّر منه أمامي باستمرار، وشرس أيضاً، ويكرهه الجيران بمحبّة. اختفى ببساطة. وأمضى شوشو الساعات يجوب الشوارع بحثاً عنه.

«لو تعرف كم أكره الكلاب، قال لي ذات يوم.

ـ إذاً، لماذا تقتني واحداً منهم؟

- إنها الطريقة الوحيدة التي بواسطتها يستمرّ هذا الحقد في داخلي».

قلت في نفسي سيكون لهذا الكلب دور في روايتي.

وفيما نحن نتناول طعام الغداء مع عمر، أدركت أكثر من أيّ وقت مضى، مدى الحميميّة التي نمت بيننا. وصل إلى حدّ مقارنة صداقته لي بالشعور الذي كان يبديه تجاه تيتو قبل وفاته تماماً. «كانت علاقاتنا شبيهة إلى حد ما».

أنا وتيتو- تقارب غريب للوهلة الأولى. كان يقصد على ما اعتقد أن تعاطفه في الحالتين، يقوم على نوع من الثقة. كما سبق وقلت، كان يجب أن يقارن بين آرائنا، بالنسبة لشخص ما. إن فاس دي بواسون (Face de Poisson) هو المثال على ذلك. استخدم عمر أيضاً هذا الاسم للتحدّث عنه. أراد الآن أن يعرف ما هو رأيي بتوماس بورج. قلت إنه، في اللقاء الأول، في البيت البرجوازي، لم يترك لديّ انطباعاً جيداً. لكن رأيي تبدّل كلياً عندما جاء إلى المطار لنناقش في بعض المسائل - ربّما لأنه كان مرتاحاً أكثر. «نعم، قال عمر، يبدو أنه ليس لطيفاً للوهلة الأولى».

تحدثنا عن السيدة تاتشر وموقفها تجاه بيليز التي تبدي رغبتها في التفاوض مع غواتيمالا. أراد عمر أن التقي مرة أخرى بجورج بريس. فموقع بيليز بالنسبة لجارتها المستبدّة والعدوانية، يصبح أشدّ صعوبة. لن تقدم فنزويلا ولا كولومبيا مساعدتها لها. وپاناما ونيكاراغوا هما الدولتان الوحيدتان اللتان يستطيع بريس أن يعتمد عليهما داخل منظّمة الدول الأميركية. إنه الآن في ميامي لكي يلتقي بوزير خارجية غواتيمالا - أول صلة مباشرة بين البلدين. أصرّ عمر على إرسالي إلى بيليز مع شوشو، يريد الآن أن يدعو بريس إلى پاناما، وقال لشوشو أن يتصل به هاتفياً.

بقيت في ذهني ملاحظة لعمر (أكان ذلك دفاعاً عن السيدة تاتشر أم انتقاداً لها): «قد يكون الجهل شيئاً جيداً في السياسة. وافقت أنا وكارتر

على المعاهدة لأننا نجهل المشكلات التي تطرحها. ولولا ذلك، لما تمَّ توقيع المعاهدة».

قال لي شوشو في اليوم التالي انه تحدَّث مع بريس بواسطة الهاتف. لكنه اعترف أنه كان سكراناً نوعاً ما، ولم يستطع أن يتذكر ما قاله له بريس. سكرت أنا أيضاً بعد قليل، بعد أن شربت ثلاثة كؤوس من البونش في المونتيغو باي، وثلاثة كؤوس من البيسكو في مطعم بيرويّ، حيث رأيت عدداً من الفيلة تسير تحت المطر في وسط العاصمة. أولاً نمر، ثم فيلة. لكنني متأكد انني لم أرها في قعر الكأس.

في ظل الوضع القائم في السلفادور، وفي نيكاراغوا، والخطر الغواتيمالي على بيليز، يبدو أن باناما تطفح أكثر من أيّ وقت مضى، بالمشكلات السياسية، والشخصيات. فقد أقيم، في ذلك المساء، احتفال عند أحد الشيوعيين، على شرف سفير نيكاراغوا الذي تمَّ نقله إلى كوبا. بقي الرجل وحيداً في إحدى الزوايا، وأقيم حفل الاستقبال على شرفه. كنت أول من وجَّه إليه الكلام.

تغيَّرت فجأة كل مشاريعنا. لن يأتي بريس إلى باناما، ولن نسافر إلى بيليز. وافق عمر على رغبتي الضعيفة المنطق: زيارة إلى بوكاس ديل تورو.

٦

سافرنا في الصباح التالي، أنا وشوشو، على متن طائرة عسكرية صغيرة. كان الطقس رديئاً ـ العواصف والمطر الغزير يعدم الرؤية. سررت لأن عمر ليس معنا في هذه الرحلة لأنه يحب كثيراً أن يطير في مثل هذا الطقس، وما كان ليتردد بالطلب من الطيار أن يتوغلّ رغم كل شيء. فالطيار، بغيابه، يستطيع أن يقود الطائرة بحذر: حطّينا في ديفيد، على أمل أن يتحسَّن الطقس، قبل أن نطير فوق مرتفعات شيريكي لنبلغ الشاطىء الأطلسي. أثناء الانتظار، ساورتني شكوك حول متابعة الرحلة. وتساءلت لو استأجرنا

سيارة لنعود إلى بوكيتي، تلك القرية الجميلة المنزوية في الجبل، بهوائها العليل، وحيث يوجد ذلك الفندق الصغير، والعاملة الجذابة فيه التي تشبه أونا شابلن؛ لكن روح عمر سيطرت على الطيار. فأراد أن يرّد على تحدي هذا الطقس السيء. قرّر بعد نصف ساعة أن الظروف أصبحت ملائمة لكي نتابع الطريق.

لم أر، من جهتي، أي مؤشر للتحسّن، حتى ولو كنا، من حين لآخر، عندما يبدّد الهواء الغيوم، نتوصّل إلى رؤية قمّة الجبل، وتحته المحيط الهائج. حطّت الطائرة، وسط طوفان حقيقي، على جزيرة بدت كأنها توغلت بين الأمواج تحت وطأة العاصفة. أصرّيت على مشاهدة بوكاس ديل تورو. وها نحن الآن فيها.

مشينا والماء يغمر أرجلنا حتى الكواحل إلى أن وصلنا قرب فندق صغير اسمه باهيا (Bahiá) مقابل المرفأ حيث كانت ترسو في الماضي مراكب مزارعي الموز. وبعد أن ألقينا نظرة على المكان، سررت عندما علمت أن ليست هناك غرفة نستأجرها. يظهر أن في تلك المدينة الصغيرة المعتمة سوقاً زراعيّة، وقد جاء إليها بعض الزائرين من الجزر المجاورة. تنهّدت ارتياحاً لفكرة اننا سنضطر للعودة مهما كان الطقس، وبينما نحن نتناقش والماء قد بلّلنا حتى العظام، أخبرنا صاحب الفندق انه وجد لنا غرفة، وأية غرفة: سريران من حديد وكرسي فقط، يتدلّى من السقف مصباح في وسط الغرفة، لا وجود لمكيّف هواء ليخفّف من الحرارة الرطبة، كما لا يوجد ما يمنع دخول البرغش على النوافذ. توصّلت إلى أن أحسد الطيار العائد إلى باناما رغم رداءة الطقس وهول العاصفة. قال لنا إنه سيعود لنقلنا في تمام الساعة التاسعة والنصف من صباح اليوم التالي. لم أتمالك نفسي عن التساؤل إذا لم يكن من المحتمل أن نبقى أياماً وأياماً في هذا المكان المزعج في حال ساء وضع الطقس أكثر. لم يساعدنا غداء عفن في مطعم فارغ على رفع معنوياتنا: حساء قليل الدسم مع قطعتين من اللحم تطوفان على

سطحه، وبعض قطع الدجاج (الجلد خاصة) وبدون روم ـ قليل من الجعة فقط في قنينة بدون نكهة.

توقّف هطول المطر مؤقتاً. لم يبقَ علينا إلاّ أن نذهب لزيارة المعرض المزعوم في حقل يقع في الجهة الأخرى من الجزيرة. لا وجود لأي شبكة لتصريف المياه التي تبقى حيث تسقط. فاجتياز شارع، سيراً على الأقدام، يتطلب قفزاً بهلوانياً.

يتشكل المعرض من صفّين لواجهات معدومة الفائدة ـ على الأقل بالنسبة لنا، لأنه من الواضح انه يشكل حدثاً حقيقياً لسكان بوكاس ديل تورو، المؤلفين بمعظمهم من السود ويعود أصلهم إلى جزر الأنتيل. وفي زحمة الأصوات وضوضائها استطعنا أن نميّز اللغة الإنجليزية والأسبانية ولغة المستعمرات المزيجة. صادف شوشو رجلاً أسود اللون من اصدقائه، يدعى راوول، وهو تلميذ قديم، فشربنا برفقته كأساً من الروم.

يبدو أن راوول ينوي ترشيح نفسه، كمرشح حرّ، للانتخابات المقبلة في عام ١٩٨١ ـ حيث يسمح للأحزاب السياسية بالترشيح وفقاً لنصوص المعاهدة. يمثل خصماه الحزب الشيوعي والحزب الحكومي الذي أسّسه عمر. قدّم راوول شكوى لأن دائرته الانتخابية تتألف من بضعة جزر، وهو بعكس منافسيه لا يملك المال اللازم لكي يستأجر مركباً ليقوم بزيارة ناخبيه. ولا يملك ما يكفي لطلب قمصان الدعاية (التيشورت) التي يعتبرها ضروريّة لنجاح المعركة. ثم انضمّ إلينا رجل آخر، قدّمه لنا راوول على أنه مستشاره؟ لكنني لم أفهم كلمة واحدة من لغته الإنجليزية.

أهاج الروم الفاسد مبولتي فذهبت أفرج عن كربتي بالقرب من حائط حظيرة صغيرة تفوح منها الرائحة الكريهة. ووصل شخص أسود اللون يبول إلى جانبي وبدأ فوراً بالحديث معي. أخبرني انه مهندس. وسوف يقبض تعويضه بعد عدّة سنوات، وسيهتم بمزرعة الكاكاو التي يمتلكها والده.

وبينما كنا نقفل أزرار سراويلنا، بدا وكأنه لا يرغب بمغادرة المكان أو التوقف عن الكلام.

«ستصبح رجلاً ثرياً، إذن، قلت له.

ـ ليس غنياً جداً لكن ميسوراً».

ثم أخبرني أن جدّه أعطى دروساً في أكسفورد. «هل سمعت بأكسفورد؟».

جاء رجل آخر يبول. أراد أن يبيعني سيفاً قديماً. قلت له انني إذا حملته معي في الطائرة فسيعتقلوني بحجة أنني قرصان جوّ. توصّل حفيد الأستاذ في أكسفورد أن يبتزني بثمن كأس من الروم، ثم تمكنت من الانضمام إلى أصدقائي. عرف راوول الرجل مذ وصفته له: إنه معروف في بوكاس ديل تورو بملك الكذابين. فقد ضلّل، ذات يوم، شرطة الجزيرة بحثاً عن طائرة سقطت بحادث مفاجىء.

لم استطع تكملة كأس الروم الفاسد، فأبديت رغبتي في العودة إلى الفندق. بدت الجزيرة وكأنها تتداخل أكثر فأكثر وسط المياه، وراح المطر ينهمر مجدداً.

أستوقفني رجل أبيض ذو لهجة أميركية، على مدخل المعرض، ودعاني إلى شرب كأس جديدة. قلت له إنني ذهب إلى القيلولة. أخبرني انه يملك منزلاً مطلياً باللون الازرق على الشاطىء مقابل الفندق. «لا تخسر هذه المناسبة. يمكنك أن تأتي ساعة تشاء وتتناول كأساً». تابعت طريقي، لكن سيارة تابعة للشرطة توقفت بمحاذاتي واقترحت عليَّ أن توصلني «سيكون هذا أكثر أماناً لك». قال أحد عناصر الشرطة. فتذكرت عندئذ شاحنة الشرطة في كولون.

اكتشفت بعد عودتي إلى الفندق أن المصباح الكهربائي محترق، وعليَّ أن أكتفي خلال الليل بضوء غرفة الحمام. تمددّت وحاولت أن أقرأ في راغتايم

«لـدكتـورو» (Doctorow) إلى أن حلّ الظلام فجعل القراءة مستحيلة ـ كمثل النوم على كل حال: قضيت فترة ساعة مستلقياً على ظهري أتأسف بمرارة على شقة سكني وأصدقائي في أنتيب؛ رغم محبتي لعمر وشوشو، فارتباطاتي الفعلية هي في أنتيب. تركت هناك أصدقائي يواجهون وحدهم أعداءهم من سكان نيس. إذا ما احتاجوا إلى أية مساعدة فلن تصل أية برقية إلى بوكاس. حجزت مقعداً لي على متن طائرة ستغادر پاناما بعد بضعة أيام، لكن بوكاس أوحت إليّ شعوراً باللعنة ـ هو انطباع بأنني لن أتمكن أبداً من العودة. إنها غلطتي؛ أردت أن أشاهد النقطة المحدّدة حيث رجع كريستوف كولومبوس. أردتّ أن أزور المكان الذي لم تطأه قدم سائح. فشلت مرتين. كان عليّ أن آخذ بعين الاعتبار التنبيه الذي وجهته إليّ العناية الإلهية.

قمت، وقد تملكني اليأس، فارتديت ملابسي واجتزت الشارع لأذهب إلى منزل ذلك الأميركي اللطيف. «اسمي أوجين، قال لي مستقبلاً، لكن معظم الناس ينادينني پيتي». علّق على جانبي بابه جمجمة ليخيف السارقين.

بدأت باستعادة معنوياتي عندما سكب كأسين مترعين من الويسكي. وهو يعمل طياراً في شركة طيران «برانيف»، وخدم إبان الحرب كطيار أيضاً في الجهاز السرّي الأميركي. اشترى ٣٣ هكتاراً من الأرض في الجزيرة بالإضافة إلى منزل على الشاطىء بستة آلاف دولار. وينوي الإقامة فيه بعد تقاعده، بعد سنتين، وسيحوّل ملكيّته إلى احتياط طبيعي للعصافير والحيوانات الأخرى. تعجبت من سعادة هذا الرجل في بوكاس. وزاد احترامي له. لا زوجة له ولا عائلة إنما انضمّت إليه امرأتان، من الجزيرة، مرحتان جداً، وهو ينوي أن يقضي «السهرة العاصفة» في المعرض. دعاني لأرافقه، لكن شوشو كان قد أعلمني أنه بانتظاري.

دعاني راوول لتناول العشاء عند والدته ڤيرونيكا، وهي امرأة نشيطة تتقن اللغة الانجليزية، وقد رافقتني بشراب الويسكي كأساً بكأس ـ كانت

تمزجه بحليب الكوكو لأنه لا يمكن الوثوق بمياه بوكاس. وكمثل جورج بريس، تعتبر توماس مان في مصاف أفضل الروائيين. حضرّت لنا سلحفاة، واستمرّ النقاش حول توماس مان طوال هذا العشاء اللذيذ الممتاز.

رجعت وحدي إلى الفندق في تمام الساعة العاشرة والنصف. أراد شوشو أن يزور المعرض لمشاهدة «السهرة العاصفة». وما كدت أطفىء الضوء في قاعة الحمام وأنا أبحث عن طريق السرير حتى سمعت أصوات الجرذ المزعجة في الخارج. تساءلت كم من الوقت يلزم للجرذ كي تثقب الحائط الخشبي. عاد شوشو من المعرض مصدوماً ـ لا شيء يمتّ بصلة «بالسهرة العاصفة». وما أن أطفأت الأضواء في غرفة الحمام حتى عادت مجموعة الجرذان إلى الصرير والضوضاء.

قضيت ليلة مزعجة لكنني استيقظت مرح المزاج. تصوّرت عن خطأ، كما تبين فيما بعد، انني تجاوزت عقدة توقفي عن الكتابة. فالرواية تدور في رأسي؛ طالما أنني قررت أن تدور أحداثها في بلد وهمي وليس في پاناما. وأصبح بإمكان الشخصيات أن تتحرّر من نماذجها. شوشو لن يكون شوشو بعد الآن، وكذلك عمر لن يكون عمر. ستكون بوكاس في نهاية المطاف، وقد اقترح شوشو اسماً مناسباً تماماً: كونو ديل تورو. لن ينفجر شوشو بسيارته. سيختفي بكل بساطة أثناء بحثه عن ذلك الكلب الذي يكرهه. وسيرسل الجنرال فاس دي پواسون ليعيد الفتاة.

ارتديت ثيابي، وأنا بمنتهى السعادة الخيالية، لأشاهد شمساً مشّعة وبوكاس شبه متغيِّرة. لقد انهمر المطر بهدوء. والمنازل المرفوعة بشرفاتها، على أعمدة أكواخ القش، ذكرتني بشريتاون، في سيراليون، تلك المدينة التي أحببتها جداً. وصلت الطائرة الحربية في الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة تماماً. طالت رحلتنا في طريق العودة ساعة وربع الساعة بدلاً من ساعتين ونصف استغرقتها رحلة الذهاب إلى بوكاس. كانت السماء صافية،

شاهدنا عشرات الجزر المتفرقة تحت ناظرنا كمثل تركيبات «البازل»: استطعنا أن نرى كيف كانت هذه القطع في الماضي متداخلة بعضها ببعض. اصطحبنا راوول معنا لأنه كان يأمل إيجاد بعض الدعم لمعركته في العاصمة.

٧

دخلت سيلفانا بعد العشاء لتخبرنا أن الكلب الرهيب قد رجع. ذهبت مع شوشو لرؤية الجنرال. كان عمر مرحاً، وذا مزاج جيّد. عندما علم بقصة راوول المحزنة، أمر شوشو بأن يصرف له ألف دولار لمصاريفه. «لكن، قل له إنها هدية من غراهام. سيكون وقع ذلك سيئاً بالنسبة لحزبي إذا ما عرفوا انني أساعد معارضاً لينتصر علينا». (بالواقع، عرفت في السنة التالية، من خلال توزيع الأصوات، أن راوول قد ساعد الشيوعيين لكي يربحوا ضدَّ مرشح عمر في بوكاس).

طرح عمر عليَّ أسئلة حول الكتابة وتطوّر الشخصيات. قلت له إن اللحظة الواعدة، في العمل الروائي، تولد عندما تتملك شخصية ما بالمؤلف، وتنطق بكلمات لا يتوقعها، وتتصرَّف بشكل غير منتظر.

تطرقنا أيضاً إلى موضوع روسيا، ولإحدى نظرياتي المفضلة التي بموجبها ستتسلم ك. ج. ب. كل السلطة. سيتبيّنُ عندئذ انه من الأسهل التعامل مع برغماتيين ممّا مع إيديولوجيين. فالمخابرات تجنّدُ أفضل الطلاب في الجامعات. يتعلمون اللغات الأجنبية، ويتعرّفون إلى العالم الخارجي، ولا يعني ماركس الشيء الكثير بالنسبة لهم. يمكنهم ان يساهموا في إجراء بعض الاصلاحات على الصعيد الداخلي.

«يهمّني جداً ما تقول، أجاب عمر؛ استقبلت منذ فترة طويلة عميلاً في المخابرات السوفياتية في أميركا الجنوبية. إنه شاب مثقف جداً. يتكلم الأسبانية بطلاقة وإتقان. أبديت حذراً كبيراً تجاهه لأنني خشيت أن أقع في

فخّه. قال لي أن ليست هناك أية إمكانية للتغيير في روسيا طالما أن عجزة الكرملين هم على قيد الحياة. وعدني بالعودة مرة أخرى».

هل رجع ذلك العميل؟ يجب أن يكون على علم بالصداقة القائمة ما بين عمر وكارتر. هل أراد تمرير إشارة إلى كارتر عبر عمر قبل الانتخابات التي سيربحها ريغن؟ لن أتوصل إلى معرفة الجواب على هذه الأسئلة.

بالنسبة للانتخابات، قال عمر: «طبعاً، أنا أتمنّى انتصار كارتر، أما إذا انتصر ريغن فستكون الأمور معقدة». لا يزال يرغب بمواجهة مع الجميع وضدّ الجميع.

جاءني شوشو في الصباح حاملاً رسالة من الجنرال. يريد عمر أن يراني فوراً في منزله في فارالون. «يقول إنه يريد أن يتصرَّف معك كما لو أنه إحدى شخصياتك ويسيطر عليك».

وصلنا وسط استقبال كبير من النساء والأولاد ممّا أعطانا ذريعة لكي لا نبقى إلى وقت الغداء. دخلنا بعد لحظة قصيرة مع الجنرال إلى غرفة هادئة، وكرَّر على مسمعي ما قاله شوشو: «أنا إحدى شخصياتك الآن يا غراهام، وسوف أسيطر عليك».

جرت مناورات عسكرية تضم بعض الوحدات الأميركية والپانامية. تمّ إنزال خمسمئة مظلي أميركي في قاعدتهم، في قطاع القناة القديم، وخمسمئة من الحرس الوطني (دون شك، اصدقاؤنا من فرقة الخنازير المتوحشة) نزلوا فوق فوربراغ في كارولين الشمالية. يريد الجنرال الذهاب إلى فوربراغ في أول أيلول لكي يرى كيف يتصرف رجاله. وانطلاقاً من أنه يتكلم كإحدى شخصياتي، كان ينوي فرض سلطته عليّ. سأرافقه بدور ضابط پانامي ببزة الحرس الوطني («سيعطونك رتبة نقيب أو رائد أو كما تريد»).

كان الاقتراح مغرياً للوهلة الأولى. لقد أوفدت كپانامي إلى واشنطن مزوداً بجواز سفر ديبلوماسي پانامي. والآن، ألعب دور ضابط پانامي في

فوربراغ. . . على الأقل، فكـرة مسلية. «لكنني حجـزت مقعداً للعـودة في أول أيلول إلى فرنسا.

ـ إبق بضعة أيام إضافية.

ـ إنني منهمك بما يجري هناك».

أخـبره شوشـو سابقـاً عن مشكلتي مع الشخص غـير المرغـوب فيـه من نيس، وهو الزوج السابق لابنة أحد أصدقائي، وهو يهددها الآن بانتقامات هـذه المنطقـة. كان عمـر حاسـماً: «لن أترك أحـد أصدقـائي ينزعـج بهـذا الشكل. أجلب المرأة الشابة إلى هنا مع أولادها».

أشرت إلى وظيفتها التي ستضطر إلى التخلي عنها.

ـ «سنجد لها عملاً هنا.

ـ سوف تشعر بالوحدة. ستفتقد لأقاربها.

ـ نعيدها عندئذ إلى فرنسا باسم جديد وبجواز سفر بانامي».

قلت إنني سأدرس الموضوع.

«وماذا بشأن فوربراغ؟

ـ لن تكون الأمور على ما يرام يا عمر. ستتناول الطعام على طاولة الجنرال الأميركي. وسأكون أنا في عداد الضباط الصغار. فماذا سيفكرون في نقيب قديم بانـامي غير قـادر تقريبـاً على التحـدُّث بالأسبـانية، ويتكلم الإنجليزية بلهجة بريطانية؟».

لا أزال اتأسّف، حتى اليوم، لأنني خيَّبت أمل الجنرال في لقائنا الأخير ـ وليس فقط حـول موضـوع فوربـراغ بل حـول الحل الـذي اقـترحـه لكـل مشكلاتي. لم أخسر في حياتي صديقاً مثل عمر توريخوس.

مرّ الوقت بسرعة ـ البونش في مونتيغو باي، عشاء عند سيلڤانا وشوشو،

مع الكلب الرهيب أيضاً الذي لا يحتمل وجودي، كما لو أنه عرف أنه أصبح شخصية في روايتي، وليمة أخيرة في مطعم «پيرويّ» مع شوشو وفلور، فتاة اليبونش التي توصلنا إلى اقتفاء أثرها. كان الحظ بجانبي. ربحت في المطار في ماكينة القطع النقدّية الحجرية ما يكفي لشراء زجاجة ويسكي وعلبتي سجائر.

لم يكن الرحيل حزيناً هذه المرة لأنني كنت أعرف أنني سأعود في السنة القادمة. سيرن جرس الهاتف في أنتيب، وسيكون شوشوعلى الطرف الآخر في الخط ليبلغني أن بطاقة تنتظر في شركة ك. ل. م. وسأختار تاريخاً في شهر آب حيث العدالة في عطلة، ولا يمكن أن يحدث شيء غير متوقع في حربنا الخاصة. سأذهب مرة أخرى وأشرب كأساً في صالون ثان غوغ في أمستردام. سأصل في الصباح في تمام الساعة التاسعة والنصف. سوف يكون شوشو في المطار لاستقبالي. إنني أسمعه يقول: «يريد الجنرال أن يرانا في فارالون على طعام الغداء. سوف نركب طائرتي الصغيرة». أو ربّما، في غمرة فرحي، لأنني لا أشعر بالارتياح في طائرته: «سيارتي موجودة هنا».

الخاتمة

١٩٨٣

١

كنت أحلّق فوق أدغال پاناما وجبالها على متن طوافة عسكرية صغيرة. إلى جانبي ابنة عمر، كارمن، التي تذكّرني عيناها بعيني والدها: عينان نزيهتان لا تخفيان شيئاً. وبرفقتنا شوشو طبعاً. دلّنا الطيار على منطقة الغابة الواقعة بين جبلين حيث تحطمت طائرة الجنرال. يلاحقنا الهواء والمطر من كل الجهات ـ نوع من الطقس أحبّه عمر كثيراً. أعتقد أن الفكرة نفسها استحضرتنا كلنا: كم سيكون غريباً أن نلقى حتفنا في المكان نفسه وبالطريقة نفسها التي قضى فيها رجل طالما أحببناه.

ما أردت العودة إلى پاناما اقتناعاً مني أن البلاد، بدون عمر توريخوس، ستكون مقفرة فارغة بشكل رهيب. نحن الآن في كانون الثاني من عام ١٩٨٣، وتعود زيارتي الأولى إلى عام ١٩٧٦، قبل سبع سنوات تقريباً. تلقيت نبأ موت عمر في شهر آب عام ١٩٨١. وكأنه اقتطاع جزء من حياتي. من الأفضل عدم إثارة الذكريات. تلقيت غالباً مخابرات هاتفية من شوشو، كان يخابرني في پاناما، ويحاول اقناعي لكي أعود. ولا تزال البطاقة، الباقية بدون استخدام عام ١٩٨١، تنتظرني في أمستردام. يتمنّى عليّ الرئيس أن آتي، وكذلك عائلة عمر. بإمكاني أن أكون «مفيداً». مفيد لأيّ شيء، لم يفسر ذلك أبداً... وأصرّيت على الرفض. لم أفقد عقلي.

ولا تزال حربي مع المواطن «النيسيّ» مستمرة، وما زلت أواجه ثلاثة أعمال قانونية في فرنسا.

«يريد النيكاراغويون رؤيتك». قال شوشو بواسطة الهاتف. لم أصدّق ذلك. واستمريت في رفضي. أنا لا أعرف حقاً ما الذي جعلني أتراجع رغماً عني.

«موافق، قلت، لكن لمدة أسبوعين فقط. لا استطيع أن أتغيّب عن فرنسا مدة أطول».

٢

عندما استدارت طائرة أمستردام، وبدأت تحلّق فوق أدغال داريان باتجاه المحيط الهادىء، أحسست بنوع من الهموم التي ساورتني فحاولت التخفيف منها بتناول كأسين من الشمبانيا في البدء ثم بقليل من البولز. لم يحصل شيء.

اسم عمر توريخوس يعلو أبنية المطار الدولي الجديد. شعرت بالأسى أكثر ممّا بالفرح وأنا أرى ذكرى تمجيده بهذه الأحرف الكبيرة الميتة. بالطبع، شوشو ينتظرني هناك. اصطحبني إلى فندق كبير فخم لم يكن موجوداً أثناء زيارتي الأخيرة.

«ألا يمكننا أن نذهب إلى الكونتيننتال؟ لقد أعجبني دائماً.

ـ هنا، من الأسهل علينا أن نجد موقفاً للسيارة».

انهارت كل قواي عندما رأيت الشقة الرئاسيّة في الطابق الرابع عشر (الثالث عشر بالفعل) المتألفة من صالون مع بار أكبر من شقتي بكاملها في أنتيب، ومن غرفة أخرى بالمساحة نفسها وثلاثة أبواب تطل على الممرّ.

«هل رأيت الشخص الذي تكلمت معه في غرفة الاستقبال؟

ـ نعم.

- إنه حرسك الخاص وهو مسلح. خصصه لك الكولونيل دياز، رئيس جهاز الأمن، ٢٤ ساعة على ٢٤ ساعة».

شعرت بنفسي، أكثر من أيّ وقت مضى، أنني في غير موقعي. ففي حياة عمر، لم يسكنوني في مكان بمثل هذه الفخامة، ولم يكلّفوا رجلاً من الشرطة بحمايتي. شوشو ومسدسه كافيان، فضلاً عن انني لم أنسَ ملاحظته في فندق سانتياغو منذ بضعة سنوات أن «المسدس ليس وسيلة للدفاع».

لم نلتقِ منذ أكثر من ١٢ شهراً، ولا تنقصنا الأشياء التي نتحدّث عنها. استمر النقاش دون توقف. أولاً حول هذا الجناح الرئاسي الذي لم يعد مخيفاً كثيراً بعد كأسين أو ثلاثة من الويسكي، ثم عن الماريسكو المطعم الذي يديره اللاجىء الباسكي - لم يتغيّر أبداً. تبيّن أن الحارس الذي كان يتبعنا في كلّ مكان، هو صاحب رفقة طيبة لطيفة.

كان شوشو مقتنعاً بحزم، بفرضيّة اغتيال عمر، بوجود قنبلة في الطائرة. أخبرني عن أحداث غامضة حصلت قبل موت الجنرال مباشرة، لكنه لكي يدعم نظريّته، أظهر لي مقالين للرئيس ريغن ضدّ توريخوس. بدت لي هذه البراهين واهنة ولم أقتنع. لقد أقام عمر علاقات جيدة مع كارتر؟ كان يشكل بالنسبة للأميركيين الوسيط المفيد جداً، بالرغم من قناعاته الاشتراكية الديمقراطية. والوحيدون الذين تمنّوا موته هم العسكريون السلفادوريون، وربّما بعض المحافظين في الداخل. بقيت وجهة نظر شوشو فعلاً، عرفتها فيما بعد من صديقه روري غونزاليس (الذي لم يكن مقتنعاً بفرضية القنبلة). أمضى عمر الليالي الأربع التي سبقت موته مع زوجته. كما لو أن ذلك نتيجة شعور بدنوّ نهايته. أراد أن يظهر طيبته للماضي واخلاصه، اللذين هما أعمق بكثير من بعض شواذاته الزوجيّة.

بعد أن تحدّثت إلى شوشو ثم إلى الرئيس روري غونزاليس أو الكولونيل دياز، بدأت أتبينّ، بشكل غريب، أن عمر لا يزال حياً في باناما. أخبرني شوشو انه يحلم به كل ليلة منذ وفاته. وريكاردو إسبيريللا الشاب، الرئيس

الجديد، الذي ترك لدي انطباعاً جيداً قبل سنتين، يوم لم يكن سوى نائب للرئيس، حدثني هو أيضاً عن أحلامه فيما يتعلق بعمر. «فقدت بموته أباً وأخاً، قال لي». وتصوَّر الجميع الوضع بالمستوى نفسه. كانت ستحصل كارثة، شعر بنفسه كرئيس يعجز عن مواجهتها، وفي اللحظة التي فقد فيها الأمل بكل شيء، ظهر عمر. كان هناك، مثلاً، اصطدام بين قطارين، سقطت ضحايا كثيرة، ولم يعد الرئيس يعرف ماذا يفعل عندما وصل عمر وقال له: «لا تقلق، سوف تتدَّبر الأمر». ثم أضاف وهو يبتعد «سآخذ قسطاً من الراحة». قال لي اسبيريللا أيضاً إنه استيقظ في إحدى الليالي وأحسّ بوجود غريب في غرفته. أسرَّت له زوجته أن شخصاً ما موجود في الغرفة. رأت هي أيضاً الحركات ذاتها لكنها لم ترَ مثله ظلّ عمر جالساً على أريكة يهزّ إحدى رجليه فوق المسند.

لم أشعر أبداً في پاناما بالفراغ الذي كنت أخشاه. مع أن المشكلات كانت واقعية، وقد شرحها لي شوشو في هذا الصباح الأول. موقف الرئيس الجديد للحرس الوطني الجنرال باراديس هو الأكثر جدّية من بينها فهو رجل يميني، تسلَّم بسرعة موقع الكولونيل فلوريس الذي كنت حذراً منه. وصديق للجنرال نوتنغ قائد القاعدة الأميركية في قطاع القناة سابقاً، ينوي ترشيح نفسه للرئاسة عام ١٩٨٤، ولا يكنّ المحبة للساندينيين. إن حلم توريخوس، - أميركا وسطى اشتراكية ديمقراطية، مستقلة عن الولايات المتحدة، ولا تشكل خطراً يبرّر تدخلاً عسكرياً - يمكن أن يصبح واقعاً بمساعدة الجنرال باراديس. حلم آخر يختفي رويداً رويداً: الأعمال في منجم النحاس الكبير توقفت مؤقتاً.

أمضيت وشوشو السهرة مع الكولونيل دياز استمرت حتى الساعة العاشرة، قبل موعد العشاء، ثم تابعناها حتى منتصف الليل. فالرجل لطيف ومتواضع في تصرُّفاته، لكنني اكتشفت فيه حزماً خفياً وهو العزم على متابعة الطريق الذي رسمه عمر. كان أكثر اعتدالاً من شوشو في تقييمه

لپاراديس. لقد تقرَّب باراديس من اليمين، دون شك، لكن، حسب رأي دياز، نقطة الدم الأفريقية فيه لم تسهِّل له التفاهم مع الطغمة المحافظة. لذلك يجب أن نتوقع تغييراً في الاتجاه.

يرى دياز أن موقفه حساس جداً. يبدو أن توقيع المعاهدة وموت عمر قد سجّلا نهاية أيام البطولات بالنسبة لپاناما الصغيرة. لم يعد بوسع أحد اليوم أن يناقش على قدم المساواة مع كبار هذا العالم، كما عرف كيف يتصرَّف عمر مع تيتو وكاسترو وكارتر والبابا، أو مع سائر قادة الدول في طريق عودته من أوروبا الغربية عام ١٩٧٧ بعد توقيع المعاهدة(*). تحدثنا أيضاً عن السلفادور. بالنسبة لدياز، يبدو أن انتصاراً للثوار غير متوقع: كان مقتنعاً بجمود قد يكون لصالح الثوار.

أخبرني الكولونيل أنه أمضى مؤخراً أربع ساعات برفقة فيديل كاسترو. «لقد أعجبني، إلاَّ أن شيئاً قد فاجأني: زعم أنه تدخل في أنغولا بدون موافقة روسيا».

«هذا لا يدهشني» قلت لدياز. إن تحليلي لكاسترو لم يتغيَّر أبداً: انخرط في البدء في ثورة أميركية جنوبية ضدَّ رغبة الاتحاد السوفياتي الذي لم يكن يرغب القيام بهزَّات في أميركا اللاتينية في تلك المرحلة. أدَّت هذه المغامرة إلى خيانة الحزب الشيوعي البوليفي لتشي غيفارا ثم إلى قتل هذا الأخير. اعتقدت دائماً أن المغامرة الأنغولية تشكل، من جانب كاسترو، محاولة لإظهار نوع من الاستقلالية تجاه الاتحاد السوفياتي: لم يدعم الاتحاد السوفياتي العملية إلاَّ عندما تكلَّلت جزئياً بالنجاح. كان لديه دافع آخر أيضاً هو أهميَّة السكان السود في كوبا. فمساعدة حكومة سوداء في أفريقيا هي بالنسبة له وسيلة ناجحة للقضاء على كوبا باتيستا العنصريَّة حيث الزواج المختلط كان غير شرعي، وتوصّلوا حتى إلى منع دخول السود إلى

(*) رافقه شوشو في زيارته إلى البابا. فعرَّف عنه أنه وزير دفاعه.

المقاهي وبحصرهم في أندية خاصة. والوضع في أنغولا يحمل في طيّاته نوعاً غريباً جداً من السخرية: احتجت الولايات المتحدة على القوات الكوبية، لكن هذه القوات هي التي تحمي المنشآت النفطية لشركة غولف أويل المهددة بأن تدمرها الحرب الأهلية بين الحكومة والأونيتا (Unita).

لدى دياز ثلاثة مشاريع يتوّجب عليّ أن أقوم بها. تمنّى عليّ أولاً أن أعود إلى نيكاراغوا حيث يعرف القادة الساندينيون صداقتي لعمر؛ وهو يرى في ذلك وسيلة لإفهامهم أن روح توريخوس مستمرة في پاناما. ثم يتوجب عليّ، للغاية نفسها، أن أسافر إلى كوبا لكي أقابل فيديل كاسترو (بدعوة رسمية من السفير الكوبي). والمشروع الثالث هو القيام في أعماق الأدغال بزيارة قرية كيوداد روميرو التي بناها اللاجئون السلفادوريون الذين جاء بهم عمر من منفاهم في الهندوراس. تطوّع شوشو فوراً للمهام الثلاث: سيقلّني بطائرته. لا أتجرأ على الرفض. لكن الجنرال أنقذني إذ اقترح أن أسافر إلى نيكاراغوا على متن طائرة عسكرية لإعطاء الزيارة طابعاً رسمياً. أما بالنسبة للقرية فلا يمكن الوصول إليها إلاّ بالطوافة.

٣

هو شوشو الذي جعلني، أكثر من سواه، أشعر أن روح توريخوس لا تزال حية. ذات صباح، أمضى وقتاً طويلاً في المرآب، بشكل غير عادي، حيث كان يمرّ طبيعياً. سألته عن السبب. «أخذت بعض الصور الفوتوغرافية.

- صور فوتوغرافية؟

- نعم. لقد اشترى إيدن باستورا سفينة في پاناما. استطعت أن ألتقط له بعض الصور، من المرآب، وهو في الماء، أريد أن أحمل معي الصور إلى نيكاراغوا».

أراد، ذات مساء بعد العشاء، أن يقوم بزيارة لأحد الأشخاص. «أريد أن أعطيه شيئاً ما».

ـ ما هو هذا الشيء؟

ـ معي رشيشان في صندوق السيارة.

ـ لماذا يريد الرشيشين؟

ـ ليست المسألة في معرفة لماذا يريدهما. بل أنا من هو بحاجة إلى ألوف الملقّمين لأسلحة خفيفة. إننا نقوم بالتبادل.

ـ للساندينيين؟

ـ لا. لديهم كل ما هم بحاجة إليه. للسلفادور.

إن هذه الرؤية القصيرة للبروفسور خوسي دي يزوس مارتينيز، الشاعر والرياضي، في عنصره الحقيقي، أفعمتني غبطة وفرحاً.

٤

إلتقيت في اليوم التالي، للمرة الأولى، بالسيِّد بلندون وهو موظف في وزارة الخارجية مكلّف بتنظيم ما عرف فيما بعد باسم مجموعة الكونتادورا ـ الهجوم الديبلوماسي الذي كان يؤمل منه أن يمنع الحرب في أميركا الوسطى. تستمر المجموعة في نشاطها من أجل السلم، لكن المشروع كان طموحاً في تلك المرحلة. فقد تحدثوا عن إدخال كوبا والولايات المتحدة بالإضافة إلى پاناما وكولومبيا وفنزويلا والمكسيك. سألت السيد بلندون إذا كان ريغن يوافق على الانضمام إلى منظمة ستكون كوبا عضواً فيها. نعم. حسب رأيه، قد يرى ريغن، مع اقتراب الانتخابات الأميركية، أنه من المفيد سياسياً الالتقاء بهم. فهو لا يحظى بدعم الكونغرس لعملياته السرّية. أما فرضية الحرب المفتوحة بين هندوراس ونيكاراغوا، فيجب عليه أن يعرف أنّ نوعاً من الهيجان يسود بين الضباط الشباب في جيش

هنـدوراس؛ الثوار السلفـادوريون هم أقـوياء إلى درجـة أن بإمكـانهم إثارة أحداث على حدود هندوراس. وتفوق هذا البلد بالقوى الجـوية والمصفحـة يؤثـر إلى حدٍ مـا على طبيعـة الأرض حيث تـدور المعـارك. الخـطة هـذه لا ترضي الجنرال باراديس، دون شك، لكنه تسلّم مـوافقة الـرئيس وسيصل الكوبيون غداً لمناقشة الموضوع. كرّر بلنـدون أن فيديـل كاسـترو دعاني إلى هافانا، ومن الضروري أيضاً أن التقي بالسفير الكوبي.

لم أصدق دعوة كاسترو فيما كنت ذاهباً للقـاء السفير، وانني لم أخـطىء: بالواقع، جاءت الدعوة من قبـل «كازا دي لاس أمـيريكاس» إلى نـوع من الجمبـوري(*) الثقافي في هـاڤانـا. أجبت أن الوضـع السيـاسي فقط يهمني: ليس لديّ الوقت، هذه المرة، لأخصصه للثقافة.

تكلّمت بعد ذلك مـع الرئيس الـذي أثار قضيّـة رحلتي إلى نيكاراغـوا - اتخذ الموضوع طابع المهمة أكثر فأكثر. كانت الرسالـة التي أراد إيصالهـا إلى الثوار هي التالية: لا تكونوا هجوميين في طرحكم. اطلبوا من مجلس الأمن أن يضـع قوة من الأمـم المتحـدة على الحـدود مع هنـدوراس. إن پانـاما، كعضـو في المجلس، ستسانـد مثل هـذه الخطوة؛ وإذا مـا قررّت الـولايات المتحـدة استخدام حق النقض فسيكـون ذلك نجـاحاً دعـائياً لنيكـاراغوا. بدت الفكرة ممتازة.

ذهبت بعد أن غادرت الرئيس، إلى تناول كأس مع الكولونيـل نورييغـا (Noriega) رئيس هيئـة الأركـان. أصرّ كثيـراً هـو أيضاً عـلى إرســالي إلى نيكاراغوا. كـان التوجّـه اليميني للجنرال باراديس يقلقـه، على مـا يبدو، بقدر ما يقلق الرئيس، وقد صُدم عندما أخبرته عما حصـل معي في السفارة الكوبية. قال لي إنه سيثير الموضوع مع السفير: إنه مقتنع أن الدعوة لم تكن بالأساس دعوة ثقافية.

(*) كلمة هندية تدل على مهرجان قوميّ أو دولي للكشافة. (المعرب).

قبل سفري إلى نيكاراغوا، دعيت إلى استقبال محرج في «البريزيدنسيا» حيث تسلّمت من إسبيريللا الصليب الكبير لرتبة ڤاسكو نونييز دي بالبوا (يتذكرون أن كيتز في قصيدته الرائعة قد خلط ما بين بالبوا وكورتيز. فكورتيز لم يتأمل أبداً المحيط الهادىء «بقناعة جنونية، صامتاً من على قمة داريان».).

لم أفعل شيئاً لأستحق مثل هذا الوسام. وازداد انزعاجي عندما ربطت الوشاح والنجوم. شعرت بنفسي كشجرة عيد الميلاد يعلقون فوقها الهدايا. فضلي الوحيد هو انني كنت صديقاً لعمر توريخوس، وتصوّرته يبتسم لدى رؤيتي مربكاً بالوشاح أو محاولاً وضع النجوم في موضعها. من الممكن أن يكون وراء هذا الاحتفال سبب له طابع تكتيكي: يحاول الرئيس أن يُفهم القادة الساندينيين أنني موفد جدير بالثقة. أياً كان الدافع، ورغم إحراجي، شعرت، أخيراً، بنوع من السعادة، لأنه بفضل هذه الهديّة السخيّة شعرت انني أكثر قرباً من البلاد التي صنعت عمر توريخوس.

طبعاً، سيعتبر عدد من المراقبين في الولايات المتحدة أنهم قد «استخدموني». كنت أعرف ذلك، لكنني لم آبه به. كان بوسع الأشخاص أنفسهم أن يتحدثوا عن استخدامي عام ١٩٥٨ عندما جلبت معي ثياباً ساخنة من سانتياغو إلى كوبا لرجال كاسترو المتمترسين في سيرا مايسترا. وعندما تمكنت، بفضل نائب إيرلندي من أصدقائي، أن استجوب الحكومة المحافظة في مجلس العموم حول بيع الطائرات القديمة إلى باتيستا. لم أتأسف على شيء في تلك المرحلة، ولن أتأسف اليوم. لم أتردّد يوماً من أن «أُستخدم» لقضية أؤمن بها، حتى ولو كان الأمر بالنسبة لي خياراً بين شرّين. لا يمكن أبداً أن نتوقع المستقبل بدقة.

كان سفري إلى ماناغوا مناسبة لكوميديا في الذوق البانامي. رافقني شوشو طبعاً. أعلمونا في المطار أن النيكاراغويين أرسلوا طائرة نفاثة صغيرة لتأمين رحلتي. يوجد على متنها مضيفي المقبل ماريو كاستيليو الذي يعمل

لوزير الدفاع همبرتو أورتيغا. إلّا أن الپاناميين أصرّوا على أن أقوم بالرحلة بواسطة إحدى طائراتهم. بعد نقاشات طويلة، وافق كاستيليو على الانضمام إلينا، بينما عادت طائرته بدون مسافرين. قدّم لنا كاستيليو الفودكا بسخاء لا يوصف حتى وصلنا إلى ماناغوا، وتبيّن أنها ذات فعالية ديبلوماسية كبيرة.

٥

كانت عدّة وجوه مألوفة تنتظرني على المدرج: الأب كاردينال وزير الثقافة: زوجة دانيال أورتيغا الجميلة، روزاريو التي رأيتها في سان جوزي في كوستاريكا، شربنا كأساً سوية بينما كان شوشو يتحدّث إلى رئيس المجلس السياسي. كانت تلك البداية لأيام صاخبة بصورة خاصة.

بعد الظهر، قطع قيلولتي في منزل كاستيليو، وصول مونسنيور عجوز اقترحه عليّ، قبل مغادرة أوروبا، بروفسور إيرلندي عاش بضعة أشهر في نيكاراغوا. استطعت أن أناقش معه موقف الأسقف أوبندو.

لعب الأسقف دوراً شجاعاً جداً في بداية الحرب الأهلية. أعطاني، بمعنى ما، شرعية للنضال بنظر الكاثوليك بنشره رسالة معادية لسوموزا الذي كان بإمكانه أن يكلفه حياته بسهولة. فبعد احتلال القصر الوطني، رافق باستورا والرجال الذين حررّهم سوموزا (من بينهم توماس بورج) لكي يضمن سلامتهم. والآن، يقف مثل باستورا ضدّ الثورة. هل هذا بسبب وجود ماركسيين في الحكومة؟ فكرت بالشيلي حيث الليندي، رغم تعيين وزراء شيوعيين في الحكومة، لم يخسر دعم أسقف سانتياغو. وأكثر من ذلك، فقد رأيت الأسقف يوم العيد الوطني الشيلي عام ١٩٧٢، يترأس احتفالاً مسكونياً في الكاتدرائية بحضور كل أعضاء الحكومة بمن فيهم الشيوعيون. قرأ أحد البروتستانتيين الإنجيل، وتلا الصلاة حاخام، وألقى راهب يسوعي عظة. حتى سفير الصين أوفد ممثلين عنه.

حسب نظرية المونسنيور العجوز الشخصيَّة فإن تحوّل أويندو، هو بسبب جرح شخصي لشعوره ولكبريائه. اعتاد الأسقف أن يظهر على شاشة التلفزة كل يوم أحد ليقيم القداس مباشرة في ماناغوا. إلاّ أن الحكومة الجديدة رأت، عن حق، أن القداس يجب أن يبثّ كل يوم أحد من مدينة معينة: غرينادا، ليون، وكذلك من رعايا القرى الريفيَّة. رفض الأسقف التنازل عن احتكاره، فألغت الحكومة بمنتهى البساطة القداس المتلفز.

عملت الحكومة ما بوسعها لكي تكافىء الموقف الشْجاع للأسقف أويندوفي بداية الحرب الأهلية. عرضت عليه المساعدة لإعادة بناء الكاتدرائية التي دمرّتها الهزة الأرضية: رفض بدون سبب مقنع. عرضوا عليه قطعة أرض لبناء كاتدرائية جديدة: رفض لأنه سيقام بالقرب منها معسكر للجيش. هل تمنع الكنيسة الجنود عن حضور القداس؟

«إنه محافظ جداً» قال المونسنيور دون سوء نية. (في الماضي، عندما كان لا يزال كاهناً بسيطاً عادياً، خاطر كثيراً بإيواء لاجئين ساندينيين عنده). «يرتدي دائماً الجبَّة الكهنوتية». يبدو أن يوحنا الثالث والعشرين والفاتيكان لا وجود لهما بالنسبة لهذا الأسقف.

في عام ١٩٨١، افتتح الأسقف حملة مريميَّة، وحدَّد ٢٨ تشرين الثاني يوماً وطنياً «للحبل بلا دنس». يمكن أن نتساءل عن فائدة مثل هذا المشروع في نيكاراغوا وهي بلد لا يقلّ كاثوليكية عن بولونيا. ساندت الحملة البرنسا جريدة المعارضة المحافظة، وكانت تفوح منها رائحة عمل سياسي واضح.

كتبت البرنسا، في كانون الأول، عن «أعجوبة العذراء التي ترشح عرقاً». وراقبنا بالفعل الظاهرة على تمثال من خشب في كنيسة كوابا. ولم يلبث المؤمنون الاتقياء أن تجمَّعوا على قدم المذبح الذي شيد على جناح

السرعـة لكي يتلقوا العـرق الذي يـرشح في قـطع من القطن المـطهّـر. ثم تـوقف الكـلام عن العـرق ويـدأ عن الـدمـوع (هـل اعتـبروا العـرق غـير لائق؟): الدمع الذي يذرف على نيكاراغوا التعيسة تحت النـير السانـديني. والغريب في الأمر أن العذراء لم تذرف الـدمع يـوماً عـلى نيكاراغـوا في ظلّ حكم سوموزا.

تبـدي الكنيسة، عـادة، الكثير من الحـذر تجاه العجـائب. وتخضع كـل أعجوبة لتحقيق دقيق. لم يحصل ذلك في نيكـاراغوا. قـام الأسقف بزيـارة للتمثـال، وأعلن شرطيُّه المحـافظ مطران فيڤـاس أن ليس هناك أي تفسـير إنساني لهذا العرق (أو للدموع هذه).

لكن التفسير الإنسـاني ما لبث أن حضر: فقد كـانوا كـل ليلة يغطّسـون التمثال بالماء ويضعونه في ثلاّجة. وطبعاً، كان «يرشح عرقـاً» أثناء النهـار. مع ذلك، فانكشاف التدجيل لم يكن موضع إعلان من قبل البرنسا ولا من قبل الأساقفة ـ في نهاية عام ١٩٨٢، حاول هؤلاء تعيين كوابا مكانـاً رسمياً للسياحة.

أثيرت زيارة البابا المقبلة إلى المنطقة ذلـك الصباح أيضـاً في المركـز. كان جميع الموجودين معي ينظرون إلى هذه الزيارة بعين الخوف، وتبيّن أنهم على حق. لقد تمّ تعيين كـاردينال جـديد أمـيركي جنوبي رئيس أسـاقفة اليمـين المتـطرف ـ واليمين في أمـيركا الـلاتينية لا عـلاقة لـه بـاليمـين المحـافظ في أوروبـا. إنه يمـين فرقـة الموت في السلفـادور، اليمـين الـذي اغتـال رئيس الأساقفة روميرو. ربّما وضع البابا، تحت تأثير الكاردينال، شرطاً لمجيئه وهو انسحاب الكاهنـين الموجـودين في الحكومـة: الأب ديسكوتـو وزير الشؤون الخـارجية، والأب كـاردينال وزيـر الثقافـة. كـان الجميـع في المـركـز ضـدّ التنـازل. سحب هذا الشرط فيـما بعد، لكن الأب ديسكـوتو تغيّب بمهمّـة ديبلوماسية إلى الهند أثناء الزيارة البابوية. وأظهرت كل محطات التلفـزة في العالم صورة الأب كاردينال هذا الرجل العجوز الأشيب، والشـاعر المحـترم

في أميركا اللاتينية، جاثياً على ركبتيه يقبِّل يد البابا الذي رفض ذلك ملوِّحاً بإصبع رافض. لم يكن المشهد جميلاً. ولم يقدِّر الجمهور ذلك، كما انه لم يقدر ألّا يقوم البابا بأي ذكر للمآتم التي جرت، بالأمس، في المكان نفسه، لـ ١٧ شاباً ساندينياً اغتالتهم الكونتراس.

بعد مغادرتي كهنة المركز، ذهبت إلى مدينة، سُميت كيوداد سنديتو، للقاء راهبتين أميركيتين تنتميان، مثل الأب ديسكوتو، إلى رهبنة ماري كنول. يبلغ عدد سكان المدينة الفقيرة جداً حوالى ٦٠ ألف نسمة. تشارك الراهبتان السكان شروط حياتهم البائسة: غرفة ذات سقف من صفيحة من التنك، ومضخة في الفناء. إحداهما امرأة شابة تركت عندي انطباعاً خاصاً. تعيش هناك منذ عشر سنوات، عاشت ديكتاتورية سوموزا وكل الحرب الأهلية.

حدثتني عن التغييرات التي أحدثها الساندينيون. لم يكن في المدينة، في أيام سوموزا، سوى طبيب واحد كسول وعديم الكفاءة. أما اليوم، فهناك ثلاثة مستوصفات يدرّبون بعض القابلات، وتحسَّنت بشكل ملحوظ صحة الأولاد. في أيام سوموزا، لم يكن أحد يملك صك ملكية لكوخه، أو لقطعة أرضه. كانت المدينة بكاملها ملكاً للسوموزيين الذين يستطيعون طرد من يريدون، إذاً، لماذا زرع الأرض؟ الآن، استطيع أن ألاحظ بنفسي أن السكان يزرعون الخضار والزهور أيضاً.

طرحت بعض الأسئلة حول هنود ميسكيتوس. لقد استفادت الدعاية المعادية للساندينية كثيراً من نقل القبيلة التي تعيش على الشاطىء الأطلسي. وتتعرُّض تلك المنطقة، التي أصبحت مسرحاً رئيسياً للمعارك، لاجتياحات الكونتراس القادمين من هندوراس بقيادة أعضاء من الحرس الوطني القديم التابع لسوموزا. اعترف توماس بورج ذاته وهو وزير للداخلية، أمامي، أن الساندينيين تصرَّفوا بشكل سيء. لم يعرفوا كيف يفسِّروا للهنود لماذا يعيدون إسكانهم في معسكرات خارج القطاع. لكن

الراهبة الأميركية قامت بزيارة هذه المعسكرات، وواجهتْ الدعايات عن المعاملة السيئة بتكذيب شكلي. وجدت الهنود يقيمون في مساكن جيدة، وتغذيتهم كافية، والعناية الصحية بهم أفضل مما كانت عليه بأضعاف.

انتقلنا باكراً، صبيحة اليوم التالي، في تمام الساعة السابعة والربع، إلى منطقة أخرى للمعارك على الحدود الشمالية مع هندوراس. كنا ستة أشخاص: أنا وشوشو وطبيب ملتح وصحافي كوبي ومصوِّر ودليلينا، نقيب في الجيش. وصلت سيارة لتنقلنا من مدخل القطاع في شينانديغا. كانت جماعة الكونتراس قد فجرّت جسراً على الطريق. وتستمر أعمال الإصلاح بمساعدة مهندسين كوبيين.

توقفنا في سوموتييو، وهي مركز أركان عام، حيث شاهدنا تدريب الشرطة المحلية وهي نوع من الحراس مؤلف من الفلاحين والحرفيين. كان يوم أحد. رأينا العديد من الأولاد برفقة أمهاتهم. شعرت بالانزعاج عندما رأيت ولداً في الثامنة من العمر يتصدّى للمصوِّر بالبندقية ـ شعور غير عقلاني، بدون شك، لأنه بالنسبة لولد، ما هو الفرق بين بندقية حقيقية ولعبة؟ وركض فتى في الرابعة عشرة وانبطح أرضاً وفتح النار على هدف موضوع بالقرب من رجل مسنّ يبدو أنه ناهز الثمانين من العمر. لاحظت أن الفلاحين في نيكاراغوا يكبرون أكثر من عدد سنينهم، لكن هذا الرجل، فإن عمره الحقيقي ملائم لوضعه الجسدي: علمت أنه قاتل إلى جانب ساندينو ضدّ أنستازيو سوموزا والمارينز الأميركيين، إلا أن ساندينو قتل عام ١٩٣٤. كان يوحي هذا الرجل باحترام كبير. عندما عرف انني كاتب، تكلم معي بجدِّية عن غارسيا ماركيز. وعندما قلت له إن «غابو» كان صديقي، صافحني بحرارة.

الطريق الحدودية التي سرنا عليها خالية تقريباً من المارة، تسيطر عليها التلال من جهة هندوراس. وحسب قول الدليل، فالقصف العشوائي من هندوراس يوقع يومياً من ٣ إلى ٤ قتلى. لا وسيلة للردّ إذا كانت نيكاراغوا

لا تـريد أن تتهم بـإعلان الحـرب. أعتقد، عـلى الأقل، أن القـطاع الذي نتـوجه إليـه هو هـادىء نسبياً. وصلنـا أخيراً إلى مـدينـة صغـيرة، سـانتـو توماس، على مسافة ثلاثة كيلومترات من الحدود ـ بالفعل، ثلاثمئة متر فقط تفصل هندوراس عن طرف المدينة حيث أقامت الشرطة قيادة أركانها العامة (رأينا شرطياً ينام على الأرض مستخدماً بنـدقيته كـوسادة). حفـرت خنادق نصف دائرية لمواجهة أيّ هجوم محتمل. وقاموا بمناورة خاصة أمامنا. ما أن أعلن الإنـذار حتى قفز الجنـود إلى الخندق ـ شبـاب ومسنّون قفـزوا واتخذوا مواقعهم بدرجات متفاوتـة من الرشـاقة. كـان الوعي عنـد البعض يعوض عن الشرط الجسدي. كم كان عمر سيفرح بهذا المشهد. افتقدته كثيراً كل تلك الأيام، وتكلمت عنه غالب الأحيان: مع توسـاس بورج، ومـع رئيس المجلس السياسي دانيال أورتيغا، ومع وزير الدفاع والقائـد الأعلى للقـوات المسلحـة هومـبرتو أورتيغـا، ومع قـائد الأمن «لينـين سـيرنـا»، ومـع الأب كاردينال الذي استقبله في باناما. هل كان إيدن باستورا يترك رفـاقه لـو أن عمر بقي حياً؟ طرحت هذا السؤال على نفسي بعض الأحيان.

اكتشفت في اليـوم التالي، خـلال زيارتي لتـوماس بـورج، حيث التقيت زوجته وابنته الصغـيرة، أن مهمتي لن تكون سهلة كـما كنت أتوقـع. أبدى بورج انتقاداً تجاه كل من الكولونيل دياز ونورييغا. ربّما هو يشـوِّه صورتهـما كون الجنرال باراديس أرفع منهما رتبة رسمياً.

افترض أنه بالنسبة لرجل مثل بورج، قـاتل وعـانى وعرف السجن طيلة حرب أهلية، يؤدي الصبر لديـه إلى فقدان الصـبر، لكنه كـان يعرف كيف يسيطر عليه حتى ولو كان مكلفاً. لكن المرحلة التي كان يسيل الدم فيها في بانامـا تبدو بعيـدة جداً: لم يكن ذلـك هو الشكـل الطبيعي للثـورة في هذا البلد. لن يبقى باراديس، صديق الجنرال الأميركي نوتنغ، مدة أطول عـلى رأس الحـرس الوطني. يجب أن يستقيـل لكي يرشـح نفسه للرئـاسـة عـام ١٩٨٤ ـ هذا ما فعله في السنة التالية قبل موعد الانتخابات. ولكي نستعيد

تعابير دياز، فإن أيام البطولات قد تطورت في پاناما ـ المرحلة التي فيها كان عمر مستعداً، إذا لم يحصل على معاهدته، أن يخرب القناة، ويحمل السلاح ويذهب إلى الغابات والجبال والأدغال. فبعد القتال ضدّ سوموزا، هناك المواجهة مع الكونتراس، وباستورا، والهندوراس، ومن ورائهم القوة الهائلة للولايات المتحدة. إن پاناما، بدون عمر، حسب رأي بورج، تتحوّل إلى پاناما الـ ١٦٣ مصرفاً، ويخوت الأثرياء الأجانب تحمل الأعلام اليانامية، والطغمة التي لم أرها بعد. وباستثناء عمر والخنازير المتوحشة، لا تعني المواجهة مع الولايات المتحدة إلّا الطلاب وسكان الأكواخ الفقراء كمثل حيّ إلشوريللو. فالسياسة، بالنسبة للعديد من الفلاحين، ورأيت ذلك بأمّ عيني، تتوقف عملياً عند سعر اليوكا. أما في نيكاراغوا فوقفت البلاد بأسرها ضدّ الطاغية وجيشه.

أتاح لي بورج التعرُّف إلى لينين سيرنا، رئيس الأمن، الذي أدخلني إلى متحفه الصغير المخصّص للأدلة على تدخل الولايات المتحدة، فرأيت ألبسة عسكرية تحمل اسم الصانع الأميركي وعنوانه. ومتفجرات مموّهة بمصابيح كهربائية، لا بل أسوأ من ذلك، في علب «بيك ـ نيك» ميكي ماوس (مع ماركة «وولت ديزني پروديكشن») ممغنطة من إحدى جنباتها لكي يمكن لصقها على باب سيارة ـ لا ينجو منها أيّ ولد. جاء رئيس الأجهزة السرِّية الأميركي إلى نيكاراغوا. وخلال مأدبة مع فريق أورتيغا، سألت هذا الأخير ما إذا كان قد عرض المتفجرات على الجنرال الأميركي. «نعم. أجاب أورتيغا، قال لي أن مصدرها ليس الجيش». قاد الجنرال النقاش بهاجس المناورة، إلّا أنه أظهر ودّاً أشدّ عندما اعترف أن هناك بعض التباين بين البنتاغون ونظارة الدولة. تذكرت تحذير البنتاغون لكارتر: يلزمنا مئة ألف رجل لضمان وحماية القناة والقطاع. فكم يلزم إذاً لاحتلال نيكاراغوا؟.

٦

تلقيت، إثر سهرتي الأخيرة في نيكاراغوا، دعوة لزيارة غير منتظرة تركت

في أعماقي ذكرى أليمة. فقد كنت وشوشو مدعوّين لدى السينيور كاستيليو الذي يهتم بالمسائل التجارية لحساب وزارة الدفاع. منزله رائع وكذلك الحديقة، والمضيفة رائعة الجمال، ويسهر على سلامتنا حرس بالزيّ الرسمي، ولا يسعني إلّا أن أبوح انني في وسط هذا الديكور شعرت أنني منعزل عن الثورة الساندينية. أقمت في غرفة في داخل المنزل وشوشو في جناح صغير يقع في الحديقة. وصلت رسالة تنبئنا بأن مارسيال يتمنى اللقاء بي، ولكن دون أن يكون مرغماً على الدخول لدى كاستيليو. تمّ الاتفاق على الموعد في الجناح.

لم أرَ سلفادور كايتانو، منذ لقائنا عام ١٩٨١ في پاناما حيث حاولت دون جدوى أن أنقذ حياة السفير الجنوب - أفريقي. يبدو لي اسمه المستعار الآن أنه تحفظ مبالغ فيه: لاحظت أنه يستخدم هذا الاسم ليهديني، هذا المساء، كتاباً، لكن الكتاب كان قد نُشر باسمه الحقيقي. ربّما هذا الأمر كان يشكلُ قبل سنتين عدم احترام لقواعد الأمن وأصوله. فقد كان كايتانو واحداً من قادة المنظمة التي تجمع الثوار السلفادوريين. ربّما هو نوع من الحذر تجاه الجوّ البرجوازي المرفّه الذي يخيّم على شريك اورتيغا يفسّره اشمئزازه على الظهور في المنزل. ووصل إلى الجناح برفقة اثنين من الحراس المسلحين.

نشرت التايم ملاحظة مزعجة بصدد لقائنا السابق. وقد قلت، بدون روّية، لصديقي ديبدريش أن كايتانو له نظر عديم الشفقة، ولا أريد أن أكون أسيره. اختيرت هذه الملاحظة من النصّ الكامل الذي فيه تصدّيت للآلام التي يعاني منها كايتانو في السجن وللتعذيب. نشرت التايم رسالتي مركزّة، لكن الصحافة اليمينية السلفادورية استولت على الورقة الأصلية لتستخدمها ضدّ كايتانو. كنت انتظر، إذاً، نوعاً من الفتور عند لقائنا الثاني. لم يحدث ذلك. ألغى كايتانو كل اعتذاراتي بحركة واحدة: كانت تلك قصة بدون أهمية كما قال: صافحني بما يشبه تقريباً مصافحة المحبة

والودّ. كان قد أرخى لحيته على طريقة هو شي مينه، ويبدا أكبر سناً بكثير من ٦٣ سنة. لن استطيع أن أصف نظره بأنه عديم الشفقة لا يرحم.

انتقل فوراً إلى الحديث عن الأمور الجدّية ووضع خريطة كبيرة للسلفادور على ركبتيه. وأشار بسرعة، بأصابعه النحيلة، إلى المواقع الهامة للجيش وللثوار، وكذلك إلى الخطة التي ينوي تبنيها: هجوم من هنا، ومن هناك، انتقال للفدائيين من هذه المنطقة إلى منطقة أخرى. بدا أنه متأكد من النجاح كلياً. ربما لو كنت عميلاً سرياً لشكّل كل ذلك معلومات ثمينة (أو خاطئة). وقادني المصير الذي كان ينتظره بعد بضعة أشهر، إلى التساؤل عن هذا الميل لوضع الثقة بمثل هذه السهولة.

عندما انتهى من الحديث، طوى الخريطة واتخذ النقاش جولة عامّة. فسألته ماذا كان يفعل بالأسرى الذين من المتوجّب أن يكونوا عبئاً على الفدائيين. وتذكّرت أن في سييرا مايسترا، أرغم كاسترو أسراه على نزع سراويلهم، ثم أخلى سبيلهم. «نحن بحاجة إلى أحذية، قال كايتانو، وليس إلى سراويل. نأخذ أحذيتهم ثم نخلي سبيلهم. نحن بحاجة ماسّة إلى الأحذية. على نوعية الأرض التي عليها نحارب يخدم الحذاء لمدة شهر». وذكرت حلم عمر حيث وجد نفسه بدون حذاء في الأدغال. وأضاف كايتانو إن السلاح لا يطرح مسألة هامة. بوسعنا أن نحصل عليه من أيّ جهة، ونحن نستولي دائماً على كميات ضخمة من العدّو.

سألته عن المستقبل في حال احراز النصر. أكّد لي أن حرّية المعتقد ستكون كاملة في السلڤادور. اكتفيت بتدوين اقتراحاته، وكان يعرف طبعاً أنه يتوجّه بالحديث إلى رجل كاثوليكي. سيظهر المستقبل وحده إذا كان ما يقوله هو الحقيقة، لكن ما من أحد يجهل أن الأسقف داماس يتخذ في السلڤادور نفس الموقف الشجاع ضدّ كتائب الموت، مثل الأسقف روميرو. صرّح لي كايتانو أن الفدائيين تلقوا مساعدة كبيرة من بعض الكهنة. اعتقد أنه يتحدث بصدق. ربما بدأ بالتخلي عن الآلام السابقة التي عانى منها

وتلك المرارة. لم يكن يؤمن، ظاهرياً، بحلٍّ سياسي.

أهداني، قبل أن ينصرف، نسخة من كتابه الأوحد: («سجن وجنّة»). ضمّني إليه بحرارة ثم تـوارى في الحديقة مع حراسه الاثنين. بعد ثلاثة أشهر، انتحر.

كان كايتانو في ليبيا (لترتيب صفقة سلاح مع القذافي؟ من يدري؟) عندما وصله نبأ الجريمة، في ماناغوا، التي قضت على مساعده ورفيقه في السلاح المقرّب إليه منذ سنوات عدة، القائد ميليدا أنايا. فالجريمة لسبب سياسي ليست أمراً نادراً، لكن ما من شيء يبرّر الوحشية الاستثنائية لهذه الجريمة. إذ وجدوا ثمانين طعنة خنجر على جثة الضحيّة، وقُطعت العنق كلياً بمثابة رصاصة الرحمة. عندما رجع كايتانو إلى ماناغوا، كان المجرمان في السجن وكذلك الذي أصدر الأوامر بالقتل. وحسب الشائعات، كان الفاعل عضواً في فرقة الفدائيين، وقد وضع فيه كايتانو كل ثقته. جلس كايتانو على الكرسيّ ثم أطلق رصاصة في قلبه. كيف يمكننا نحن في الغرب أن نحكم على مثل هذا الرجل، أو أن نقدّر العذاب الذي ألمَّ به؟

لا يزال الرجال الثلاثة ينتظرون الأفراج عنهم، في أحد سجون ماناغوا. إلّا إذا جاء اليوم الذي سيقدمّون فيه إلى العدالة أمام حكومة شعبية سلفادورية. ومنذ موت كايتانو، لا يزال، سرّ الجريمة والانتحار، يتضخم. يقال إن ميليدا أنايا اتخذ موقفاً لصالح تسوية سياسية للنزاع. لذلك انقسمت مجموعة كايتانو. وقيل أيضاً أن كايتانو هو الذي أصدر الأمر باغتيال القائد أنايا. ولكن لماذا هذه الوحشيّة؟ ولو أنه كان مذنباً فعلاً، فلماذا رجع إلى ماناغوا؟ هل سنعرف الحقيقة في يوم من الأيام؟

٧

باشرت في الصباح التالي بالقسم الأخير من البرنامج الذي حضرّوه لي.

استعلم من الكوبيين كل من هومبرتو ودانيال أورتيغا؛ فتلقيت التأكيد بأن دعوتي هي من قبل فيديل كاسترو وليس من «كازا دي لاس اميركاس». قدَّم النيكاراغويون طائرة نفاثة صغيرة كانت فيها مضى الطائرة الشخصية لسوموزا، كما قالوا لي. ابتسم الطيار مازحاً، قائلاً لي، عندما اتخذت مقعدي، «لقد اخترت مقعد سوموزا».

لدينا الآن رفيق رحلة فريد. تسلَّط الرجل على شوشو وتمنَّى نقله إلى باناما. كان واحداً من الفدائيين الكولومبيين، الذين اجتازوا الأدغال قبل ١٩ سنة، وقد أراد العودة إلى بلاده لكي يستفيد من العفو العام الذي منحه الرئيس الجديد. ليست لديه أوراق ثبوتية ولا يمكنه القيام برحلة عادية. وبانتظار ايجاد جواز سفر له، اقترح شوشو أن يقيم في باناما في منزل روجيليو وليديا، كما سبق وفعل بالنسبة للبروفسور الغواتيمالي. (عندما يعني الأمر نقل أسلحة أو رجال خفية، يفقد شوشو كل ما لديه، لكنني ألوم روجيليو وليديا.) لم يكن الكولومبي ثرثاراً، يعتمر القبعة حتى أثناء تناول الطعام، ويقضم أظافره في الوقت الذي يأكل فيه.

استقبلنا في هافانا أحد معارفي القدامى، السيد أوتيرو، الذي رافقني - وكذلك الشاعر پابلو فرنانديز - في كوبا عام ١٩٦٦. التقيت أيضاً برئيس الأمن في تلك المرحلة السيد پينيرو (Pineiro) الذي رأيته للمرة الأخيرة في سنة ١٩٦٦ نفسها يلعب كرة السلة مع راوول كاسترو ووزراء آخرين في الساعة الثانية فجراً تحت أنظار زوجاتهم. أصبحت لحيته الشقراء المؤثرة بيضاء مثل الثلج وتضفي عليه مظهر البطريرك. ونحن في طريقنا باتجاه المنزل، في إحدى ضواحي هافانا، حيث يتوجب علينا أن نقضي الليلة، تحدثنا عن أشياء وأشياء. تملكتني الدهشة عندما أدركت أن الرجل الذي بقي مدة طويلة رئيساً للأمن في كوبا يتصوّر، دائماً، أن م. ي ـ٥ وم. ي ٦ ـ هما فرعان متنافسان في أجهزة الاستخبارات العسكرية

الإنجليزية(*). تمنّعت عن إذلالـه إذا ما صحّحت خـطأه. بعد تنـاول طعام الغداء، انصرف بينيرو ليرتب لقائي مع كاسترو.

جرى اللقاء، مساءً، في المنزل الذي يوجد فيه صديقي غارسيا ماركيز. كان كاسترو مدعواً لتناول طعام الغداء في السفارة الأسبانية برفقة غابـو. لم أره منـذ تلك الليلة في عام ١٩٦٦ حيث أهـداني لـوحـة لصـديقي بـورتـو كوريرو، بعد لقاء طال كثيراً. بدا لي شابـاً، نحيلاً وهـادئاً. وقـد راقت له الصيغة التي استخدمتها لإلقاء التحية عليه: «لست مـرسلاً. أنـا رسالـة». وبتعبير آخر، أرسلني الكولونيل دياز ونـوربيغا إلى نيكـاراغوا حيث أرسلني الأخوان أورتيغا إلى كوبا بصفتي صديقاً معروفاً لعمـر توريخـوس لكي أظهر بالرغم من باراديس أن أفكار الجنرال باقية حية في باناما.

«لو انتخب باراديس رئيساً لكان ذلك عملاً جيـداً»، قال كـاسترو، لأنـه لن يعـود بإمكـانه أن يسبّب الكثـير من المتاعب. وبـالمقـابـل، لـو نـافسـه المعارضون بمرشح ربح المعركة لكانت اليوم باناما تحت حكم رئيس محافظ، وتهديد جنرال محافظ أيضاً».

وظهـر كـاسـترو أيضـاً أكـثر تفـاؤلاً من كـايتـانو بـالنسبـة للحـرب في السلفادور كان يـأمل بـأن الثوار سـوف يتسلّمون السلطة قبـل نهاية عـام ١٩٨٣. ومعروف اليوم أن الكولونيل دياز، الذي كان يؤمن بصراع طـويل وغير حاسم، هو أقرب إلى الحقيقية.

وبإلحاح من غابو، دون شك، قرأ كاسترو حوالى ثلث كتاب مـونسنيور كيشوت، مما دفع بنا إلى التحدث عن الخمور، هذا الموضـوع الذي أظهـر له اهتماماً غير منتظر. ولقد كان أيضاً عـلى معرفـة من مشاكـلي مع العـدالة النيسيّة (نسبة إلى مدينة نيس).

(*) م. ي - ٥ تابعة للأجهزة المضادة للتجسس داخل إنجلترا. وم. ي - ٦ تابعة لأجهـزة المخابرات العاملة في الخارج.

أثـار غابـو أيضاً الـروليت الروسيـة تلك اللعبة التي اهتممت بهـا خلال شبابي (وكمثل عادته، مزج غابو الوقائع وقـال إن ذلك حـدث أثناء اقـامتي في فيتنـام). أراد كاسـترو معرفـة الـظروف الصحيحـة الـدقيقـة، كم مـرة لعبت، وبأيّ نسب. وقال لي: «كان يجب ألاّ تكون على قيد الحياة الآن».

ـ هذا خطأ. فالحظوظ، من الناحية الحسابية، هي نفسهـا في كل مـرة: الموت خمس مرات مقابـل واحـدة. ليست النسبـة المئـوية متـأثـرة بعـدد المحاولات.

ـ لا. لا. أنت على خطأ. الحظوظ ليست نفسها». وبدأ بشرح عمليات حسابية غامضة لم اتوصّل إلى إدراكها، ليصل إلى النتيجة نفسها: «يجب ألاّ تكون على قيد الحياة».

أراد أن يعرف أيضاً أية طريقة كنت أتبع.

«لم أتبع أي نظام. آكل ما أريد وأشرب ما أريد».

اغتاظ بشكل واضح لأنه كان يتبع هـو نفسه نـظاماً دقيقـاً جداً، لـذلك غيّر الموضوع بسرعة.

وكمثل ما حـدث في عام ١٩٦٦، افـترقنا في الصبـاح البـاكـر. قال لي، ونحن أمام الباب، وعلى وجهه ابتسامة: «قل لهم إنني تلقيت الرسالة».

تلك الليلة، عانيت دقيقة من الذعر وأنا في غرفـة الحمّام. كـانت هناك قصاصة ورق كستنائية اللون في قعر المرحاض. عندما سقط عليها البـول، قفـزت قصـاصـة الـورق إلى خـارج الحـوض ولامست السقف. كـانت ضفـدعة. لم يبقَ لـديّ، ربّما، ذكـري راسخة أكـثر في زيـارتي الأخـيرة إلى كوبا. لم أكن أعتقد أن بوسع ضفدعة أن تقفز أكثر من مترين عاموديّاً.

٨

بعد بضعة ساعات، كنت في طريق عودتي إلى پـانامـا حيث لم أكن أبداً

مستاءً من اكتشافي أن غرفتي في الفندق قد أُعطيت إلى زائر رفيع الشأن هو السيد كيسينجر. كنت أقل سعادة عندما لاحظت انني، في القصّة، قد فقدت ربطة عنق وهي هدية من شخص محبَّب إلي. ـ ربما ورثها السيد كيسينجر. وحرسي الودود يضمن الآن سلامة السيد كيسينجر.

جاء الكولونيل دياز لرؤيتي، وعرضت عليه وقائع رحلتي. أكدَّ لي أن معرفتي لپاناما ستبقى ناقصة ما لم أتمكن من رؤية كيف تعيش تلك البرجوازية المخملية التي كان عمر عدوها اللدود. كان عليَّ أن أرافقه هذا المساء إلى مأدبة يقيمها أحد معارفه. «لا تقل لأحد انك ذهبت إلى نيكاراغوا وكوبا».

كان الاستقبال كابوساً، ولم يكن شوشو معي لكي يساعدني. تملأ الضوضاء مساحة شارعين كاملين. أقيمت الوليمة في حديقة، لم استطع الوصول إليها، لأنني كنت منفصلاً عنها بمئات المدعوين الذين يتحدثون بصوت مرتفع جداً لكي يستمعوا إلى بعضهم بسبب ضجيج الاوركسترا. وصرخ أحد المدعوين في أذني: «هل انت قادم تواً من إنجلترا؟» قرَّرت أن اتجاهل تحذير دياز:

«ـ لا. من كوبا.

ـ من أين؟» كان الصوت منكراً.

«من كوبا، صرخت في وجهه. ومن نيكاراغوا».

فركض يحتمي وسط الجمهور. وركضت أحتمي خارج الجمهور. هل هؤلاء هم الناس الذين سينتخبون الرئيس المقبل؟

٩

كنت مع ابنة عمر على متن طوّافة، وكنّا نتأرجح في كل اتجاه. فنحن نعود من زيارة لقرية تمَّ تدشينها تخليداً لرئيس اساقفة سان سلڤادور الذي

اغتيل ـ وهو أول رئيس أساقفة منذ القديس توماس بيكيت الذي قُتل على المذبح وهو يحتفل بالقداس.

أُقيمت كيوداد روميرو في وسط الأدغال على أرض منخفضة وراء قرية كوكليزيتو حيث شيَّد عمر بيتاً صغيراً، وحيث زرت، لثلاث سنوات خلت، مزرعة الجواميس. يتألف سكانها من ٤٢٠ لاجئاً سلفادورياً. ما يقارب حوالى نصف العدد هم من الفتيان، وقد ولد بعضهم فيها. دمَّر القصف منازلهم في السلفادور، ثمَّ أحرقها العسكر. هربوا إلى هندوراس ليكتشفوا فيها ظروفاً أسوأ وأخطر ممَّا في بلادهم. لست أدري كيف استمع عمر إلى مآسيهم، لكنه أرسل طائرة لتنقلهم إلى پاناما. ومنذ وصولهم، أقاموا بعض الوقت في مخيم عسكري في سيمارون (Cimarron) لكي يستعيدوا قواهم، ثم دعي رئيس المجموعة لاختيار موقع لبناء قريته. وقع اختياره على هذه الزاوية من الادغال بسبب خصوبة أرضها، واحتياطي الخشب فيها الذي لا ينضب لبناء المنازل، ولوجود نهر صالح للملاحة: فالتموين الذي يتمّ جواً بغياب الطرقات، سيعتمد على هذا الطريق المائي.

تجمَّع القرويون كلهم في مباني المدرسة ليرحبوا بنا ـ ولكي يستقبلوا بصورة خاصة، ابنة عمر، ولأن ذكرى الجنرال عزيزة على قلوبهم. ففي كل مرة كان ينتقل إلى منزله في كوكليزيتو، ينتقل عمر بواسطة الطوافة إلى القرية. جيوبه مليئة دائماً ببعض قطع الحلوى للأولاد. تحدث أحد القرويين عن القصيدة التي وضعها تخليداً لعمر. طلبت سماعها. وتكفَّل فلاح آخر بتلحينها، وأنشد الرجل قصيدته، يرافقه قرع الطبول، وقيثارة، وكمان.

تسمَّع القرويون مراراً عديدة إلى هذه القصيدة، يستمعون إليها بخشوع ورهبة. يستمعون إلى قصة حياتهم الخاصة، وبالنسبة لهم، فهذا النص يبدو منذ الآن خاصاً بالأدب. القوافي الهجينة تعطي الكل نوعاً من الشعر غير المصقول. (ترجم لي شوشو كلماتها).

أريد أن أقصَّ حكاية،
كم عانى من التعذيب شعبي،
بسبب مجلس مجرم
يجهل الشفقة.
كان الأول من أيار،
قصفتنا طائرتان.
ثم أحرق الجنود بيوتنا.
عندئذ، انتقلنا إلى هندوراس.
ووصلنا إلى لاس إستانسياس.
بقينا فيها ستة أشهر
تحت رقابة دقيقة.
ثم جئنا إلى پاناما
مروراً بسيهارون حيث أقمنا بعض الوقت،
لكي نأخذ قسطاً من الراحة.
الحكومة الپانامية
والسينيور عمر توريخوس
جنرال الفرقة
هما اللذان قدما لنا الملاذ.
وپاناما اليوم غارقة في الحزن،
ونحن نقاسمها هذا الحزن
لأن البلاد فقدت رجلاً كبيراً،
رجلاً شجاعاً جداً.
كان الجنرال قائداً كبيراً،
رئيساً يعرفه العالم بأسره،
يناضل من أجل الفقراء
رجل صادق ومحبوب جداً.

هذا الشعب الپانامي
وحرسه الوطني،
معجب أنا بهما،
وأحبّهما.
إنه شعب أخويّ
ونقول نحن الأميركيون ـ اللاتينيون
بصوت واحد صارخ:
لن ننسى أبد الدهر جنرالنا المحبوب.
هكذا يقول الوداعَ
الفلاحون المتواضعون
الذين يعيشون بعيداً عن أوطانهم
بسبب غلطة حكم مجرم.

لفت انتباهي، من بين الفلاحين القرويّين، فتاة ذات عينين جميلتين حزينتين. يبدو أن لها من العمر ستة عشر ربيعاً. افترضت أنها كانت أماً لطفل صغير كانت تضمّه بين ركبتيها، أما عندما وقفت بعد نهاية النشيد، لاحظت انها كانت هي نفسها ولداً. ليس لها من العمر أكثر من اثنتي عشرة سنة ـ النار، القنابل، والموت، جعلتها تنضج قبل الأوان.

بعد الاجتماع، أراد الفلاحون أن يظهروا لنا، بأيّ ثمن، شيئاً ما. سمعت كلمة «ألتار» (Altar) تتردّد باستمرار في أحاديثهم بينما هم يقودوننا إلى حدود القرية. كانت الكلمة تعني مذبحاً، بنوه بأيديهم، مع صورة لرئيس الأساقفة الذي اغتيل، موضوعة في الوسط، تحيط بها صورتان لعمر. فكرّت بكنيسة كوكليزيتو المهجورة، مع الدجاج الباحث عن الأكل في الجناح الجانبي، وبجملة عمر أيضاً عن مقابر القرية عند لقائنا الأول، قبل سبع سنوات: «إن هم لم يهتموا بالأموات فكيف سيهتمون بالأحياء». هنا، لا يوجد أيّ شك: يعتني الناس بأمواتهم.

١٠

حان الوقت لأبدأ بالوداع لكن عليَّ مهمة يجب إنجازها. لم يكن الجنرال باراديس، في الحقيقة، من الذين يبذلون جهداً لإبقاء مُثلُ عمر توريخوس على قيد الحياة، لكنني لا أستطيع أن أغادر پاناما دون أن أراه وأشكره لأنه وضع تحت تصرفي طائرة تنقلني إلى ماناغوا، وطوافة إلى كيوداد روميرو. دعاني باراديس لتناول الطعام في «شارلوت» المطعم الجديد الذي شيِّد تخليداً لذكرى شارلي شابلن. كنت قد وافقت عندما قال لي مالك المطعم انه سيكون بين المدعوين أحد اللاجئين الكوبيين وهو صحافي قادم من ميامي في أثر كيسينجر. وحسب تجربتي الخاصة، لا يوجد صحافي أهل، كلياً، بالثقة، فكيف إذا كان لاجئا كوبياً... أية أكذوبة لا يمكن أن يخترعها حول زيارتي لكاسترو؟ أرسلت كلمة إلى باراديس لكي أعلمه بأنني متأسف إذ لا استطيع أن أحضر إلى المأدبة طالما أن الصحافي هذا موجود هو أيضاً. فعدَّل الجنرال بلائحة المدعوين.

شعور غريب أن أجد نفسي اتناول الطعام في المنزل الذي كان يتقاسمه سابقاً عمر مع روري غونزاليس، والذي يقيم فيه الآن باراديس. لم تجر تغييرات ظاهرة، لكننا لا نستطيع إلاّ أن نشعر بالفراغ الكبير. فتشت بدون جدوى عن ببغاء عمر. لا عمر. ولا ببغاء. كان الكولونيل دياز والكولونيل نورييغا موجودين هنا: بوسعي أن أقدّم إليهما دعوة إلى نيكاراغوا من قبل لينين سيرنا. نقلت لباراديس تهاني كاسترو المتعلقة برئاسته. يبدو انه تلقاها بسرور كبير مع ابتسامة رضى.

هل وصلت تمنيات كاسترو الطيبة إلى ايديولوجية باراديس؟ أثناء تناول طعام الغداء سمعته، بدهشة، ينتقد سياسة ريغن في أمبركا الوسطى - ووجّه بعض الكلمات اللطيفة إلى الساندينيين. بدا راغباً جداً بأن يظهر لي انه يتبع خطَّ توريخوس. ووسط المأدبة، أهداني ساعة يد حُفرت عليها عبارة: «إلى أخ إنجليزي للجنرال عمر توريخوس، من قبل الجنرال

بـاراديس». من المستحيل رفضهـا، لكنها كـانت هدِّيـة مربكـة. لم استطع تجنب إحساسي بالبسمة الوقحة على وجوه المدعوين الآخرين الذين يعرفون فيما تكمن مهمتي.

انتهت المأدبـة. لم يبق الجنـرال بـاراديس. مـدة طـويلة، أمينـاً لخطّ توريخوس. قرأت بعد بضعة أشهر، حديثاً له اثر زيارة إلى كوستـاريكا أدلى أثنـاءها بتصريحـات معاديـة لسياسـة رئيسه بـالذات، ولنشـاطات مجمـوعة كونتادورا. ثم هنـاك بعض الغموض الـذي أحاط ببـاراديس: بعد بضعـة أشهـر على استقـالته من الحـرس الوطني التي سمحت لـه بـالبـدء بحملتـه الانتخابية، تمّ الإعلان أنه سينسحب من المنافسة. وبعـد بضعة أسـابيع، أصبحت الأمور أكثر تعقيداً أيضاً. سرت ضجة أنه لن يتقـدم إلى الرئـاسة لأن فشلاً متوقعاً سيسيء إلى صورة الحـرس الوطني. هـل أدرك ماذا كـانت تخبىء تمنيات كاسـترو الطيبـة؟ هل يخشى حـدوث ما يخشـاه؟ لقد تـأكدت حديثاً بواسطة اتصال هاتفي أجراه معي شوشو: «باراديس هو مهزوم».

في المسـاء نفسـه، في المـطعم البـيروڤيّ، أقمت مـأدبـة عشـاء وداعيـة لأصـدقائي: شـوشو وسليڤـانـا، روجيليـو وليـديـا، وكـذلـك الـلاجئ الكولومبي الذي لا مفرَّ منه، والذي لم يحصل بعد على أوراقه ـ يلبس دائمـاً قبعته، ويقضم أظافـره على الـطاولة. تسـع عشرة سنة في الأدغـال الرطبـة تعجِّل ربما في نمو أظافره.

بينما كنت في الصباح التالي انتظر طائرتي في صـالون الشرف في المـطار، دخـل كيسينجر وسط صفٍ من أضـواء المصـوّرين. وددت لـو سـألتـه مـا هي أخبـار ربطة عنقي، لكنني آثـرت أن انصرف بسرعـة، لأن الصحـافي الكـوبي هو على نفس طائـرتي إلى ميامي وقـد رآني. كان حـارسي السـابق يشرب فنجان قهوة بالقرب من المدخل ممـا يعني وداعاً إضـافياً بـالنسبة لي. أحسست أنـه يفضل طـريقة الضيف التي عـرفها مـع شوشـو ومعي، وهـو برفقة كيسينجر.

ودَّعت أيضاً پاناما، هذا البلد الصغير الذي رحَّب بي خلال سبع سنوات. ومذ باشرت في كتابة هذا الفصل الأخير، رنَّ جرس الهاتف خمس مرات أو ست متتالية، ودعاني صوت شوشو مستعجلاً للعودة. «يريد النيكاراغويون رؤيتك». يضيف ذلك دائماً لكي يجعلني أصمِّم، وكنت أتلقى هذه الدعوة مع قليل من الملح. لكنني لم أبق غير قادر على الإجابة بدقة: «لا. لا أستطيع الرجوع». أصبحت پاناما من الماضي، وهي فصل من حياتي قد انتهى، ومع ذلك، اتجنَّب، وأتردَّد. ربّما بعد ثلاثة أشهر أو أربعة... في السنة القادمة، سيكون ممكناً. فالقول لشوشو، بشكل نهائي، يعني أن نطوي نهائياً صفحات كتاب، وان نضع على الرفّ كل ما يحتوي هذا الكتاب من ذكريات رجل مات وقد أحببته، ألا وهو عمر توريخوس.

Postace (النهاية)

كنت على خطأ في أن أشك ربّما بالدور المحتمل الذي لعبته الاستخبارات الأميركية في موت عمر توريخوس. منذ إنجاز هذا الكتاب، تعرُّفت إلى تقرير سريّ مؤرخ في ١١ حزيران ١٩٨٠، وموجه إلى وزارة الدولة في واشنطن.

يثير الناشر أو الناشرون الأهمية الحيويّة لپاناما بالنسبة للولايات المتحدة بالارتباط مع السلفادور. «الجنرال توريخوس الذي يتابع إشرافه على القوات المسلحة وحق النقض على السياسة الحكومية، تصفه جانبيتنا النفسية كـ «متقلّب وغير متوقع . . . ديماغوجي «شعبي»، معاد للأميركيين، وسكّير،» ممّا لا يتناسب أبداً مع حليف جدير بالثقة. وعدم ثبات وضعنا في پاناما قد ظهر عندما أدان الرئيس رويو علناً برنامج تدريبنا للسلفادوريين.

نلفت انتباهكم إلى العلاقات الإضافية، المذكورة أدناه، بين پاناما لفادور.

ـ بما أنه، بدءاً، قد دعم الجنرال توريخوس الانقلاب الذي حدث في ١٥ تشرين الأول عام ١٩٧٩، وكذلك الحكومة الپانامية ـ فقد وثقوا علاقاتهم أكثر مع المعتدلين (أي قوى اليسار).

ـ إن صعوبات باناما الاقتصادية وخضوعها للأوساط البنكية الأميركية، تجعل البلاد في موقف صعب من ضغط محتمل من قِبلنا. مع ذلك، هذه العوامل نفسها، مضافة إلى ميلنا للتدخل بدون غموض، يمكن أن تشجع شعوراً جديدا «معادياً للإمبريالية».

ـ خلال الأشهر الستة الأخيرة، عبّرت باناما عن استيائها من عدد، لا بأس به، من نقاط خاصة تتعلق بحالات تُعتبر غير عادلة، وناجمة عن تطبيق المعاهدات.

ـ إن الجنرال توريخوس قادر على تأمين الرقابة على مصدرين تكتيكيَّين أساسيين لكل تدخل عسكري مباشر تقوم به الولايات المتحدة في المنطقة: القناة والقواعد».

هناك وثيقة أخرى نُشرت قبل شهر من قبل مجلس الأمن الأميركي ـ ٣٠٥، الشارع ٤، واشنطن ـ تتحدث عن «الديكتاتورية اليسارية المتطرفة، العدوانية والوحشية، التي يمارسها عمر توريخوس». وتنتقد علاقات الصداقة القائمة بين توريخوس والرئيس كارتر. لم تكن هذه النصوص لتؤثر على علاقات الرجلين ـ سيعرف كارتر أيَّ موقف يتخذ، وأيَّ زيف كان في نشرها، لكن، في نهاية تلك السنة، تسلم ريغن السلطة.

كما أنني بدأت أتساءل إذا كان من الممكن إقصاء الشائعات التي تدور حالياً في باناما بصدد وجود قنبلة مخفيَّة في آلة تسجيل، وموضوعة في طائرة عمر توريخوس. (وضعها أحد الحراس).

المصباح المتفجر «إيفري ريدي»، وعلبة «البيك ـ نيك» «وولت ديزني»، اللذان رأيتهما في ماناغوا، يعودان إلى ذاكرتي. كانت طائرة كندية، وخبراء كنديُّون قد تفحصوا حطام الطائرة. أودّ لو أقرأ تقريرهم. قيل لي إنهم لم يكشفوا عن عطل ميكانيكي، ممَّا يضعنا أمام أمرين: خطأ من الطيار، أو قنبلة.

الفهرس

«في آب عام ١٩٨١، كانت حقيبة سفري جاهزة للزيارة الخامسة إلى باناما، عندما تلقيت بواسطة الهاتف نبأ موت الجنرال عمر توريخوس، مضيفي وصديقي.

«فالطائرة الصغيرة التي كان يتوجّه بها إلى بيته الذي يملكه في كوكليزيتو في الجبال البانامية، قد تحطمت، ولم ينج منها أحد. بعد بضعة أيام، قال لي صوت حارسه الشخصي، الرقيب شوشو، الياس خوسي دي يزوس مارتينيز، مدرِّس سابق للفلسفة الماركسية في جامعة باناما، وأستاذ في الرياضيات وشاعر، ما يلي: «كانت هناك قنبلة في الطائرة، أعرف ذلك، ولكنني لا استطيع أن أقول لك لماذا، على الهاتف».

«عندئذ استحضرتني فكرة كتابة مذكرات شخصية مقتضبة انطلاقاً من اليوميّات التي دوّنتها خلال السنوات الخمس الأخيرة، وهذه طريقة شخصية لتكريم الرجل الذي طالما احترمته أثناء تلك المرحلة. ولكن مذ أن كتبت العبارات الأولى، حسب العنوان، لقاء مع الجنرال، تبيّن لي انني لم أتعلّم فقط التعرف إلى الجنرال طيلة هذه السنوات الخمس، إنما هناك شوشو، أحد الرجال النادرين في الحرس الوطني الذي منحه الجنرال ثقته الكاملة؛ هناك أيضاً هذه البلاد الغريبة، الصغيرة والجميلة، المنقسمة إلى جزئين بواسطة القناة والقطاع الأميركي، بلد ارتدى، بفضل الجنرال، أهميّة كبيرة

غراهام غرين

تصميم الغلاف نجاح طاهر

